زوال دولة إسرائيل

د/ محمـد مـورو

جزيــــرة الــورد
ت: ٠٢/٢٥١١٤٣٧١

الطبعة الأولى

٢٠٠٩م - ١٤٣٠هـ

مقدمة

زوال إسرائيل نبوءة قرآنية وحتمية تاريخية

هل هو إغراق في التفاؤل كرد فعل على حالة شديدة الصعوبة والقسوة تمر على المنطقة وعلينا.. أم هو نوع من خداع النفس أو الأماني الحلوة في الأيام المرة، أم نوع من الهروب من مواجهة تحديات ضخمة تمثلها جيوش وبواخر وأسلحة ودمار وقتل وترويع وتدخل سافر في شئوننا وصل إلى حد تحديد ما نتعلمه وما لا نتعلمه.. أم هو نوع من التشبث بالأمل حتى لا نستسلم لليأس؟

ليس هذا ولا ذاك.. بل هو الحقيقة إن شاء الله، فإذا كنا نؤمن حقًا بالقرآن الكريم، فإن النبوءة القرآنية تتحدث بالفعل عن زوال إسرائيل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء: ٤ – ٧].

وإذا كان القرآن الكريم يتحدث عن زوال إسرائيل فإن هذا يصل إلى درجة اليقين المطلق لدى كل مسلم، وهو يقين مفيد لجعله لا ييأس أبدا مهما اختل ميزان القوى، ومهما كانت الظروف الدولية والإقليمية صعبة، لأن الله تعالى الجبار المتعال القادر على كل شيء، والأكبر من كل قوة هو الذي وعد بذلك ووعده الحق إن شاء الله تعالى، وبالتالي فإن استمرار المقاومة بكل أشكالها، ومهما كانت الصعوبات هو الطريق الصحيح والمشروع والمتفق مع المنهج القرآني، وهذا في حد ذاته إحدى علامات النصر إن شاء الله.

زوال إسرائيل أيضا حتمية تاريخية، ذلك أن إنشاء دولة إسرائيل هو على عكس حركة التاريخ والجغرافيا، وهو نوع من تثبيت جسم غريب في كائن حي يرفضه،

ومهما كانت قوة اللصق والتثبيت فإنها ستنتهي يوما، وهذه المنطقة العربية الإسلامية، منطقة شديدة العمق حضاريًا وثقافيًا، وذات كثافة سكانية عالية ولا يمكن بكل الوسائل والطرق ولا حتى بالإبادة تفريغ المنطقة من السكان، أو تفريغها من وجدانها الثقافي والديني، ولأن المنطقة هي أعمق مناطق العالم ثقافة، فهي ستلفظ بالضرورة هذا الجسم الغريب، وإذا كان الغرب قد أراد أن يتخلص من المشكلة اليهودية بإنشاء إسرائيل، وليستفيد منها في نفس الوقت كمغرزة عسكرية متقدمة ضد قلب العالم العربي والإسلامي، فإنه أيضا كان يدرك أن المنطقة لن تقبل ذلك، لا بسهولة ولا بصعوبة، ولم يكن هذا يهم الغرب بالطبع، فلسان حاله يقول: فليذهب العرب واليهود معاً إلى الجحيم، ولأن اليهود أغبياء فقد بلعوا الطعم، ومارسوا غدرهم وحقدهم على المسلمين بلا هوادة، ولكن ذلك أيضا لن يفلح في تثبت كيان مفتعل وملفوظ جملة وتفصيلا.. مهما كانت القوة العسكرية الإسرائيلية، ومهما كانت قوة الدعم الأمريكية والغربية للكيان الصهيوني، ومهما كانت وسائل الترهيب فلن تفلح في القضاء على مقاومة الجسم العربى الإسلامي ولا القضاء على مناعته في مواجهة هذا الجسم الغريب، ومهما كانت قوة التضليل وغسيل المخ وقوة الإغراءات والمشروعات لإقناع الشعوب بقبول التعايش مع إسرائيل أو التخلي عن الهوية والثقافة أو تفسير الإسلام تفسيرا جزئيًا أو مغلوطا فإن ذلك لن ينجح بل هو أحد المستحيلات، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

المنطقة العربية والإسلامية وتحديدًا قلبها فلسطين، ليست منطقة خالية من السكان، ولا خالية من الثقافة، بل هى عميقة وكثيفة حضاريًا وبشريًا، بل ربما هي الأعمق والأكثف في العالم، وهكذا فإن زوال إسرائيل حتمية حضارية، قد ينجح الضغط في تثبيت مؤقت لذلك الكيان، قد يتورط حاكم أو مجموعة بشرية أو دولة أو حتى جيل بأكمله في التعايش المستحيل مع إسرائيل، ولكن هذا ضد منطق الأشياء ولن يستمر طويلا.

هذه الحقيقة بدأ يدركها مفكرو وقادة العدو الصهيونى أنفسهم، فهم يتحدثون عن

وطن بلا مستقبل، أو أنهم أخذوا أكبر مقلب أو خازوق على حد تعبير أحد الشعراء الصهاينة في استقباله لأحد المهاجرين الجدد قائلا له: تعال وأجلس على الخازوق مثلنا.

المقاومة هنا شرط لازم لزوال إسرائيل.. والمقاومة قد اندلعت بالفعل وامتلكت الطريق الصحيح، بل وأفرزت ظاهرة رائعة وهي العمليات الاستشهادية.. وهذا سلاح لا يمكن القضاء عليه، لقد تمت عمليات استشهادية في جميع أنحاء فلسطين المحتلة، في الجليل، وتل أبيب ويافا وعكا وفي الضفة وغزة، وضد مستعمرات شديدة الحراسة وضد مستوطنين مسلحين، وضد كتائب الجيش الصهيوني ذاتها تمت هذه العمليات في جميع الأحوال والأوقات، وهذا يعني أن كل الاستخبارات والتحصينات والأقمار الصناعية ووسائل التكنولوجيا الحديثة والقديمة لم تكن حائلا دون استمرار هذه العمليات، لا إمكانات الجيش الصهيوني ولا الجيش الأمريكي ولا محاولات السلطة، ولا الضغوط الدولية ولا حالة الهجوم الإعلامي المستمر على تلك العمليات ووصفها بالإرهابية، ولا محاولات إرهاب الشعب الفلسطيني وترويعه، ولا الاغتيالات ونسف البيوت ولا الأسوار والأطواق الأمنية حالت دون استمرار ونجاح تلك العمليات، والقيمة الكبرى لتلك العمليات ليس في مدى ما تحدثه من خسائر في صفوف العدو، بل بما تبثه من رعب في نفوس الإسرائيليين وما تحدثه بالتالي من خلل في المجتمع الإسرائيلي، بل ما تحققه من نسف لفكرة الصهيونية ذاتها، لأن الفكرة الصهيونية بالنسبة لليهود الصهاينة هي التجمع في مكان آمن وطن قومي بعد أن عانى اليهود من الاضطهاد العنصري في أوروبا تحديدا!! وهذا بالطبع ليس ذنب العرب والمسلمين الذين يعاملون غير المسلمين بمن فيهم اليهود معاملة تليق بالعدل الإسلامي والأوامر الشرعية الإسلامية، ولعل ممارسات التاريخ القديم والحديث تؤكد ذلك، المهم أن الغرب نجح في إقناع اليهود بأن فلسطين ستكون مكانًا آمنا بالنسبة لهم، فهي أرض بلا شعب، ومنطقة سوف تقبل بهم بالقهر والإغراء، وهي أيضا ترجمة للتفسير المحرف للتوراة أو التلمود، ولكن جاءت حقائق التاريخ والجغرافيا

والثقافة والمقاومة لتقول العكس، فالشعب الفلسطيني موجود، وهو لن يفرط في أرضه، وهو يمتلك أعلى نسبة خصوبة قادرة على إحداث توازن سكاني باستمرار مهما استمرت عملية الإبادة الصهيونية، والثقافة العربية الإسلامية عميقة الجذور لن تسمح بقبول دائم لإسرائيل في المنطقة، والنص القرآني والمفاهيم الإسلامية الثابتة منتشرة بقوة في المنطقة المحيطة، وهذا معناه استمرار الدعم المادي والمعنوي، بل وخروج الاستشهاديين من غير الفلسطينيين من العرب والمسلمين، والممارسات الإسرائيلية والأمريكية في المنطقة تدفع الشعوب دفعا إلى إدراك أن الجهاد والمقاومة ليست فقط فريضة شرعية بل هى ضرورة حياتية وطريق بلا بديل وإلا فالموت والخضوع وفقدان الكرامة.. وبذلك كله وبغيره كثير، أصبحت فلسطين أقل الأماكن في العالم أمانًا بالنسبة لليهود، وهذا ينسف فكرة الصهيونية من جذورها، وهكذا فإن المقاومة في الحقيقة والتي وصلت إلى حد مطاردة الإسرائيليين في بيوتهم ومطاعمهم ونواديهم ومستوطناتهم وثكناتهم العسكرية، بل وخارج فلسطين ذاتها في كينيا على يد فدائيين ليسوا فلسطينيين، بل مسلمين ينتمون إلى تيارات عربية أخرى، هذه المقاومة تقول: إن فكرة الوطن الآمن فكرة مزيفة، وأن على يهود إسرائيل أن يعيشوا في خوف ورعب دائم، وإذا كان الأمر بالنسبة للإسرائيلي مفهومًا حين يقوم بالقتال من أجل إنشاء وطن واستمراره وتثبيته، فهذا لا يكون إلا لفترة محدودة وبتضحيات معينة، أما أن تتحول المسألة إلى قلق وخوف دائمين، واستنفار مستمر وقتال بلا نهاية منظورة فهذا فوق الطاقة، وإذا كان ذلك هو قدر العرب والمسلمين؛ لأن هذه بلادهم وليس لهم بلاد غيرها، فإن ذلك ليس حتميًا بالنسبة ليهود إسرائيل؛ لأنهم يمكنهم العودة من حيث أتوا أو أتى آباؤهم، وبديهي أن حلم الاستقرار والتمتع بمباهج الحياة حلم كل إنسان، وخاصة الأجيال الجديدة في إسرائيل، وهكذا فالمقاومة نسفت الفكرة الصهيونية، أما سيناريو زوال إسرائيل فهو مجرد تفاصيل.

تفسخ وانهيار المجتمع الإسرائيلي من الداخل، وشيوع حالة الخوف والفزع لدى الإسرائيليين أحرص الناس على حياة وتشقق فكرة الصهيونية ذاتها أمر أصبح

محسوساً ومعروفا وترصده مراكز الأبحاث، بل يراه أي مفكر موضوعي داخل إسرائيل أو خارجها، بل إن تقريرا أعدته لجنة مشتركة من الكنيست ومجلس الوزراء الإسرائيلي عام ٢٠٠٧ وجاء بعنوان الواقع في إسرائيل يصل إلى نفس النتيجة وهو أن الأمور لو سارت بنفس الطريقة فسوف ينهار المجتمع الإسرائيلي من الداخل خلال ٢٠ عامًا وأنه لا بد من علاج الموضوع.. وبديهي أن تلك أمانيهم، فالعلاج موضوعيًا وحضاريًا واستراتيجيًا مستحيل، المهم أن التقرير يتحدث عن أن المقاومة والانتفاضة تسببت في عجز في الميزانية بلغ ٣٠٪ من عام ٢٠٠٠ وحتى الآن سنويًا، وأن الميزانية العسكرية تستهلك ٦٠٪ من عائدات إسرائيل القومية، وإذا كان علاج ذلك ميسوراً عن طريق ضخ الأموال لإسرائيل من أمريكا أو الدول التي صنعت إسرائيل وتستفيد منها مثل أمريكا حاليا، فإن علاج الخوف والفزع الإسرائيلي لا يمكن أن يتم لا عن طريق أمريكا ولا غيرها، يتحدث التقرير أيضا عن أن ٣٠٪ من المواطنين لديهم رغبة أكيدة في مغادرة إسرائيل، وأن ١٣٪ من الأسر الإسرائيلية ترفض الإنجاب، وأن معدل المواليد انخفض بنسبة ٢.٥٪، وتقول الأسر الرافضة للإنجاب برغم توفر المقومات الشخصية والاقتصادية لذلك إنها لا تريد إنجاب أطفال ليموتوا، وأن أحدا في إسرائيل لا يضمن الآن العودة إلى أطفاله سالما أو عودة أطفاله إليه من المدرسة سالمين!!، ويرصد التقرير حالة الهروب من الجيش أو رفض الخدمة في الأراضي المحتلة وتدني حالة الشعور بالوطنية لدى الجيل الجديد الذي يعبر عن رغبته في العيش بأمان وأنه من الصعب استمرار التوتر إلى الأبد!!، ويعترف التقرير أن هناك شعورًا بعدم الأمان يسيطر على الإسرائيليين، وأن الأولاد والأمهات والزوجات يخشون الآن النزول إلى الشوارع أو التسوق، وأن المسألة قد انتقلت من كوننا كنا نقصد أن إسرائيل تتحكم في مصائر الفلسطينيين إلى أن الفلسطينيين هم الذين قد يتحكمون في مصير إسرائيل خاصة أنهم يتحركون بلا نظام ومن الصعب بالتالي الإمساك بتلابيبهم أو تحديد وسيلة ناجحة للقضاء على إرهابهم!!

* * * * *

إسرائيل طليعة استعمارية.. أم طبيعة دينية؟

كي نستطيع أن نواجه التحدي الصهيوني الذي مثل ويمثل أكبر التحديات وأخطرها بالنسبة لأمتنا وهويتنا وحضارتنا ومصالحنا ومستقبلنا بل ووجودنا ذاته، ينبغي أن نعرف طبيعة هذا الكيان المغتصب وتوجهاته.

وقد يبدو للوهلة الأولى أن هناك تعارضاً بين نظرتين لفهم طبيعة المجتمع الصهيوني:

الأولى: ترى أنه جزء من مشروع الهيمنة الغربية على المنطقة في إطار الصراع الحضاري.

والثانية: ترى أن المجتمع الصهيوني مجتمع توراتي قائم على الأسطورة الدينية، وأن اليهود؛ بما لهم من نفوذ مالي وإعلامي وغيره، نجحوا في السيطرة على صناعة القرار الغربي، فحصلوا على الدعم اللازم لمشروعهم.

والحقيقة أنه بشيء من التركيب يمكن أن نجد أن للمفهومين أصلهما التاريخي والواقعي؛ فالكيان الصهيوني نشأ أصلاً من رغبة غربية استعمارية لإقامة كيان أو مجموعة وظيفية في هذه البقعة الحساسة من قلب العالم العربي والإسلامي كجزء من مشروع الهيمنة الغربية على المنطقة، وكحلقة من حلقات الصراع الحضاري بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية. وتلاقت هذه الرغبة الاستعمارية أو غذت مفهوم الحلم والأسطورة المزيفة لدى اليهود عن حق العودة إلى فلسطين وإقامة وطن قومي لهم على أساس التفسير المحرف للتوراة المحرفة أصلاً، أو على أساس الدعاية الدينية اليهودية لجمع يهود العالم في هذه البقعة. وفي الحقيقة فإن الرغبتين والمصلحتين التقتا في محطة تاريخية تمخض عنها قيام هذا الكيان، ويجب هنا أن ندرك أن هناك وجداناً غربيًا كارهاً ومعادياً لليهود

أصلاً، ومارس الاضطهاد بحقهم طويلاً؛ وبذلك فإن إقامة وطن قومي لهم يحقق هدفين:

الأول: هو التخلص من اليهود كزبالة بشرية غير مرغوب فيها في الغرب.

ثانياً: الاستفادة من هذا الكيان في تحقيق الأهداف الاستعمارية، والكيد للحضارة الإسلامية، وتمزيق وحدة المنطقة، ومنع نهوضها أو تطورها، واستمرار نهبها.

إذن فالكيان الصهيوني هو مشروع غربي في الأساس تم صياغته داخل أروقة المؤسسات الاستعمارية الغربية قبل أن يفكر فيه هرتزل بفترة طويلة. فهناك على سبيل المثال لا الحصر نداء نابليون بونابرت إلى يهود العالم من أجل إعادة إنشاء مملكة القدس القديمة «سنة ١٧٩٩م» في إطار المشروع الاستعماري في الشرق الذي كان يحكم به نابليون، وهناك دعوة الرئيس الأمريكي (جون آرامز) إلى استعادة اليهود لفلسطين «سنة ١٨١٨م». وهناك مذكرة سكرتير البحرية الإنجليزية إلى وزير الخارجية (بالمرستون) التي يقترح فيها دعوة أوروبا إلى إعادة اليهود إلى فلسطين «عام ١٨٣٩م». وهناك برنامج (اللورد سافتبري) إلى مؤتمر لندن بشأن توطين اليهود في فلسطين «سنة ١٨٤٠م». وهناك مشروع «إدوارد تنورد» لإقامة دولة يهودية متكاملة في فلسطين تحت الحماية الإنجليزية المؤقتة إلى أن تتمكن هذه الدولة من الوقوف على قدميها «سنة ١٨٤٥م». وهناك كتاب (أرنست لاهان) المستشار الخاص لنابليون الثالث في المسألة الشرقية «إعادة بناء أمة اليهود» «سنة ١٨٦٠م». وهناك كتاب «أرض جلفاد» (للورنس أوليفنت) عضو البرلمان الإنجليزي ووزير الخارجية والذي يقترح فيه إقامة مستوطنة يهودية على مساحة ١.٥ مليون فدان في الأردن وفلسطين «عام ١٨٨٠م». ثم هناك تأسيس بلاكستون في شيكاغو لمنظمة العثبة العبرية نيابة عن (إسرائيل) من أجل حث اليهود على الهجرة إلى فلسطين، ومذكرة (بلاكستون) إلى الرئيس الأمريكي (بنيامين هاريسون)

ووزيـــــــــــــــــــــــر خارجيتـــــــــــــــــــــــه جيمس لين بإنشاء وطن قومي لليهود عام ١٨٩١م، وصدور كتاب الدبلوماسي الإنجليزي (وليمر هشلر) «إعادة اليهود إلى فلسطين» الصادر عام ١٨٩٤م، كل هذا قبل صدور كتاب تيودور هرتزل «الدولة اليهودية» الذي صدر عام ١٨٩٦م.

وفي هذا الصدد يقول جمال حمدان في كتابه «استراتيجية للاستعمار والتحرير»، ص ١٦٨: «التقت الإمبريالية العالمية مع الصهيونية لقاءً تاريخيًا على طريق واحد هو المصلحة الاستعمارية المتبادلة، فيكون الوطن اليهودي قاعدة تابعة وحليفاً مضموناً أبداً يخدم مصالح الاستعمار؛ وذلك ثمناً لخلقه إياه وضمانه لبقائه، ويقول أيضاً في الكتاب نفسه، ص ١٧٦: «الاستعمار هو الذي خلق (إسرائيل) بالسياسة والحرب، وهو الذي يمدها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال، وهو الذي يضمن بقاءهما ويحميها علناً».

ويؤكد (روجيه جارودي) على هذه الحقيقة أيضاً بقوله: «إن الأب الروحي للصهيونية ثيودور هرتزل أشعل الرغبة الاستعمارية في خلق (إسرائيل) وقدم لها مسوّغات إقامة هذه الدولة على أساس أنه إذا قامت إحدى الدول الاستعمارية بحماية هذه الدولة اليهودية فسوف تتمتع بميزة على خصومها؛ لأن هذه الدولة ستعتبر رأس حربة مزروعة في المنطقة من أجل التغلغل الاستعماري. وكتب تيودور هرتزل سنة ١٨٩٥م في كتابه (الدولة اليهودية) قائلاً: «ستكون هذه الدولة بالنسبة إلى أوروبا متراساً ضد آسيا، وستكون بمثابة الحصن المتقدم للحضارة ضد البربرية».

وفي محاضرة لروجيه جارودي في ١٩٩٦/١٠/١٣م في فندق الماريوت بالقاهرة قال: «إن (إسرائيل) ستلعب دوراً هاماً في المواجهة الحضارية بين العالم الغربي والعالم الإسلامي نظراً لموقعها الاستراتيجي في قلب العالم الإسلامي».

وإذا كانت هذه هي أهداف السياسة الاستعمارية من خلق (إسرائيل) لتكون وكيلاً للاستعمار الغربي وجماعة وظيفية لأداء وتنفيذ أهدافه، فإن القادة الصهاينة لعبوا على تلك النقطة تجاه الرأي العام الغربي وقواه السياسية وأجهزته ومؤسساته الحاكمة، وفي نفس الوقت لعبوا على الأسطورة التاريخية لدى اليهود عن الوعد التوراتي بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، سواء كان هذا السلوك من قادة الصهاينة نوعاً من الدجل والدعاية، أو أنه يعبر عن اقتناعهم الحقيقي، سواء كان هؤلاء القادة الصهاينة ملحدين أو مؤمنين فإنهم عكسوا في سلوكهم وتصريحاتهم وبنائهم للكيان الصهيوني تفسيراً أسطوريًا توراتيًا - محرفاً بالطبع ومزيفاً وكاذباً، فجولدا مائير زعيمة حزب العمل التاريخية في تصريح لها لصحيفة لوموند الفرنسية ١٩٧١/٥/١٥م تقول: «نشأ هذا البلد تنفيذاً لوعد الرب ذاته؛ ولهذا لا يصح أن نسأله إيضاحاً عن شرعية هذا الوجود».

ومناحم بيجين «ليكود» يصرح لصحيفة دافار الإسرائيلية، ١٩٧٨/١٢/١٤م بقوله: «لقد وعدَنا الرب هذه الأرض، ولنا الحق فيها».

أما موشي دايان «ملحد» فيقول: «إذا كنا نملك التوراة، وإذا كنا نعتبر أنفسنا شعب التوراة فينبغي أن نمتلك أيضاً بلاد التوراة، بلاد القضاة أرض أورشليم وحيرون وأريحا» جيروزاليم بوست، ١٩٦٧/٨/١٠م.

وهكذا يتردد دائماً على ألسنة الزعماء الصهاينة نفس المنطق سواء كانوا من اليمين أو اليسار، أعضاء في حزب العمل أو في كتلة الليكود، ناطقين باسم الجيش أو الحاخامية؛ فالتوراة ترسم كل شيء في (إسرائيل)، ترسم ثقافة الأطفال في المدارس؛ فبناء على توجيه دافيد بن جوريون فإن الدين اليهودي في إسرائيل يدرس كمادة إجبارية في المدارس.

والزواج في (إسرائيل) زواج ديني، ولا يوجد في (إسرائيل) دستور؛

لأن التوراة هي القانون الأساسي للدولة، والتوراة هي التي تعرّف المواطن وتحدد من هو الإسرائيلي، وهي ذاتها تحدد حدود الدولة، بل وتسوّغ الحرب والإرهاب «علينا ألاّ ننسى أجزاء التوراة التي تسوّغ هذه الحرب؛ فنحن نؤدي واجبنا الديني بوجودنا هنا؛ فالنص المكتوب يفرض علينا واجباً دينياً وهو أن نغزو أرض العدو» حاخام برتبة نقيب، هآرتس، ١٩٨٢/٧/٥م.

والمذابح من دير ياسين إلى صابرا وشاتيلا تُحِلُّها التوراة وتأمر بها: «وحرّقوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل ومسن وشيخ حتى البقر والحمير بحد السيف» سفر يشوع، الإصحاح ٦ آية ٢١.

وبالطبع فإن هذا الفهم للتوراة - وهي محرفة أصلاً - هو بدوره فهم مغلوط، والحديث عن الوعد الإلهي في التوراة حديث مغلوط؛ لأن يهود إسرائيل أولاً ليسوا هم أبناء اليهود الأوائل من ناحية؛ فهم من يهود الخزر غالباً، وحتى لو فرض أنهم من أبنائهم فقد فقدوا أهليتهم بسبب عصيانهم التاريخي المستمر لأنبيائهم، ولأنه بعد الإسلام بالذات فإن الأمة الإسلامية هي الأمة الرسالية، ونحن من ثم أوْلى من اليهود بإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وموسى، ويوشع، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى ابن مريم - عليهم السلام - وأن هؤلاء الأنبياء وغيرهم قد بايعوا محمداً الرسول ﷺ أثناء رحلة الإسراء والمعراج عندما أمّهم في تلك الليلة في الصلاة في بيت المقدس، وأن موسى وداود وسليمان وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل لو بعثوا اليوم ما كان بوسعهم إلا الدخول في الإسلام، باعتباره الدين الحق الحنيف الذي جاء به إبراهيم أصلاً من عند الله، وجاء به النبيون من قبله ومن بعده، والذي جاء محمد ﷺ ليكون به خاتم الأنبياء، وليكون المسلمون هم ورثة كل وعد إلهي.

والكيان الصهيوني كيان عنصري؛ فهو قائم في تعريف المواطنة وكذا في سلوكه السياسي على فكرة تجميع يهود العالم الذين يزعم أنهم من أب

واحد وكتلة قومية ودينية واحدة، وأنهم شعب الله المختار وبقية العالم عبيد لهم، والديمقراطية الإسرائيلية لليهود فقط.

والكيان الإسرائيلي كيان عسكري وعدواني؛ فـ (إسرائيل) تنفق ٥٠٪ من ميزانيتها على الجيش، والمؤسسة العسكرية تتحكم في كل شيء في (إسرائيل) تقريباً، وعلى حد تعبير بنيامين نتنياهو رئيس وزراء الكيان الصهيوني السابق «فإن القوة العسكرية مؤسسة لا بديل عنها للمحافظة على أمن إسرائيل. ونظريات السلام مع العرب ونظريات الخلاص اليهودي بالسلام يدلان على رؤية غير واقعية للواقع الإسرائيلي البائس، وعلى أحلام كاذبة تنبع من محاولة الهروب من الصراع المحتوم عليها نتيجة وجودنا فإنه بين الشعوب العربية» بنيامين نتنياهو - كتاب «فكان تحت الشمس».

وهكذا فالمفهوم الإسرائيلي للسلام يتلخص في التفوق العسكري والخضوع الفاعل عسكرياً وسياسياً من جانب العرب للهيمنة الإسرائيلية، وهذا بالطبع يشير إلى استمرار وجود قوة عسكرية هائلة، واستمرار توجيه ضربات إجهاضية لكل محاولة عربية لامتلاك القوة.

ولأن الكيان الصهيوني جماعة وظيفية أولاً لممارسة العدوان لحساب الاستعمار الغربي «الأمريكي حالياً» ولأن حقيقة وجودهم مصنوع وغير طبيعي فإن المجتمع الإسرائيلي الذي قام على سلب حقوق الآخرين يحس بهاجس الأمن أو ما يسمى بعقدة الأمن، وهي عقدة ناجمة عن شعور إسرائيلي داخلي بأن وجودهم على هذه الأرض غير شرعي - ولم تفلح محاولات زرع ثقافة مصطنعة في إعطاء الإسرائيليين الشعور بالانتماء أو المشروعية؛ ولذا فإن المجتمع الإسرائيلي مجتمع معسكر؛ فأنماط المعيشة في إسرائيل «المستوطنات، الكيبوتزات، الموشوفات» وطريقة التجنيد والتعبئة ونظام الاحتياط ووضع المؤسسة العسكرية السياسي من حيث كونها مصدراً للنخب السياسية والأمنية رفيعة المستوى، وأهمية حقيبة وزارة الدفاع في الحكومات الإسرائيلية، ونسبة مخصصات الميزانية العامة الإسرائيلية للاتفاق العسكري، توضح

الوضع الذي تمثله المؤسسة العسكرية في (إسرائيل).

ويعاني المجتمع الإسرائيلي أيضاً من مسألة عدم تجانس اليهود القادمين من مختلف بقاع العالم، من غرب أوروبا وأمريكا، ومن شرق أوروبا، ومن اليمن والعراق والمغرب وروسيا، والحبشة وغيرها، وكل منهم يحمل ثقافة مختلفة، ولن يفلح الحديث عن الأسطورة التاريخية أو وحدة الأصل اليهودي في صهر هذا المزيج غير المتجانس، وكذلك فإن الوجود العربي الفلسطيني داخل فلسطين المحتلة يمثل مشكلة كبيرة بالنسبة لإسرائيل؛ فلا هي قادرة أو راغبة على إعطائهم حقوقهم السياسية كمواطنين إسرائيليين ومع تزايد معدلات النمو السكاني الفلسطيني فإن مشكلة ديموجرافية خطيرة ستواجه الكيان الصهيوني.

الكيان الصهيوني بعد الحرب الباردة:

إذا كان الصهاينة قد قبلوا أن يقوموا بدورهم كوكيل للاستعمار الغربي في المنطقة مقابل السماح لهم بإقامة كيانهم ودعمه مادياً ومعنويًا، فإن مرور عشرات السنين على هذا الكيان جعل قادته يفكرون في التحول من دور التابع إلى دور الشريك الاستراتيجي، وتواكب في تلك اللحظة حدوث متغير هام في الصراع الدولي ومعادلاته الإقليمية؛ فبسقوط الاتحاد السوفييتي السابق ونهاية الحرب الباردة، قلّت أهمية (إسرائيل) الاستراتيجية بالنسبة للغرب عموماً وأمريكا خصوصاً، وتواكب ذلك مع الوجود العسكري الأمريكي في المنطقة بعد حرب تحرير الكويت ١٩٩١م والاحتلال الأمريكي للعراق ٢٠٠٣، أن أمريكا جاءت بجيوشها ولم تستخدم هذه المرة - لأسباب كثيرة - الصهاينة كجماعة وظيفية لأداء خدمات عسكرية نيابة عنها، وهذا بدوره قلل الأهمية الاستراتيجية للإسرائيليين، ولكي يعيد الإسرائيليون التأكيد على أهميتهم ودورهم ساروا على عدة محاور أولها زيادة التغلغل الصهيوني في الإدارة الأمريكية؛ وخاصة الخارجية والمخابرات والدفاع ومراكز البحث ومؤسسات صنع القرار الأمريكي عموماً بشكل لم يسبق له مثيل على الإطلاق في تاريخ العلاقة بين الطرفين.

ثم عملت (إسرائيل) على تقديم نفسها ليس كتابع لأمريكا بل كحليف استراتيجي - مستقل - لها، ولو كحليف صغير أو أقل حجماً.

يقول شمويل كاتز في بحثه المعنون: «وجهة نظر إسرائيلية للعلاقة الأمريكية الإسرائيلية»: «ما مدى صحة القول بأن (إسرائيل) تعتمد على الولايات المتحدة الأمريكية اعتماداً تاماً؟ إنه قول سخيف حتماً لو أخذناه على ظاهره؛ فإذا كانت إسرائيل توصف دائماً بأنها حليف؛ فمعنى ذلك أن هناك بين الولايات المتحدة وإسرائيل حالة من الاعتماد المتبادل لا تقل، بل إنها تزيد في بعض الجوانب عن العلاقة بين الولايات المتحدة وأوروبا الغربية»، ويضيف الباحث الإسرائيلي شمويل كاتز: «لا غنى لأمن أمريكا عن إسرائيل الصديقة، لا بسبب الحقائق الجغرافية السياسية وحدها؛ بل أيضاً لأن إسرائيل أصبح لديها القدرة على خدمة المصالح الأمريكية بشكل إيجابي ولا سيما في الشرق الأوسط».

ويطرح كاتز أن علاقة الحلفاء هي الأكثر قبولاً بقوله: «ولا شك في أن بالوسع إقامة علاقة صحيحة ومتكافئة كالعلاقة بين الحلفاء بإبرام اتفاق تعاقدي لا يتأثر بالتحيزات السياسية ليضمن لإسرائيل أن تحصل لا على منح بل على مقابل للخدمات».

وطرحت (إسرائيل) نفسها بعد الحرب الباردة كذراع قوية وفعالة في مواجهة الصحوة الإسلامية، وإذا كانت دوائر حلف الأطلنطي وأمريكا بالذات قد اعتبرت أن الإسلام هو العدو الجديد بعد انهيار الاتحاد السوفييتي السابق، وأن الصحوة الإسلامية تمثل خطراً على المصالح الأمريكية والغربية قيمياً وسياسياً وعسكرياً، واقتصادياً، فإن (إسرائيل) التي تحس بالخطر ذاته عليها مستعدة للقيام بدورها لحماية نفسها ولحماية مصالح أمريكا والغرب أيضاً. كما أكثرت (إسرائيل) من الحديث عن دورها الهام في موازنة الخطر الإيراني المرتقب.

وقد طرحت (إسرائيل) نوعين من التكتيك لخدمة الأهداف الأمريكية بعد الحرب

الباردة: الأول يتضمن سيطرة أمريكا اقتصادياً وكذلك سياسياً وعسكرياً على المنطقة من خلال إدماج المنطقة في تجمع اقتصادي وعلاقات اقتصادية «السوق الشرق أوسطية» تحقق لأمريكا أهدافها، وتكرس سيادتها على العالم والمنطقة، وتكون إسرائيل فيه أكبر الشركاء والقائد الإقليمي للتنمية التي تحقق بدورها من خلال رفع مستوى معيشة العرب نزع فتيل التطرف الإسلامي الذي يستمد مادته من تدهور الأوضاع الاقتصادية في المنطقة، وفي الوقت نفسه تحقيق نوع من السلام مع العرب يضمن لإسرائيل البقاء في المنطقة كجزء مندمج فيها من خلال شبكة قوية ومتنوعة من العلاقات الاقتصادية مع المحافظة على تقوية الذراع العسكري الإسرائيلي ونزع سلاح العرب؛ أي أن يحقق نوعاً من الربط بين (إسرائيل) والعرب يجعل من الصعب على الدول العربية أن تفكر في قطع صلتها بـ (إسرائيل) والتحول إلى علاقة عداء والرؤية الثانية تقوم على استمرار إسرائيل منفصلة عن الشرق الأوسط وليست مندمجة في نظام شرق أوسطي؛ لأن مستقبل إسرائيل والمصالح الغربية من يتمحور حول إسرائيل ذاتها وقدرتها على الاحتفاظ بشخصيتها في وسط معاد، وأنه لا توجد وسيلة للتعامل مع هذا المحيط إلا بالقوة والردع والعنف. يقول نتنياهو في كتابه «مكان بين الأمم»: «السلام الوحيد الممكن تحقيقه بين العرب وإسرائيل هو السلام الذي يعتمد على ردع العرب، هو سلام حذر ومسلح يوفر لإسرائيل درجة كافية من القوة القادرة على ردع الجانب العربي عن التفكير في استمرار الحرب».

وفي الحقيقة فإن (إسرائيل) قد نجحت بوسائل عدة في إقناع واشنطن بأسلوب التحالف بدلاً من أسلوب التابع؛ وأصبح هناك انطباقا كاملا بين البلدين.

* * * * *

اقتحام غزة وإسقاط حماس

تصريحات وزير الدفاع الصهيوني إيهود باراك حول إمكانية القيام بهجوم بري واسع النطاق على غزة بهدف إسقاط حماس، والقضاء على ما أسماه بؤر المقاومة وأماكن إطلاق صواريخ القسام، ثم نسيان غزة تماماً من قبل إسرائيل، هي تصريحات يجب أن نأخذها في اعتبارنا، ذلك أن ذلك السيناريو له تداعيات خطيرة على القضية الفلسطينية، وكذا على الأمن القومي المصري والعربي.

بداية فإن ما حدث ويحدث في غزة هو نوع من المحرقة أو الهولوكوست الصهيوني، وكلام نائب وزير الدفاع الصهيوني عن تنفيذ هولوكوست في غزة قد تم بالفعل، فلا يمكن وصف ما حدث في غزة، خاصة في الأيام الأخيرة إلا بالمحرقة، فالطائرات الصهيونية استمرت في غارات مستمرة لمدة يومين كاملين، استخدمت فيها أسلحة محرمة دوليًا، واستهدفت فيها أطفال ونساء وشيوخ، وتسببت في قتل ١٢٠ فلسطيني فضلاً عن عشرات الجرحى، هذا بالإضافة إلى حصار الجوع والموت والظلام ومنع الغذاء والدواء والوقود عن أهالي غزة، كل هذا لا يمكن إلا أن يكون نوع من الإبادة الجماعية لأهالي غزة، وفي الحقيقة فإن إسرائيل نفذت حوالي ٥٠٠٠ مجزرة ومذبحة منذ عام ١٩٣٨ إلى عام ٢٠٠٥ وحتى الآن، وقد تصاعدت المذابح منذ صعود حماس إلى السلطة في غزة في العام الماضي. المحرقة التي تمت لأهالي غزة تكشف أولاً عن أن الإسرائيليين هم النازيون الجدد، وأن المحرقة النازية المزعومة - أو الحقيقة - بحق اليهود في ألمانيا لا تصل إلى هذا الحد من الإجرام والسفالة الصهيونية بحق أهالي فلسطين عموماً وأهالي غزة خصوصاً، ومن ثم فإن كلام نائب وزير الدفاع الصهيوني (ناتالي فنائي) عن تنفيذ محرقة أو هولوكوست في غزة هو كلام حقيقي وليس رمزي، ويبقى أنه رغم وقائع محرقة حقيقية، ورغم حديث صهيوني سافر عن محرقة، ورغم صور الأطفال القتلى التي تبثها وكالات الأنباء فإن الضمير الغربي المطاط لم يتحرك، بالإضافة إلى عجز العرب والمسلمين عن فعل شيء لأهالي غزة، ولو تلقت حركات المقاومة في غزة دعماً عسكريًا وماليًا

وسياسيًا عربيًا على غرار ما تلقاه حزب الله في لبنان من إيران وسوريا لكان الأمر مختلفاً.

وبالطبع فإن المطلوب من حماس أن تطمئن الحكومات العربية بأنها ليست داخلة في خطط الإخوان المسلمين الدولية - بصرف النظر عن صحة أو خطأ تلك الخطط الإخوانية - وأنها تقدم أهدافها التحريرية في فلسطين ومعركتها مع إسرائيل على انتمائها الإخواني، ومن ثم تعطي الفرصة، أو على الأقل تمنع الذريعة التي يتذرع بها البعض حول الخوف من دعم حماس الذي يمكن أن يتحول إلى دعم لخطط الإخوان المسلمين في المنطقة، وعلى الحكومات العربية بدورها أن تدرك أن تصفية حماس يعني إما إطلاق يد إسرائيل تماماً، وهذا خطر عليها جميعاً، وإما ترك غزة للفوضى، وهذا أسوأ بالنسبة لتلك الحكومات، لأن الفوضى يمكن أن تؤدي إلى أنواع عشوائية وغير مسبوقة من الإرهاب.

حديث وزير الدفاع الصهيوني عن اجتياح بري واسع النطاق لغزة وإسقاط حماس يجب ألا يمر بسهولة، لأنه سيناريو يمكن أن يقع بالفعل، وهذا بداية معناه مذبحة وإبادة شاملة لأهالي غزة ومرافقها الباقية، والقضاء على ما بقى من إمكانيات الحياة فيها، ومن المعروف أن الرئيس بوش شخصيًا يدفع الحكومة الإسرائيلية نحو تصفية حماس في إطار ما يسميه جورج بوش الحرب على الإرهاب، ولكن إسرائيل تدرك ما لا يدركه بوش ومن ثم فهي لا تريد أن تتورط في هكذا سيناريو، لا يمكن أن تتحمل تداعياته، وهي أدرى بالمنطقة من بوش ومن أمريكا، بالإضافة إلى إدراكها أن حماقة بوش يمكنها أن تدفعها إلى المستنقع، ولكن هل تظل إسرائيل متمسكة بموقفها هذا وإلى متى؟!..

سيناريو اقتحام غزة بريًا والقضاء على حماس، هو سيناريو معقد جدًا، وإسرائيل لا تزال تفضل قتل الفلسطينيين بالتجزئة عن طريق غارات الطائرات، ووصلت في ذلك إلى معدلات مخيفة من ٥٠ - ١٠٠ قتيل فلسطيني يومياً، بدلاً من قتل جماعي يمكن أن يؤدي إلى تداعيات شعبية خطيرة خاصة بالنسبة لسلطة أبو

مازن في الضفة، بل يمكن أن تزيد التفاف شعب غزة والضفة حول حماس، وفي حالة صمود حماس - وهو أمر متوقع بالطبع - فإن حماس تتحول إلى نوع من الرمز العربي والإسلامي في كل البلاد العربية والإسلامية، وهذا سيناريو مخيف للعديد من القوى الإقليمية والدولية، خاصة أن حماس عربية سنية أي تتمتع بامتداد شعبي بلا مشاكل طائفية أو عرقية.

سيناريو تصفية حماس إذن يمكن أن يحول أهالي غزة إلى قنابل في وجه الجميع، ويمكن أن تتحول غزة إلى مزرعة هائلة للإرهاب من كل نوع، وهو أمر يمكن أن يصبح إزعاجاً حقيقيًا للقوى الإقليمية ولأمريكا ولإسرائيل ذاتها، فتتخلص اليوم من حماس وتواجه غداً ما هو أشد تطرفاً وعزماً من حماس. أما إذا حدث واستطاعت حماس الصمود، وتلقت دعماً شعبيًا والتفافاً من أهالي غزة ومنعت الجيش الصهيوني من التقدم في غزة بسهولة، وكبدته خسائر فادحة في الأفراد لا يمكنه احتمالها، فإن الانسحاب الصهيوني في تلك الحالة سيكون اضطراريًا، فتخرج حماس من المعركة وقد ازدادت قوة، فالسم الذي لا يقتلني يزيدني قوة، وبعدها تصبح حماس رقماً هاماً في الصراع لا يمكن تجاهله، وتحصل على مشروعية شعبية وإسلامية أكبر بكثير مما حصل عليه حزب الله الشيعي إبان حرب تموز ٢٠٠٦، وهكذا فإن الاجتياح البري الصهيوني على غزة ليس أمراً سهلاً وليس نزهة، وله تداعيات خطيرة مهما كانت نتائجه.

* * * * *

التكتيك النبوي في مواجهة اليهود

لاشك أن دراسة سياسات الرسول ﷺ تجاه اليهود في الجزيرة العربية في المرحلة المدنية بالتحديد تكشف الكثير من المعطيات الضرورية لفهم مبادئ الإسلام العليا من ناحية، وتكشف أيضاً عن جوانب من الأسلوب الصحيح لمواجهة اليهود عموماً، وهو أمر لازم لنا في إطار الصراع مع العدو الصهيونى الذي يمثل أكبر التحديات في تاريخنا المعاصر.

ولكى نقف على طبيعة التكتيك النبوى تجاه اليهود في تلك الحقبة ينبغى بالطبع أن نعرف شيئاً عن طبيعة الوجود اليهودي في الجزيرة العربية في ذلك الوقت.

تركز الوجود اليهودي في الجزيرة العربية في المدينة وشمالها من ناحية وفى بعض مناطق اليمن جنوباً من ناحية أخرى، ويهمنا بالطبع هنا في إطار دراسة التكتيك النبوى في مواجهة اليهود، التركيز على تلك التجمعات اليهودية في المدينة وشمالها، وكان هؤلاء يتكونون من ثلاث قوى وتجمعات يهودية داخل المدينة هى بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير، وخارج المدينة في خيبر وفدك وتيماء وغيرها على امتداد ٤٢٠ كيلو متر شمال المدينة حتى تخوم الجزيرة العربية الشمالية، وذكر السمهودى في وفاء الوفا ص ١١٦ أن عدد القبائل اليهودية في تلك المناطق يزيد على عشرين.

وقد جاء هؤلاء اليهود مهاجرين إلى الجزيرة العربية نتيجة الضغط البابلى والأشورى عليهم في فلسطين وتخريب هيكلهم وسبى أكثرهم على يد الملك بختنصر سنة ٥٨٧ ق. م فهاجر قسم منهم إلى الحجاز وتوطن في ربوعها الشمالية، وكذلك عقب احتلال الرومان لفلسطين سنة ٧٠ ق.م ونشأ عن اضطهاد الرومان لليهود أن هاجر عدد منهم إلى الحجاز واستقر في يثرب وخيبر وتيماء كما دخل بعض العرب عن طريق هؤلاء اليهود في اليهودية، إلا أن ذلك ظل أمراً محدوداً بالطبع، ومن ناحية أخرى فإن تلك التجمعات اليهودية في يثرب وخارجها ظلت متمسكة بعصبيتها

الجنسية والدينية رغم أنهم أخذوا الصبغة العربية في اللغة والزى والأسماء وكانوا دائماً يفتخرون بجنسيتهم الإسرائيلية ولم يندمجوا في العرب قط، بل كانوا يحتقرونهم ويسمونهم أميين كعادة اليهود في النظر إلى غيرهم من الأجناس، وكانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم يأكلونها كيف شاؤوا قالوا: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران: ٧٥] ولم يكن لهم تحمس في نشر دينهم وإنما جل بضاعتهم هى الفأل والسحر والنفث والرؤية وغيرها المباركفورى - الرحيق المختوم ص ٢١١ .

وسيطر اليهود على أعمال التجارة عموماً وتجارة الخمر والسلاح خصوصاً، وكانوا بالطبع يمارسون الربا على نطاق واسع وأثاروا دائماً العدوان والبغضاء بين القبائل العربية ليحققوا مكاسبهم المعروفة من الحروب التي تقع بين القبائل العربية فتروج تجارة السلاح وتروج أعمال الربا واستطاع اليهود بهذه الوسائل أن يحققوا ثراءً واسعاً ونفوذاً داخل تلك البلاد.

* * *

كان من الطبيعى أن يعرف اليهود أن النبى محمد ﷺ نبى صادق، وأنه جاء بالحق وذلك بحكم معرفتهم بالكتب والبشريات التي بشرت بالرسول ﷺ وبعلاماته الصادقة، ولكنهم رفضوا بالطبع الانصياع إلى الحق: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقد كان رفضهم الإيمان بمحمد يرجع إلى تكبرهم على الحق من ناحية، وعلى خوفهم من ضياع نفوذهم وثرائهم بسبب ما توقعوه من تغيير الخريطة الثقافية والاقتصادية والسياسية إذا انتصر الإسلام، وهكذا أضمر اليهود الحقد والمؤامرات على الإسلام وعلى محمد ﷺ واستعداداً لحرب شرسة ضده، ومع ذلك عاملهم الرسول ﷺ بالتسامح وفقاً لقيم ومبادئ الإسلام العليا في أول عهده بالمدينة، ولم يبدأ الحرب عليهم إلا بعد أن قاموا بمؤامرات مادية ومعنوية ضد الكيان الإسلامى الوليد في المدينة المنورة.

* * *

دستور المدينة:

بمجرد أن استقر الرسول ﷺ بالمدينة، وأقام فيها المجتمع الإسلامي الوليد، قام الرسول ﷺ بعقد ميثاق وعهد ووثيقة مكتوبة تنظم العلاقات بين مختلف القوى والطوائف والتجمعات والأفراد داخل هذا المجتمع، وكان من الطبيعي - بفضل سماحة الإسلام وبفضل حرص الإسلام على حماية حقوق الأقليات الدينية والعرقية، أن يسمح الرسول ﷺ لليهود في المدينة بالدخول في هذا العقد، الذي يمثل أرقى ما عرفت البشرية من عقود لحماية حقوق الأقليات الأمر الذي يعكس قيم الإسلام العليا - راجع نص وثيقة المدينة في سيرة ابن هشام، وفى الرحيق المختوم للمباركفورى، وكذلك في الدراسة الهامة التي كتبها الدكتور كمال السعيد حبيب في مجلة منبر الشرق، العدد (١) السنة الأولى مارس ١٩٩٢، صـ١١٥ تحت عنوان قراءة جديدة في وثيقة المدينة وهى قراءة شديدة التميز والأهمية، وكذا في الأعمال الكامة للمفكر عصمت سيف الدولة.

وعلينا أن ندرك أن مجتمع المدينة في ذلك الوقت كان يمثل كياناً سياسياً متميزاً، يمثل الرسول ﷺ فيه القائد الأعلى، ويمثل المسلمون من المهاجرين والأنصار الأغلبية مع وجود أقليات من المشركين ومن اليهود كأفراد أو كجماعات .

كانت الوثيقة تنص على وجود حقوق لليهود - مثل المسلمين، وكانت ترتب علاقات وواجبات، وتسمح لليهود بالمشاركة في المعارك التي يخوضها المسلمون - دون إلزامهم بذلك - فإذا شاركوا بأنفسهم أو أموالهم في الحروب مع المسلمين حصلوا على نصيبهم في الغنائم، وبديهى أن الوثيقة نصت على وجوب عدم تعاون أهل الوثيقة مع القوى المعادية - قريش مثلاً - وعدم خيانة أهل المدينة أو إفشاء أسرار المجتمع أو مساعدة الأعداء على انتهاك الأمن الداخلى لهذا المجتمع، واحترام حقوق الدماء والأموال وغيرها، وأن أى نقض لذلك يترتب عليه خرق الوثيقة بما يترتب على ذلك من آثار .

دخل اليهود في وثيقة المدينة إذن، وكان عليهم الالتزام بها بالطبع والذين دخلوا في تلك الوثيقة من اليهود هم يهود المدينة وما حولها مثل بنى قريظة وكانوا يعيشون في ضاحية يثرب من جهة الجنوب الشرقى، وبنى النضير وكانوا يعيشون في ضاحية يثرب جهة الغرب، وبنى قينقاع وكانوا يقيمون داخل المدينة ذاتها مع قبائل بنى عوف وبنى النجار كان بنو قينقاع حلفاء للخزرج، أما بنو النضير وبنو قريظة فكانوا حلفاء للأوس.

أما اليهود خارج المدينة مثل خيبر التي تقع على بعد ٨٠ ميلاً شمال المدينة وهى من أقوى الحصون والمواقع اليهودية في الجزيرة العربية في ذلك الوقت، وكذلك يهود فدك وتيماء وكل هؤلاء لم يكونوا أطراف في الحلف والميثاق المدون بوثيقة المدينة.

* * *

ولا شك أن تعامل الرسول ﷺ وسياساته تجاه اليهود تمثل العدل المطلق، وتعكس قيم الإسلام العليا، فقد حرص على التعايش بين المسلمين واليهود وغيرهم بدون ظلم لأحد، وهذه التجربة في التعايش تمثل نموذجاً فذاً للتعايش بين الأكثرية والأقلية في أى زمان ومكان، وكذلك في حرص الرسول ﷺ على كتابة نص يمثل الحقوق المتبادلة في وثيقة مكتوبة وهو أمر يمثل سابقة هامة على مستوى السوابق الدستورية.

ولكن اليهود نقضوا العهود، فكان من الطبيعى أن تتغير سياسة الرسول ﷺ تجاههم، فيسقط المعاهدة مع المتعاهدين منهم ويتصرف مع الباقين على مستوى كل حدث . كان اليهود قد تحركوا على أكثر من مستوى للكيد للدعوة الإسلامية الوليدة وكذا لشن حملة دعائية وإعلامية ضد الدين الإسلامى الحنيف، وضد الرسول ﷺ، والتربص بنساء المؤمنين، وإنفاق الأموال لدفع القبائل العربية لشن الحروب على دولة الرسول ﷺ في المدينة وتحريض قريش وغيرها وتمويل الحرب ضد المسلمين

وكذا تخطيط أكثر من مؤامرة لاغتيال الرسول ﷺ ويمكننا أن نقسم سياسة المواجهة ضد اليهود التي خاضها الرسول ﷺ إلى قسمين، قسم خاص بتنفيذ عدد من عمليات الاغتيال لمجرمي الحرب اليهود وزعماء المؤامرات، والقسم الثاني خاص بالحروب والغزوات ضد تجمعات اليهود .

أما القسم الأول الخاص باغتيال زعماء المؤامرات ومجرمي الحرب اليهود مثل اغتيال كعب بن الأشرف، وابن سنينة، وسلام بن أبي الحقيق المعروف بأبي رافع اليهودي، وهؤلاء كانوا من ممولي الحروب ضد دولة الرسول بالمدينة، وكذلك قاموا بجهد كبير في تحريض القبائل العربية على قتال المسلمين في المدينة، والتعريض بإعراض المسلمات في المدينة عن طريق الشعر، وكذلك الحرب الإعلامية والدعائية ضد المسلمين، والمحاولات الخطيرة لشق المجتمع الإسلامي في المدينة وأحداث حرب أهلية داخلها عن طريق بث الأفكار والإشاعات والمواقف مستخدمين في ذلك المنافقين، وهكذا فإن عمليات الاغتيال تلك كانت عقوبة على عمل مادي قام به هؤلاء، وكذلك عملية إجهاضية لمؤامرات تم نسجها وبث الرعب في نفوس باقي أطراف تلك المؤامرات .

أما القسم الثاني وهو الغزو ضد التجمعات اليهودية، فحدث أولاً مع بني قينقاع، فبرغم أن بني قينقاع كانت داخلة في وثيقة المدينة، وبرغم احترام المسلمين لهذه الوثيقة تماماً، إلا أن بني قينقاع بدأوا خاصة بعد انتصار المسلمين في بدر في التحرش بالمسلمين واستفزازهم والتهديد بدخول معركة معهم يهزمون فيها المسلمين؛ لأنهم على حد قولهم أقوى من قريش وأشجع ولن ينهزموا مثل قريش الذين لا يعرفون فن الحرب على حد قول بني قينقاع، وكذلك إيذاء المسلمين والتحرش بالنساء المسلمات، ووصل الأمر إلى حد محاولة إحداث حرب أهلية بين الأوس والخزرج، وهذا بالطبع أمر خطير جدًا - يستحق أقصى العقوبة، ذلك أن أحدهم وهو شاس بن قيس وكان شيخاً يهودياً شديد المكر أمر أحد الفتيان اليهود بالذهاب إلى مجالس الأوس والخزرج، حيث يجتمع شبابهم عادة، ثم تذكيرهم بأيام الحروب

والعداوات بينهم وتحريضهم على قتال بعضهم بعض، وقد نفذ الفتى اليهودي ذلك الأمر، وكادت تحدث معركة بين الأوس والخزرج، فقد تشاجر بعض الأوس مع بعض الخزرج، ثم تواعدوا على الحرب، وتنادوا إلى السلاح، ولولا أن الرسول ﷺ قد أدرك الموقف سريعاً وذهب إليهم وقال لهم: ((يا معشر المسلمين الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم)) فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضعهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدوهم وعدو الله شاس بن قيس ذلك اليهودي الملعون "المباركفورى - الرحيق المختوم - صـ٢٧٧، ٢٧٨ " .

وكان الرسول ﷺ، كلما فعل اليهود شيئاً من ذلك دعاهم ووعظهم وطلب منهم احترام الميثاق بين الطرفين دون جدوى .

وكان لا بد أن يفكر الرسول ﷺ في حماية الأمن الاجتماعى للدولة الذي تهدده مؤامرات اليهود وإشاعاتهم وأقوالهم وأراجيفهم .

وحدث أن اعتدى اليهود على إحدى النساء المؤمنات كانت تشترى بعض الأشياء من السوق، وجلست إلى أحد الصاغة اليهود، فأرادوا كشف وجهها فأبت المرأة ذلك، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها وهى غافلة، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا منها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودي فقتله، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع (سيرة بن هشام ٢ / ٤٧، ٤٨).

وكانت هذه الحادثة سبباً مباشراً في نقض العهد والوثيقة بين المسلمين واليهود، وقرر الرسول ﷺ أن يغزو بنى قينقاع بعد ذلك، فسار إليهم الرسول ﷺ بجيشه في شوال سنة ٢ هـ، فتحصنوا في حصونهم، وحاصرهم الرسول ﷺ خمسة عشر يوماً

وانتهى الأمر بتسليمهم، فعفا الرسول ﷺ عنهم وأمر بخروجهم من المدينة فخرجوا منها، ويجب أن نلاحظ هنا عدد من الملاحظات:

- أن يهود بنى قينقاع هم الذين نقضوا العهد بما فعلوه مع المرأة المسلمة في السوق، وأن هذا لم يكن أول شكل من أشكال النقض ولكنه أكثرها مباشرة ووضوحاً، وأنهم قبل ذلك قاموا بالكثير من الأمور الناقضة لذلك العهد مثل الإيقاع بين الأوس والخزرج، أو أذية المسلمين أو التهديد بحرب المسلمين، والتهديد بحرب المسلمين له قصة معروفة في السيرة ونزل بها القرآن الكريم، ذلك أنهم قالوا بعد انتصار المسلمين في بدر: (يا محمد لا يغرنك أنك قتلت نفراً من قريش، كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا).. وكان هذا بالطبع تهديداً واضحاً بالحرب ضد المسلمين، وكان بنو قينقاع مغترين بقوتهم فقد كان لديهم ٧٠٠ مقاتل وكانوا معروفين بالمهارة في فن القتال .

- أنه كان الرسول ﷺ يسير معهم بمقتضى العدل، بل بالرحمة أيضاً فقد احترم الميثاق معهم تماماً، وصبر على ممارساتهم المخالفة للميثاق عدة مرات، ولكن عندما وصل الأمر إلى تهديد الأمن الداخلى لمجتمع المدينة فإنه باعتباره قائداً عاماً لهذه الدولة كان عليه أن يجهض المؤامرات وأن يقضى على بؤرة الفتنة داخل المدينة فكان غزوهم ثم إجلائهم، ونلاحظ أن الرسول لم يأمر بقتلهم رغم أنهم تحصنوا بحصونهم عند الغزو، أى بدأوا في معركة ولم يصمدوا حتى النهاية فاستسلموا بعد حصار خمسة عشر يوماً، وكان من حق الرسول أن يأخذهم أسرى على الأقل، ولكنه عفا عنهم وسمح لهم بالجلاء عن المدينة، فحقق بذلك الأمن الاجتماعى داخل المدينة، وعاقب اليهود عقاباً طفيفاً على مؤامراتهم من ناحية أخرى .

- إن الرسول ﷺ كان يسمح ويريد تعايش المسلمين مع اليهود في المدينة بدون مشاكل وفقاً لقيم العدل الإسلامى بل وقيمة العدل المطلق بدليل أنه عندما نقضت بنو قينقاع الميثاق، عاقبهم وحدهم دون باقى جماعات اليهود في المدينة مثل بنى النضير وبنى قريظة واستمر محترما للميثاق معهم حتى نقضوه هم أنفسهم .

- إن التسوية لم تكن قاسية ولكنها حققت الهدف أيضاً، لأن المطلوب كان حماية الجبهة الداخلية لمجتمع المدينة وهذا تحقق بجلاء يهود بني قينقاع.

* * *

أما يهود بني النضير، فإنهم أيضاً هم الذين نقضوا الميثاق، ومثل باقي اليهود كانوا يضمرون الحقد على الإسلام، ويحرضون القبائل على حرب الرسول ويمولون ذلك، ويقومون بدورهم في الحرب الإعلامية ضد المسلمين، ولكن وتيرة التآمر عندهم زادت بصورة كبيرة بعد غزوة أحد التي انهزم فيها المسلمون أمام قريش فقد تجرأ يهود بني النضير بعد هزيمة المسلمين في أحد فكاشفوا بالعداوة والبغضاء وأخذوا يتصلون بالمشركين والمنافقين ثم دبروا في النهاية مؤامرة لقتل الرسول ﷺ عن طريق إلقاء رحى عليه عندما جلس عندهم للتفاوض حول مساهمتهم في دية بعض القتلى من الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري وفقاً لشروط الوثيقة .

فلما انكشفت المؤامرة، التي شاركوا فيها جميعاً، بالتخطيط أو التنفيذ أو الموافقة، ذلك أن محاولة القتل تلك لم تكن عملاً فرديًا، بل قراراً اتخذه زعماؤهم ووافقوا عليه جميعاً، ثم تم تكليف بعضهم بتنفيذه، إلا أن الله تعالى أخبر به الرسول، فقام قبل تنفيذ المؤامرة ونجا من المحاولة، ثم قرر الرسول ﷺ أن يطلب منهم الرحيل عن المدينة جزاء ما فعلوا، وأمهلهم عشرة أيام إلا أنهم رفضوا ذلك، وكان هذا إعلان للحرب بالطبع، فمن ناحية أنهم لم ينكروا مؤامراتهم لقتل الرسول ﷺ، ولكن اعترفوا بها وصمموا على رفض طلب خروجهم من المدينة، فكانت الحرب لا بد واقعة، فسار إليهم الرسول ﷺ بجيشه، وحاصرهم ستة أيام إلى أن استسلموا، فسمح لهم الرسول بالخروج من المدينة ولهم أن يحملوا معهم ما شاءوا من الأموال والأمتعة ما عدا السلاح، وكانت هذه عقوبة رحيمة أيضاً بالنظر إلى ما فعلوا وبالنظر إلى رفضهم قبول طلب الرسول إليهم بالرحيل في خلال عشرة أيام وتمسكهم بالحرب وتحصنهم داخل الحصون ثم استسلامهم بعد حصار دام ستة أيام .

وأيضاً لم يؤثر نقض كل من بنى قينقاع وبنى النضير للميثاق مع الرسول ﷺ على موقف الجماعة اليهودية الوحيدة الباقية في المدينة وهى بنى قريظة التي ظل المسلمون يحترمون الميثاق معها إلى أن نقضها بنى قريظة نقضاً فظيعاً أقل ما يقال فيه: إنه الخيانة العظمى ذلك أن اليهود عموماً في داخل المدينة وخارجها، ومن بنى قريظة نفسها قاموا بالعمل على حشد عدد كبير من القبائل العربية فيما يسمى بغزوة الأحزاب وقاموا بتمويل تلك الحشود، ليس هذا فحسب بل إن بنى قريظة اتفقت مع الأحزاب على دخول المدينة عن طريق بنى قريظة إلا أن تلك الخطة فشلت، وعندما أرسل الرسول إليهم لكي يعرف حقيقة نواياهم - والمدينة محاصرة بجيوش الأحزاب - قالوا لوفد المسلمين إليهم وكان يتكون من سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة، قالوا لهم: إنه لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد وأخذوا يسبون الرسول ﷺ ويتوعدون المسلمين وكذلك قامت بنى قريظة بأعمال الحرب المباشرة، بمحاولة دخول أحد الحصون التي كانت نساء المسلمين تجمعن بها بعد خروج الرجال إلى المواجهة مع الأحزاب ويسمى حصن فارع أى محاولة ضرب المسلمين في نسائهم من الخلف، ولولا شجاعة صفية بنت عبد المطلب التي قتلت أحد اليهود الذي حاول تسلق الحصن، فرجع الآخرون بعد أن ظنوا أن هناك حراسة قوية على الحصن لحدثت كارثة .

المهم أن الله أراد النصر للمسلمين وأرسل ريحا على الأحزاب فاضطروا للجلاء والرجوع إلى بلادهم، وكان من الطبيعى أن ينال يهود بنى قريظة العقوبة الملائمة على الجرائم التي ارتكبوها في ذلك الوقت العصيب في حق المسلمين رغم وجود الميثاق بينهما وهذه الجرائم تمثل أبشع أنواع الخيانة العظمى .

فهى أولاً التعاون مع العدو أثناء حالة الحرب، وثانياً ضرب مؤخرة المسلمين بل ومحاولة الاعتداء على النساء، الاعتراف جهراً بنقض العهد وسب الرسول ﷺ، الاتفاق مع الأحزاب على دخول المدينة من طريق بنى قريظة .

وهكذا كان من الطبيعى أن يعمد الرسول ﷺ إلى غزوهم بمجرد جلاء قوات

الأحزاب، وفى نفس اليوم الذي رجع فيه الرسول إلى المدينة أمر بعدم الراحة والزحف فوراً إلى بنى قريظة وقال: ((من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بنى قريظة)) وسار الجيش إلى بنى قريظة، وحاصرهم في حصونهم إلى أن استسلموا وكانت بنى قريظة من حلفاء الأوس، فتم الاتفاق على أن يحكم فيهم سيد الأوس سعد بن معاذ، وكان مريضاً في ذلك الوقت، فجيء به إلى المكان فقام بالحكم عليهم حكماً مناسباً يتلائم مع جرائمهم، رغم أنه كان حليفاً لهم من قبل ولا يعقل أن يظلمهم أو يقسوا عليهم - ولكن مقتضى العدل وحجم جرائمهم لم تكن تسمح إلا بهذا الحكم الذي حكمه عليهم سعد بن معاذ حيث حكم بقتل الرجال وسبى النساء وتقسيم الأموال .

* * *

وهكذا كانت تلك هى ممارسات الرسول ﷺ مع يهود يثرب فهو أولاً أراد التعايش معهم وإعطاء كل حقوق المواطنة لهم في إطار دولة المدينة، لدرجة السماح لهم بالقتال معه ضد أعدائها مع إعطائهم حقهم في الغنائم بناء على ذلك كمواطنين في دولة المدينة، أفراداً وجماعات إلا أنهم رفضوا التعايش، وخانوا الميثاق والعهد المكتوب فاستحقوا العقوبة على جرائمهم، ونلاحظ أن العقوبات دائماً كانت إما متكافئة مع جرائمهم أو أقل من تلك الجرائم مما يؤكد روح العدل والرحمة التي عاملهم بها الرسول ﷺ.

* * *

بقى بعد ذلك تجمعات يهودية خارج المدينة، وهذه لم تكن داخلة بالطبع في عهد وميثاق من أهل المدينة، وبالتالي يخضعون لنفس المعايير التي خضعت لها معادلات الصراع بين المسلمين وبين مختلف القبائل العربية في الجزيرة العربية، كان هناك خيبر وتيماء وفدك ووادى القرى، وتقع خيبر على بعد ٨٠ ميلاً شمال المدينة، وكانت خيبر أهم وأغنى تجمعات اليهود في الجزيرة العربية وأكثرها قوة، كانت خيبر تدير منذ بدايات الدعوة الإسلامية الكثير من المؤامرات على الإسلام بالتنسيق والتعاون مع باقى يهود الجزيرة العربية، كانت خيبر هى وكر الدس والتآمر فهى

التي قامت بالدور الأكبر في تحريض القبائل وتمويل زحفها على المدينة في غزو الأحزاب، وكانت تتصل بالمنافقين في المدينة، وكانت قد أصبحت ملجأ لكل زعماء اليهود وجماعاتهم المتآمرة بعد ضياع كيانهم في المدينة، وكانت خيبر قد أعدت خطة لاغتيال الرسول ﷺ، وكذلك كانت تستعد للزحف إلى المدينة مع عدد من الجيوش والقبائل للقضاء على المسلمين فيها بعد أن نجح المسلمون في القضاء على الكثير من القوى المعادية لهم، أى أنها كانت المحطة الأخيرة لتجميع كل فلول الشرك في الجزيرة العربية وعمل المؤامرة الكبرى على الإسلام، وكان من الطبيعى وفقاً للتكتيك النبوى من إجهاض تلك البؤرة، وما أن فرغ المسلمون من تهدئة جبهة قريش بصلح الحديبية توجه مع جيشه سنة ٧ هـ إلى خيبر لغزوها، وقد نجح المسلمون في فتح خيبر بعد قتال صعب ومرير، وقد تركهم الرسول بعد ذلك يعملون في الأرض مقابل جزءً من الثمار، وهذا من رحمة النبى - إلا أنه صادر أموالهم وسلاحهم حتى لا يصبحون من جديد قادرين على حشد الجيوش أو تمويل الحروب ضد دولة المسلمين.

وحدث نفس الشيء مع يهود وادى القرى، وصالح يهود فدك على نفس ما صالح عليه أهل خيبر، أما يهود تيماء فقد أرسلو من أنفسهم يطلبون الصلح فكتب لهم الرسول بذلك ما معناه: هذا كتاب محمد رسول الله، إن لهم الذمة وعليهم الجزية، ولا عداء ولا إجلاء الليل مد والنهار شد، طبقات ابن سعد.

* * *

وهكذا كان التكتيك النبوى تجاه اليهود هو العدل والرغبة في التعايش أولاً، فإذا ما نقضوا العهد كانت هناك عمليات الإجهاض والحرب الهجومية والوقائية وعدم تركهم حتى تكتمل مؤامراتهم، والمحافظة على أمن الدولة الإسلامية الوليدة، وامتلاك زمام المبادرة دائماً.

* * * * *

الحل الأمريكي لمشكلة اللاجئين
هل هو حل أمريكي أم إسرائيلي

ما يسمى بالحل أو التصور الأمريكي لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين هو بالطبع ليس حلاً أمريكيًا خالصاً، بل هو حل إسرائيلي أو تصور إسرائيلي لحل المشكلة يخدم في الأساس إسرائيل، ولا يحل مشكلة اللاجئين بل يحل مشكلة إسرائيل، هذا الحل الإسرائيلي تبنته الولايات المتحدة وأعادت صيغته بنفس المضمون باسم الحل الأمريكي، وهكذا فنحن أمام تصور إسرائيلي وليس تصوراً أمريكيًا.

الحل الأمريكي لمشكلة اللاجئين، أو الحل الإسرائيلي - سمه ما شئت - يقوم على عدد من البنود - ومن ثم المغالطات والظلم - كالتالي

- أنه يجب النظر إلى مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، كمشكلة سياسية يتم التفاوض حولها على أسس سياسية، سواء بالرجوع إلى الحق البديهي لهؤلاء اللاجئين في العودة إلى ديارهم التي تم تهجيرهم منها قسراً بأساليب وحشية غالباً، مثل المجازر والطرد ومنع عودة من يخرج لأي سبب حتى ولو كان العمل أو الذهاب إلى الحج أو غيرها، مع ملاحظة أن الجزء الرئيسي من هؤلاء اللاجئين قد تم تهجيرهم بالقوة تحت التهديد بالذبح، وهو نوع من الإبادة الجماعية والتطهير العرقي بالطبع يخالف أبسط القواعد الإنسانية، أو حتى الرجوع إلى القوانين الدولية المنظمة لمثل تلك الحالات، أو مجرد الرجوع إلى القرارات الدولية الصادرة بهذا الصدد، ونقصد به القرار ١٤٩ لسنة ١٩٤٨ الذي ينص صراحة على عودة هؤلاء اللاجئين إلى ديارهم، بل وتعويضهم عن الأضرار المادية التي لحقت بهم من جراء تهجيرهم قسراً، وإذا استندنا إلى ذلك القرار، أو أي قانون مكتوب لدى الأمم المتحدة، أو حتى القانون البديهي والطبيعي فإن حق هؤلاء، العودة فوراً إلى ديارهم

داخل فلسطين المحتلة، وهو ما يعني فوراً نهاية دولة إسرائيل، لأن الإسرائيليين، أو اليهود الذين قدموا إلى فلسطين أقاموا بيوتهم ومزارعهم على أنقاض بيوت وأراضي وممتلكات هؤلاء الفلسطينيين، وكذا تلتزم إسرائيل أو اليهود المقيمين فيها بدفع تعويضات تصل إلى عدة تريليونات من الدولارات عن استغلال هذه الأراضي والممتلكات طوال عشرات السنين، فضلاً عن ضرورة دفع مقابل للآلام والمذابح والترويع والتشرد الذي عاناه الفلسطينيون، بالإضافة طبعاً لمحاكمة قادة العدو الصهيوني، وكل من ساهم وساعد في هذه الجريمة.

- الرؤية الأمريكية لحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ترفض بالطبع هذا المنطق، وتدعي أنه أمر مستحيل وغير عملي، وعلينا بالتالي ما دام الأمر مستحيل أو صعب أن نكون واقعيين ونقبل حل المشكلة في الإطار الإنساني. وهذا بالطبع منطق الظالمين الأقوياء تجاه الضعفاء. وهو منطق مرفوض لكل من كان يتمتع بأي قدر من الإيمان أو الكرامة.

- أن هذه الرؤية الأمريكية التي عبر عنها جورج بوش في جولته بالشرق الأوسط في بداية عام ٢٠٠٨، ليست رؤية جديدة، بل هي رؤية أمريكية إسرائيلية تقليدية، طالما دعا إليها وحاول تنفيذها أكثر من رئيس أمريكي سابق، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن الرئيس الأمريكي بيل كلينتون " ١٩٩٢ مـ - ٢٠٠٠ مـ " كان قد قدم مشروعاً مماثلاً لمشروع بوش الذي عرضه في زيارته للمنطقة عام ٢٠٠٨.

- أن الإدارات الأمريكية المتعاقبة قد مارست من السياسات ما يجعل الحل الإنساني ممكناً، فهي أولاً طلبت من الدول العربية الغنية المساهمة في صندوق لحل المشكلة ودفع التعويضات للاجئين كما طلبت من عدد من الدول الأوروبية واليابان... إلخ نفس الشيء وفي نفس الوقت شجعت على ضرورة السماح لهؤلاء اللاجئين بالهجرة إلى دول مثل أستراليا وكندا

وأوروبا، وفي نفس الوقت قالت: إنها سوف تمول توطين الفلسطينيين في مناطق الهجرة الكبرى مثل الأردن وسوريا ولبنان، بل إن كثيراً من السياسات الأمريكية في لبنان مثلاً تعمل على توطين اللاجئين الفلسطينيين هناك، وهو ما يرفضه الفرقاء اللبنانيين - لأسباب كثيرة منها ما هو قومي ومنها ما هو وطني ومنها ما هو طائفي.

- إن إعادة الحديث في هذا الوقت بالتحديد، متصل بالجهد الأمريكي الإسرائيلي لمحاولة تصفية القضية الفلسطينية، فالوضع العربي ضعيف، والوضع الفلسطيني شديد الانقسام بين فتح وحماس أو السلطة وحماس وقيادة السلطة سوف ترضى بأي مكاسب محدودة، ومن ثم فإن حل المشكلة الأكثر خطورة وهي مشكلة اللاجئين الفلسطينيين أم المشاكل والقضايا، ممكن أن تتم تصفيته الآن، وأن تلك فرصة تاريخية يجب على إسرائيل استغلالها، وينسى هؤلاء أنه ليس من حق محمود عباس، ولا غيره التحدث باسم ٧ مليون لاجئ فلسطيني، أو التخلي عن حقوقهم، وفي هذا الإطار يجب أن يفرز اللاجئون الفلسطينيون لجنة للتعبير عنهم، لا تتدخل في الصراعات والسياسات الفلسطينية والعربية والدولية، بل تقتصر فقط على التمسك بحق العودة، وعدم تخويل أي قيادة فلسطينية في السلطة أو حتى حماس بالتخلي عن هذا الحق.

- تدرك إسرائيل ومعها الولايات المتحدة أن وجود اللاجئين، واستمرار تمسكهم بحق العودة يعني خطراً مستقبليًا على وجود إسرائيل؛ لأنه لو لم يستطع هذا الجيل تحقيق حلم العودة، فربما جاءت أجيال أكثر قدرة من هذا الجيل على تحقيق ذلك، ومن ثم فإن إسرائيل والولايات المتحدة مستعدان لدفع أموال طائلة للاجئين وتحقيق تسهيلات معيشية لهم في كل مكان بالعالم، لتصفية هذا الخطر.

- يجب النظر إلى الرؤية الأمريكية لحل مشكلة اللاجئين والتي

طرحها الرئيس بوش في زيارته للمنطقة " يناير ٢٠٠٨ " في إطار التصور الأمريكي لحل المشكلة الفلسطينية، فقد طرح بوش عدداً من النقاط مثل الاعتراف بشرعية المستوطنات الصهيونية الكبيرة، تصفية المستوطنات العشوائية - وهذه لن تضر سياسة الاستيطان الصهيوني في حالة إزالتها - إلغاء حق العودة، إقامة دولتين عنصريتين - دولة لليهود فقط، ودولة فلسطينية على جزء من أراضي غزة والضفة، ومعنى هذا أنه ليس فقط يتم إلغاء حق العودة للفلسطينيين في الشتات، بل إمكانية تهجير كل عرب ١٩٤٨ المقيمين داخل إسرائيل " عددهم ١.٢ مليون عربي مسلم ومسيحي ودرزي " ويشكلون خطراً ديمغرافيًّا على إسرائيل ". إمكانية تهجير هؤلاء أو جزء كبير منهم إلى داخل الدولة الفلسطينية التي سوف تقام.

وهكذا فإن التصور الأمريكي الإسرائيلي لحل مشكلة اللاجئين ليس فقط ظلماً لفلسطيني الشتات، بل تهديد بالظلم أيضاً لعرب ١٩٤٨.

لعنة الله على أمريكا.

* * * * *

السلام الإسرائيلي - السوري حقيقة أم مناورة

رشح في الآونة الأخيرة حديث عن إمكانية بعث ما يسمى بالسلام على المسار الإسرائيلي - السوري، وقد جاءت الأخبار عن طريق قيادات سورية، فقد صرحت وزيرة سورية أن إسرائيل بعثت برسالة إلى الحكومة السورية تفيد أن إسرائيل مستعدة للانسحاب الكامل من هضبة الجولان، مقابل السلام مع سوريا، وكذا فإن الرئيس السوري بشار الأسد صرح بنفسه لإحدى الصحف القطرية بأن رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان كان قد نقل رسالة بهذا المعنى إلى الرئيس السوري من الحكومة الإسرائيلية.

وفي الحقيقة فإن المسألة تستدعي قدراً من التأمل حول توقيت وملابسات هذا الموضوع لاستجلاء أبعاده وحقيقته. وبداية فإنه كان قد سبق هذا الإعلان وربما نقل الرسالة ذاتها قيام إسرائيل بمناورات حربية على الحدود السورية وتحدث البعض وقتها عن إمكانية توجيه ضربة إسرائيلية إلى سوريا، الأمر الذي يعني في حده الأدنى وجود ضغط إسرائيلي على سوريا تمهيداً لتلك الرسالة الملغومة، وكذا فإن الكونجرس الأمريكي ناقش توجيه نوع من العقاب إلى سوريا بدعوى أنها تحاول امتلاك أسلحة نووية، وكشف أعضاء الكونجرس الأمريكي عن وجود تعاون كوري وسوري في هذا الصدد، وأن المبنى الذي قامت به إسرائيل بالطيران في العالم الماضي في منطقة دير الزور، كان مخصصاً لهذا الغرض، وأن هناك صوراً ملتقطة تفيد وجود خبراء كوريين شماليين في ذلك المبنى، وبصرف النظر عن صحة هذه الادعاءات من عدمها فإن المعنى الواضح هنا أن الولايات المتحدة قررت فتح موضوع اتهام سوريا بمحاولة امتلاك سلاح نووي، وهو أمر يمكن أن يتطور إلى مشكلة بالنسبة إلى سوريا مع الولايات المتحدة، بالإضافة إلى المشاكل الأخرى حول محاكمة قتلة الحريري، واحتمال توجيه اتهام إلى شخصيات سورية قريبة من القيادة السورية في هذا الصدد، وكل هذه الأمور يمكن ترجمتها إلى نوع من الضغط الأمريكي على سوريا.

من ناحية إسرائيل، فإنها فسرت الرسالة بأنها صحيحة وأنها تقصد الانسحاب إلى الحدود الدولية وليس إلى خط الهدنة لعام ١٩٤٨، ومن ثم يمكنها الاحتفاظ ببعض الأراضي السورية في هضبة الجولان والتي كانت بيد سوريا وفقاً لاتفاقية خط الهدنة لعام ١٩٤٨. وأنها أي إسرائيل تريد من سوريا مقابل ذلك أن تتوقف تماماً عن دعم حركات المقاومة حماس والجهاد، وأن تتخلى عن حزب الله، وأن توقف تحالفها الاستراتيجي مع إيران وقد يرى البعض أن المبادرة أو العرض الصهيوني تم بدون التشاور مع الولايات المتحدة، على أساس أن الولايات المتحدة لا تريد تحريك المسار السوري الآن، وأنها راغبة فقط في تحريك المسار الفلسطيني حسب وعود جورج بوش نفسه، ومن ثم فإن إسرائيل تريد التخلص من الضغط الأمريكي على المسار الفلسطيني باتجاه تحريك المسار السوري، ولكن هذا الاستنتاج لا يرقى إلى الحقيقة لأنه من الصعب فهم أن تتصرف إسرائيل بدون موافقة ورغبة الولايات المتحدة، وألا يكون هناك تنسيق بين الطرفين في هذا الصدد.

توقيت العرض وطريقته يمكن أن يقود إلى الاستنتاج بأن هناك نوع من التلويح لسوريا بالتخلي عن التحالف مع إيران ومن ثم انفراد الولايات المتحدة بالأخيرة في مجال المشكلة النووية، وكذا التخلي عن دعم واحتضان حركات المقاومة ومن ثم تخفيف الضغط على إسرائيل من تلك الحركات، التي فشلت إسرائيل وأمريكا في تصفيتها رغم عشرات العمليات العسكرية والحصار والجوع والإظلام.

بالطبع لا يمكن أن نتصور أن تقبل سوريا بهذا العرض بسهولة لأن معنى تخليها عن التحالف مع إيران والتخلي عن دعم حركات المقاومة أن تفقد مصداقيتها حول أنها تمثل عنصر الممانعة في الواقع العربي، ومن ثم تفقد تعاطف كل المقتنعين بذلك من الميديا والقوى الثورية العربية، ثم تفاجئ في النهاية بأن إسرائيل غير صادقة في وعودها، ومن ثم تخسر الأمرين معاً، وحتى لو انسحبت إسرائيل مثلاً من الجولان، فمن يضمن أنها بعد النجاح في إخراج سوريا من المعادلة، ومن ثم حل المشكلات مع حركات المقاومة الفلسطينية بتصفيتها أو إضعافها، وكذلك حل المشكلة اللبنانية

لصالح أمريكا والقوى الموالية لها في لبنان على حساب حزب الله والقوى الموالية لإيران هناك، أنها بعد ذلك تعود وتحتل الجولان أو أكثر أو أقل منه في سوريا، في وقت تكون سوريا لا تمتلك أي أوراق ردع ضد إسرائيل وأمريكا مثل حزب الله وحماس والجهاد الفلسطيني.

المسألة بالطبع تبدو بعيدة، ولكن إسرائيل حين طرحت تلك الفكرة، فإنها في الواقع أرادت تخفيف الحماس السوري لإيران على الأقل، وتقليل الدعم السوري لحركات المقاومة، ومن ثم تحسين الظروف الأمريكية والإسرائيلية في المنطقة شيئاً.

في كل الأحوال فإن على حركات المقاومة أن تدرك دائماً أن عليها ألا تلقي أوراقها كلها في السلة السورية أو الإيرانية، تحسباً لإمكانية حدوث صفقة مع الأمريكان والإسرائيليين تكون على حسابهم أساساً وهذا أمر وارد جدًا في السياسة كما هو معلوم.

وأذكر بهذه المناسبة، أن المرحوم الشهيد - نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً - الدكتور فتحي الشقاقي مؤسس حركة الجهاد الإسلامي الفلسطيني وأمينها العام الأول الذي اغتالته إسرائيل في مالطا عام ١٩٩٦، أذكر أن الرجل كان موجود في أحد المؤتمرات بطرابلس بليبيا عام ١٩٩٣ وكنت حاضراً ذلك المؤتمر والتقيت به، وأخبرني أن هناك عرض لديه بإقامة قاعدة عسكرية لحركته داخل سوريا، وأن هناك من سيمول هذا العرض، وأذكر أنني قلت له وقتها، لا بد دائماً ألا تمتلك أشياء كثيرة داخل أي بلد، لأن وجود قواعد ومباني ومؤسسات في أي بلد يرهن قرار حركتك لهذا البلد، ويمكن أن يكون موقف هذا البلد الآن جيد ومقبول، ولكن من يضمن استمرار ذلك، فإذا حدث ما تخشاه ودخل هذا البلد في تسوية ما، فإما أن تضحي بكل ما تمتلكه وترفض أو تشارك في تلك التسوية، وإما أن تقبل وتفقد كل مصداقيتك التاريخية كحركة وكتوجه وكأمل للمستقبل، واقتنع المرحوم الدكتور فتحي الشقاقي بذلك يومها، وقرر دائماً أن يكون خفيف الأحمال في أي مكان بحيث يحافظ على مصداقيته الثورية دائماً، لأنه لن يكون لديه ما يخاف عليه.

* * * * *

أمريكا وحماس.. تصفية أم احتواء؟

لا شك أن القرار الأمريكي كان ولا يزال يهدف إلى تصفية حماس، وتعتبر الإدارة الأمريكية الحالية "إدارة جورج بوش " أن حماس منظمة إرهابية ينبغي تصفيتها في إطار ما يسمى بالقضاء على الإرهاب، وأن أي تهاون في هذا الصدد سوف يصيب الجهود الأمريكية في القضاء على الإرهاب في العالم بخلل شديد، ولذا فإن كل نصائح الإدارة الأمريكية لإسرائيل كانت في هذا الاتجاه، وكذا كل سياسات الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة تتجه صوب هذا الاتجاه، بالطبع هذه السياسة ليست بالنسبة لحماس وحدها، ولكنها تطال كل القوى المجاهدة والمقاومة في المنطقة بلا استثناء، ولكن بخصوص حماس فإن الولايات المتحدة تعتبرها المنظمة الإرهابية الأكبر والأخطر في فلسطين المحتلة، وهذا سرّ التركيز الأمريكي والإسرائيلي على القضاء عليها.

اعتمدت خطة الولايات المتحدة الأمريكية - ومن ثم إسرائيل - في القضاء على حماس على الاجتياح المستمر لغزة، وقتل قيادات حماس وعناصرها، وتدمير كل ما يمكن تدميره لإضعاف حماس ومن جانب آخر حصار أهالي غزة، وإغراقهم في الجوع والظلام والمعاناة، حتى يثوروا على حماس ويحملوها مسئولية ذلك، ولكن الذي حدث أن أهالي غزة لم يحملوا حماس المسئولية بل حمّلوها لأمريكا وإسرائيل، وهذا صحيح جدًا.

في الإطار نفسه فإن الولايات المتحدة ضغطت بشدة على الدول العربية المعنية لمنعها من كسر الحصار على غزة، أو تقديمها أي مساعدات لأهالي غزة أو حكومة إسماعيل هنية، وتواكب ذلك مع حملة إعلامية ضخمة ضد حماس، خاصة في الصحافة المصرية التي تتهم حماس بأنها تنتهك أو تحاول انتهاك السيادة المصرية، وأنها خطر على الأمن القومي المصري وأحيانًا الأمن القومي العربي، ووصل الأمر إلى حدّ تحريض المصريين

على حماس بدعوى أن حماس قالت: إن قتل الجنود المصريين حلال، وهي أمور شديدة الخطورة بالطبع لا ينبغي التعامل معها بهذه الخفة، فلا يعقل ولا يفهم أن تقول حماس هذا أو شيئًا منه!!. ولا يصدر مثل هذا القول إلا من شخص غير مسئول وغير عاقل، فلا يمكن تحميل حماس مسئوليته على الإطلاق.

تحريض أمريكي:

التعامل الأمريكي مع حماس يحمل في طياته بالطبع كل الصلف والغرور اللذين يتميز بهما إدارة جورج بوش، وهو يعبر عن ازدواج مذهل للمعايير، فحكومة حماس حكومة منتخبة ديمقراطيًا، ومع ذلك فإن الإدارة الأمريكية لم تعترف بها، ورفضت احترام إرادة الناخب الفلسطيني، وحرضت رئيس السلطة محمود عباس أبو مازن على الصدام مع حماس، واعتبرت ذلك شرطًا من شروط الاستمرار في التفاوض مع إسرائيل حول قضايا السلام التي لم تتحقق أبدًا، وانتهى الأمر بأن سيطرت حماس على غزة، ولم يكن أمام حماس إلا هذا وإلا الاستسلام للذبح على يد رجال دحلان. وكان هذا الانقسام بين غزة والضفة مريحًا لإسرائيل - ومن ثم لأمريكا - حتى لا تكون هناك سلطة فلسطينية واحدة يضطر الجميع للتعامل معها، وبدأ الرهان الأمريكي الإسرائيلي على القضاء على حماس عن طريق عزلها تمامًا في غزة، وحصار غزة لدفع أهلها للثورة على حماس وفي نفس الوقت إغراق الضفة بالمساعدات والمعونات، بل وتحدث البعض عن الرفاهية الموعودة لأهالي الضفة في مقابل الفقر والحرمان لأهالي غزة، ولكن هذا لم يتحقق بالطبع؛ لأنه من ناحية فإن أحشاء القيادات في الضفة كانت كفيلاً بابتلاع أي معونات وعدم وصولها إلى أهالي الضفة، وكذا عدم كفاءة تلك القيادات أدى إلى استمرار الخلل الأمني، وهو الأمر الذي يمنع بالطبع أي عجلة تنمية وإنتاج من الدوران بحُرِيّة، وكذلك فإن إسرائيل ذاتها

ولأسباب تتصل بطبيعة تكوينها وأولوياتها الاستراتيجية والأمنية، لم تقدم أي تنازل حقيقي للسلطة في الضفة يمكن الادعاء بعده بصحة طرح هؤلاء، بل حدث عكس هذا؛ فالحواجز كما هي، ومعاناة الناس بالتالي من الحواجز كما هي، وكذلك زادت وتيرة الاستيطان الصهيوني في الضفة، واستمرت أيضًا عمليات القتل والاجتياح الصهيوني في الضفة، وهكذا فإن الوضع في الضفة لم يكن مشجعًا، في حين أن الأوضاع في غزة رغم الحصار وعمليات الجيش الصهيوني التي لا تنقطع كانت أفضل من المتوقع؛ لأن حماس استطاعت أن تضبط الأمن وهذا عامل هام من عوامل الاستقرار والراحة ودفع عجلة الإنتاج، وكذا فإن نظافة وطهارة قيادات حماس ومشاركتها للناس في المعاناة وفّر الكثير لصالح غزة، وعلى حين يفطر الوزراء في غزة بالفول والطعمية، ويقدم محمود الزهار - مثلاً - ولديه شهداء مقدمًا النموذج، فإن القاعدة في قيادات السلطة هو الاستقرار في القصور الفخمة، وركوب العربات الفارهة، وتهريب الأموال وعمل مشروعات للأبناء على حساب الميزانية الحكومية أو باستقلال النفوذ والحصول على التوكيلات التجارية، ولا شك أن هذا كله ساهم في صمود أهالي غزة، وأعطى رسالة واضحة بفشل المخطط الأمريكي الصهيوني في القضاء على حماس.

أضف إلى ذلك أن حماس استطاعت - في الفترة الأخيرة - التصدي بكفاءة لاجتياحات الجيش الصهيوني، وإنزال الخسائر بقواته وتدمير دباباته، بالتعاون مع قوى المقاومة الأخرى. وهكذا فإن الحسم العسكري ضد حماس وضد غزة لم يعد ممكنًا، بالإضافة إلى أن الحصار الإعلامي والسياسي ارتد إلى أعناق الأمريكيين، ومن ثم فإن القضاء على حماس بالقوة أصبح أمرًا شديد الصعوبة.

احتواء حماس:

وبما أن إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش تستعد للرحيل في نهاية

العام، فإن من الضروري البحث عن طريقة لاحتواء حماس بدلاً من القضاء عليها، وحتى لو كانت هذه الإدارة الحالية غير قادرة أو راغبة في ذلك، فليتم التمهيد لذلك لحساب الإدارة القادمة، وهكذا يمكن فهم زيارة كارتر للمنطقة واجتماعه بوفد من حماس في مصر، وكذلك اجتماعه مع خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحماس في دمشق وقد يقول البعض: إن الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر ليس شخصًا رسميًا وأنه لا يمثل أحدًا، ولا يمكن إلزام الحكومة الأمريكية بشيء من جهوده، وهذا صحيح كله، ولكن رجلاً مثل كارتر لا يمكن أن يأتي إلى هنا في إطار مجرد البحث عن تسلية أو مجدٍ شخصي لرجل في الثمانين من عمره، خاصة أن الرجل قام قبل ذلك بجهود شخصية استفادت منها الإدارة الأمريكية الحالية ذاتها والإدارات الأمريكية السابقة عليها ديمقراطية وجمهورية. وفي بلد مثل أمريكا فإنه إذا كان من الصعب على الإدارة الرسمية الاتصال بجهة ما فإن المؤسسات الخاصة والشخصيات غير الرسمية تقوم بهذا الأمر، ومن ثم يمكن فهم مبادرة كارتر للاجتماع بخالد مشعل وغيره من قيادات حماس، والتصريح بأنه لا سلام بدون حماس هو جزء من التمهيد للإدارة القادمة باعتماد سياسة احتواء حماس بعد أن فشلت الإدارة الحالية في سياسة القضاء عليها.

* * * * *

تطور نوعي في أداء المقاومة الفلسطينية

لم يحافظ على حيوية هذه الأمة، ويمنعها من الانهيار النهائي تحت الضغط الاستعماري والصليبي والصهيوني، إلا حركات المقاومة، وفي الحقيقة فإن حركات المقاومة سواء ما كان منها في بداية الغزوة الاستعمارية أمثال حركات عبد القادر الجزائري وعبد الكريم الخطابي والثعالبي في الغرب العربي، أو عمر المختار في ليبيا أو عمر مكرم ومحمد كريم والأفغاني والنديم... إلخ في مصر، وعز الدين القسام في فلسطين وغيرهم في سوريا والعراق وفي طول العالم الإسلامي والعربي وعرضه، أو ما جاء بعد ذلك وانتهاء بالمقاومة في أفغانستان والعراق ولبنان وفلسطين والصومال حالياً، هي التي منعت منحنى السقوط العربي والإسلامي من الوصول إلى النقطة الحرجة التي لا يستطيع أن يعاود الصعود من جديد بعد هذه النقطة، أو بتعبير آخر منع القوى الاستعمارية من القضاء النهائي على تلك الأمة، وحافظ ويحافظ على الجذوة مشتعلة تحت الرماد انتظاراً ليوم الإقلاع من جديد، بل لعلنا لا نبالغ حين نقول: إن الجيل الحالي من المقاومة وخاصة المقاومة العراقية أبدعت نماذج وطرق وأحدثت تراكمات كافية يمكنها أن تحقق انقلاباً في المنحنى العربي والإسلامي باتجاه الصعود من جديد، بل ولها الفضل في إنقاذ العالم من السيطرة الإمبريالية الأمريكية الصهيونية التي كان من الممكن أن تذيق العالم المزيد من الويلات، وهكذا فإن العالم بأسره مدين لهذه المقاومة بالكثير لمنعها انفراد أمريكا بالهيمنة على العالم، ووضع نموذج إمكانية هزيمة أمريكا وإسرائيل.

وبديهي أن المقاومة الفلسطينية تقف في القلب في هذا الإطار، ولها دور كبير ومؤثر في هذا الصدد، فهي أولاً أحد أهم رموز لحركات المقاومة التي استخدمت سلاح الاستشهاد، وحولته إلى قوة ردع هائلة أمام الجبروت الصهيوني الذي لا يقل قوة عن الجبروت الأمريكي، باعتبار أن الجيش والمؤسسة الصهيونية تمتلك كل السلاح الأمريكي - لأنه متاح لها في أي وقت - وكذلك تمتلك المعلومات الاستخباراتية الأمريكية، المناهضة لها أيضاً فضلاً عن أن العدو الصهيوني أكثر

دراية بالمنطقة من أمريكا وأكثر قدرة على فهمها، كما أن المقاتل الصهيوني له قضية يدافع عنها حتى ولو كانت قضية ظالمة جدًا، وهو أيضاً يدافع عما يعتقد أنها أرضه وليس لها بديل آخر متاح بسهولة لو فقدها كما تروج له الصهيونية وتزرع في عقله، ومن ثم فإن الحساب الجدلي يقول: إن الجيش الإسرائيلي بهذه الطريقة أقوى وأشرس من الجيش الأمريكي الذي لا يمتلك الإرادة والقضية، وهكذا فإن الصمود أمام الجيش الصهيوني وإنزال الخسائر به وإمكانية هزيمته في معارك جزئية تعطي أملاً كبيراً لإمكانية هزيمة أو على الأقل تعطيل المشروع الأمريكي الصهيوني الإمبريالي الذي يحاول الهيمنة على العالم، ومن ثم تندفع الشعوب الأخرى نحو عدم الاستسلام وإمكانية مواجهة الغطرسة الأمريكية، ولا شك أن المقاومة الفلسطينية استطاعت أن تنفذ عشرات العمليات الاستشهادية في قلب الكيان الصهيوني على مدى زمني كبير في الشمال والجنوب وتل أبيب والقدس، أي في كل زمان ومكان تقريباً، وهذا يعني أن بإمكان الإنسان أن ينتصر على التكنولوجيا وأنه رغم حالة الاستنفار الصهيوني القصوى، ورغم الأقمار الصناعية، ورغم الحواجز، ورغم الجيش الصهيوني، ورغم الدعم الأمريكي، ورغم عشرات العمليات الشاملة التي قام بها الجيش الصهيوني ضد الضفة وغزة، وآلاف العمليات اليومية المستمرة بالطائرات الصهيونية وفرق الموت الصهيونية، ورغم جحافل العملاء، استطاع الإنسان المقاوم وخاصة في حماس والجهاد وشهداء الأقصى أن يخترق كل هذا وينفذ عشرات العمليات الاستشهادية النوعية، بل وينفذ عشرات العمليات ضد المواقع الصهيونية ويقتل ويأسر جنوداً صهاينة، وهذا يعني ببساطة شديدة أن بإمكان قوة صغيرة تمتلك الإرادة والإيمان أن تهزم أعتى القوى، وأن الإنسان أقوى من التكنولوجيا وهذه معان جدية على البشرية في هذا الصدد، وهو نوع من الريادة محسوب لتلك المقاومة التي صمدت أمام استهداف أمريكي صهيوني قاس وعنيف وبلا ضمير وصل ليس على حد القتل والأسر والتدمير بل والحصار المستمر للأهالي خاصة في غزة لدفعهم لعدم احتضان المقاومة ولفظها، بل وفي ظروف

تواطؤ عربي وآخر دولي ضد تلك المقاومة، ومن ناحية ثانية استطاعت تلك المقاومة أن تطور أنواعاً من الصواريخ البدائية في معامل صغيرة مثل صواريخ القسام وأن تحقق بها نوعاً من الردع مع الجيش الصهيوني.

على أن هناك تطوراً نوعيًا وخطيراً شهدته الفترة القريبة الماضية، ففي غضون النصف الأول من شهر أبريل ٢٠٠٨ استطاعت قوات مجاهدة ومقاومة صغيرة وبسيطة أن تتصدى لأكثر من اجتياح إسرائيلي لغزة، وأن تحدث خسائراً نوعية في صفوف الجيش الصهيوني، وقد اعترف الجيش الصهيوني مرتين على الأقل بمقتل ثلاثة جنود، وأخرى خمسة جنود، وتدمير دبابات له، وهذا يعني أن الاجتياح الصهيوني لغزة لم يعد بلا مقابل عسكري كبير ومؤثر، بل إن قدرة المقاومة على تدمير الدبابات الصهيونية بعبوات ناسفة، وهو ما حدث في مرتين على الأقل في النصف الأول من أبريل، يعني إخراج عنصر المدرعات الصهيونية من معادلة دخولها للأراضي الفلسطينية، بدون خسائر، ومن ثم فلن تتجول كما تريد وكأنها قلاع مصونة لا يمكن المساس بها كما كان يحدث من قبل، وهذا في الحقيقة تطور نوعي جديد يضاف إلى التطورات النوعية التي أحدثتها حركة المقاومة الفلسطينية في مسيرتها النضالية، ولو امتلكت حركة المقاومة الفلسطينية رادعاً فعالاً ضد الدبابات الصهيونية لأمكن لها أن تنزل هزيمة حقيقية وهائلة بالكيان الصهيوني بأكثر وأسرع مما يتصور الكثيرون.

* * * * *

تقرير فينوجراد
يكشف الوجه العدواني والعنصري للمجتمع الصهيوني

كثيرة هي النتائج والعبر والحقائق التي كشف عنها تقرير القاضي الإسرائيلي فينوجراد، ولجنته التي قامت بالتحقيق في أحداث حرب صيف ٢٠٠٦ التي شنها الجيش الصهيوني على لبنان بهدف تصفية وإنهاء وجود حزب الله الشيعي والمقاومة اللبنانية. في إطار تأمين إسرائيل أولاً، وفي إطار الجهد الأمريكي للقضاء على الإرهاب حسب التعريف والتصور الأمريكي، وبداية فإن تشكيل لجنة قضائية للتحقيق في ملابسات حرب قادها السياسيون والعسكريون بمعنى رئيس الوزراء ووزير الدفاع، والوزراء من مختلف التخصصات وكبار الجنرالات، وهذا يعني خضوع كبار القيادات السياسية والعسكرية للتحقيق والإدلاء بالشهادات وعدم كتمانها ومن ثم الخضوع للقضاة بل وإمكانية توجيه اللوم أو التهم لهم ومحاكمتهم وهذا درس ينبغي أن نتعلم نحن العرب على مستوى الحكومات ومستوى الجماعات ومستوى الأسر بل والأفراد، أي ألا نظل ندافع عن أخطائنا ولا نعترف بها ونكابر وننكرها، ومن ثم نكرسها ونحصنها ونجعلها دائمة لا يمكن علاجها ولا الفكاك من آثارها، وتعلم الدروس من العدو ذاته ليس عيباً وصحيح أن العدو الصهيوني هو أسوأ أنواع البشر، وهو عدو مجرم وشنيع، ولكن نحن كمسلمين لا نكابر في التعلم من أعدى الأعداء فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها.

تقرير فينوجراد - على لسان القاضي فينوجراد ذاته كان بمثابة الانكسار والصدمة، فهو اعتراف بهزيمة سياسية عسكرية صحيح أن فينوجراد ألقى باللوم الأكبر على المؤسسة العسكرية فهي التي فشلت أكثر، لأنها أهملت التدريب، ودخلت المعركة بدون خطة محددة وواضحة وقادرة على تحقيق الأهداف، وأن القيادات كانت مترددة ولم تتخذ القرارات العسكرية الصحيحة في الوقت الصحيح، وأن هذا الجيش لم يستطع أن يحقق أهدافه أو أيّا منها لمدة ٣٣ يوماً كاملة، وأنه فشل في الحرب البرية، وأن الحرب أثبتت أن الطيران الإسرائيلي لم يعد قادراً على حسم

المعارك وحده، وهذه نتيجة خطيرة ثبت صحتها من قبل في تجارب العراق وأفغانستان، وأن مجموعة صغيرة من المسلمين صمدت أمام أقوى جيش في الشرق الأوسط، وأن هذا الجيش فشل في تأمين الجبهة الداخلية، أو حماية مستعمرات الشمال أو حتى يافا وتل أبيب من القذائف الصاروخية التي استمرت إلى آخر يوم من الحرب، وهذا معناه ضياع نظرية الأمن مما يستوجب علاجاً جذريًا للاستراتيجية والتكتيك الصهيونيين حسب تقرير لجنة فينوجراد هذا الجزء من التقرير الذي يلقي اللوم الأكبر على الجيش، كمؤسسة وكقيادة وضباط، بل وجنود لم يقاتلوا بالبسالة الكافية لتحقيق الأهداف يعني مباشرة اهتزاز ثقة الجمهور الصهيوني في الجيش الصهيوني، وهو أمر يؤثر بالضرورة على مستقبل إسرائيل واستقرارها؛ لأن الجيش الصهيوني ظل دائماً هو البقرة المقترسة في إسرائيل وهو الضامن الحقيقي بل والوحيد لوجود إسرائيل، فإذا به اليوم يفشل في تصفية قوة صغيرة أولاً، وفي تأمين الداخل الصهيوني ثانياً وهو أمر خطير جدًا.

التقرير بالطبع تطرق باللوم إلى السياسيين، وقال: إن الفشل كان سياسيًا وعسكريًا وليس عسكريًا فقط، وإن كان أشاد بأداء وزارة الخارجية الصهيونية، إلا أن اللوم على السياسيين ركز في جانب عدم وجود تنسيق بين القيادتين السياسية والعسكرية، وهذا يعني أن إسرائيل فقدت القادة التاريخيين المؤثرين سياسيًا وعسكريًا، ولم يعد فيها هذا الجيل من القادة الكبار المتمرسين، بل فيها قادة سياسيون فاشلون وقادة عسكريون أكثر فشلاً، وصحيح أن التقرير لم يتطرق إلى توجيه التهم أو اللوم إلى أشخاص بعينهم سواء كان رئيس الوزراء إيهود أولمرت أو وزير الدفاع عمير بيرتس، إلا أن وصف القيادتين السياسية والعسكرية بالفشل أمر أخطر؛ لأنه لو كان العيب في شخص ما لتم استبداله بآخر، أم أن يكون اللوم عامًا، فهذا يعني أن الأمر يصعب علاجه على المدى القصير على الأقل.

عدم توجيه اللوم تحديداً إلى إيهود أولمرت سيعطيه الفرصة للصمود أمام المطالبين باستقالته، خاصة أن حزب شاس اليميني قال: إنه سيستمر في دعم أولمرت

والتحالف معه في الحكومة الحالية مقابل وعد من أولمرت بعدم التطرق إلى موضوع القدس في أي مفاوضات مع الفلسطينيين، وبالتالي فإن حديث إيهود باراك رئيس حزب العمل عن إمكانية الانسحاب من الحكومة الحالية والدعوة إلى انتخابات مبكرة سيكون أقل حدة وربما يتلاشى مع الوقت خوفاً من صعود نتنياهو من ناحية، ولأن التقرير لم يوجه اللوم المباشر لأولمرت من ناحية ثانية.

إن التقرير بالطبع كغيره من التقارير يحمل ثلاث قراءات قراءة رسمية قالها فينوجراد في التقرير، وقراءة غير رسمية قالها أيضاً فينوجراد في الرد على أسئلة الصحفيين، وهناك شق سري في التقرير لن يطلع عليه أحد خارج إطار المسئولين الصهاينة وهو الذي يتصل بالقضايا الأمنية، وبديهي أن تلك النقطة سوف تكون محل استنتاجات وحقائق وأكاذيب وشائعات وغيرها خاصة فيما يتصل باتصال بعض اللبنانيين بالإسرائيليين في تلك الحرب.

* * *

ما يعنينا أكثر في هذا التقرير، أن التقرير قال بوضوح: إنه رغم أن إدارة الجيش للحرب كانت رديئة، وأنه لو أدارها بصورة أفضل لكانت النتائج أفضل، فإن التقرير قال: إن خوض الحرب كان ضروريًا، بل إنه كان من الضروري خوض تلك الحرب جزئيًا أو كليًا قبل ذلك، وأن مسئولية الحكومات السابقة في إسرائيل في عدم ضرب المقاومة اللبنانية أولاً بأول لمنعها من الاستقواء باضطراد كان سبباً في الفشل في تلك الحرب أي حرب صيف ٢٠٠٦، ومن ثم فإن التقرير يدعو إلى العدوان ولكن بصورة مستمرة، وهذا يكشف الجانب العدواني في المجتمع الصهيوني، وهي سمة تقليدية يجب ألا نغفل عنها قط، ليس بخصوص لبنان فقط بل بخصوص الجميع، فلسطينيين في الضفة وغزة، وعرب من دول المواجهة وغير دول المواجهة - والتقرير يقول في هذا الصدد بالنص " أن على إسرائيل أن تمتلك دائماً قيادات سياسية وعسكرية وجيش قادرين على ردع كائناً من كان في المنطقة!! ".

من جانب آخر فإن التقرير لم يتطرق إلى توجيه اللوم مثلاً إلى الجيش الصهيوني لضربه البنية التحتية والعمارات والمدنيين في لبنان أو إلقاء أكثر من مليون قنبلة عنقودية على بلد عدد سكانه ٤ مليون مواطن فقط، أي قنبلة لكل أربعة لبنانيين وكثير منها لم ينفجر بعد، أي تمثل خطراً على المدنيين اللبنانيين حالي ومستقبلي!!. وهذا يثبت عنصرية وعدوانية المجتمع الصهيوني الذي تمثل لجنة قضائية مثل لجنة فينوجراد دور الضمير فيه، أضف إلى ذلك أن التقرير لم يتطرق إطلاقاً إلى العرب " عرب ١٩٤٨ " وهم مواطنون إسرائيليون بحكم القانون ولا طلب تأمينهم مستقبلاً أو تعويضهم عما لحق بهم من خسائر بسبب صواريخ المقاومة اللبنانية على الجليل وحيفا وغيرها بل ركز على اليهودي باعتباره هو الإسرائيلي فقط!!.

* * * * *

تأملات تهويد القدس
والإفساد الإسرائيلي الأول

تحتل القدس مكانة هامة في الوجدان العربي والإسلامي، فالمسجد الأقصى هو أولى القبلتين وثالث الحرمين، والرحال لا تشد إلا إلى ثلاث.. المسجد الحرام، ومسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة، والمسجد الأقصى ببيت المقدس، والقدس أرض مباركة هي وما حولها أي كل فلسطين.

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ ﴾ [الإسراء: ١].

وهكذا فإن مصير القدس وما حولها أي كل فلسطين المحتلة أمر يخص كل العرب والمسلمين في كل مكان وزمان، وبالتالي فليس من حق حكومة ما أو سلطة ما أو حتى جيل كامل ما أن يبت في مصير القدس أو يساوم على شيء منها، فيفرط في حقوق لا يملكها وحده، ولا يملكها حتى جيله بكامله بل تخص كل الأجيال القادمة..

كانت القدس وفلسطين كلها محوراً للصراع الممتد في الزمان والمكان في التاريخ والجغرافيا بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وحول القدس دارت معارك وستدور للسيطرة عليها باعتبارها رمزاً لهذا الصراع وتجسيداً له..

ومن الناحية التاريخية فإن القدس التي يقدر المؤرخون عمرها بحوالي خمسة آلاف عام، والتي أسسها اليبوسيون الذين نزحوا من الجزيرة العربية في الألف الثالث قبل الميلاد، ثم تتابع على حكمها العرب والعبرانيين والكنعانيين والرومانيين ثم العرب المسلمين، وفي الحقيقة فإن الزعم اليهودي بحقوقه في القدس أمر لا تسنده وقائع التاريخ ولا النص الديني أيضاً، ذلك أن الحكم اليهودي للمدينة والذي استمر فقط حوالي ٧٠ عاماً في زمن نبي الله داود وابنه نبي الله سليمان عليهما السلام، وبالطبع فإن اليهود الآن ليسوا هم ورثة داود وسلميان، لأن المسلمين أولى بداود

وسليمان من اليهود على أساس أن الإسلام هو الدين الخاتم، وأنه لو بعث داود وسليمان عليهما السلام من قبرهما، فلن يملكا إلا الدخول في الإسلام، ولأن اليهود قد فقدوا الحق في وراثة أنبيائهم.. لأنهم انحرفوا عن الطريق وخانوا العهد وقتلوا الأنبياء فاستحقوا لعنة الله تعالى وغضبه عليهم، كما أن يهود اليوم ليسوا أبناء يهود بني إسرائيل بل هم من يهود الخزر كما أثبت ذلك أكثر من باحث تاريخي موثق ومرموق، ثم إذا حتى أسقطنا كل تلك الأسانيد - وهي هامة جداً - فما قيمة ٧٠ عاماً أمام آلاف الأعوام التي ظلت فيها القدس عربية، سواء قبل ظهور الإسلام أو بعده أو على مستوى تأسيس المدينة ذاتها، وتاريخ المدينة بعد فتحها في عهد عمر بن الخطاب الذي ذهب بنفسه لاستلام مفاتيحها، وهذه حالة خاصة بالقدس تعبر عن أهميتها لأن عمر لم يذهب لاستلام أي مدينة مفتوحة غير القدس وكانت القدس في ذلك الوقت خربة فقام المسلمون بتعميرها، وإعادة بناء بيت المقدس الذي كان مهدوماً في عهد عمر بن الخطاب وقد شهدت مدينة القدس اهتماماً مستمراً من المسلمين في مختلف الحقب، فكانت بيعة الخليفة الأموي تتم في القدس كما اهتم الأمويون بتعمير المدينة وتشجيع حركة العلم بها وكذلك فعل العباسيون الذين تركوا آثاراً كثيرة في القدس يحاول اليهود طمسها الآن لتغيير هوية المدينة، كما كان للفاطميين والسلاجقة والأيوبيين آثاراً هامة في المدينة، وعندما سقطت القدس في أيدي الصليبيين لمدة مائة عام، ثم أعاد صلاح الدين الأيوبي فتحها بذل جهوداً كبيرة لإعادة الطابع العربي الإسلامي للمدينة بعد أن حاول الصليبيون طمس هذا الطابع.

ثم جاءت الخلافة الإسلامية العثمانية فحكمت القدس ٤٠٠ سنة إلى أن سقطت فلسطين تحت الانتداب البريطاني ١٩١٨ وبدأت المؤامرة لتسليم فلسطين إلى اليهود الصهاينة.

الصراع على القدس وفلسطين كلها، صراع تدخل فيه العوامل السياسية مع العوامل الدينية والتاريخية، وإذا كانت إسرائيل بالنسبة للغرب هي جزء من مشروع الهيمنة الغربي على المنطقة فإنها أيضاً بالنسبة لتفسير مسيحي معين (بروتستانتي)

نوع من التمهيد لظهور المسيح المزعوم في نظرهم الذي سيقضي على إمبراطورية الشر (المسلمين) في معركة هرمجدون وهي بالنسبة لليهود تنفيذ للأسطورة المزعومة عن وعد إلهي لأجدادهم!

وهي بالنسبة للمسلمين أرض الإسراء - وأولى القبلتين وثالث الحرمين وحق طبيعي لأنهم هم مؤسسو المدينة، وظلت المدينة جزءاً منهم وهم جزء منها لآلاف السنين، بل وينظر المسلمون للصراع على أنه صراع حضاري ممتد في التاريخ والجغرافيا، وأنه على أرض فلسطين سيحسم الصراع فإما إبادة الحضارة الإسلامية وإما فتحاً جديداً لعهد الإسلامية العالمية الثانية والقضاء على الاستكبار العالمي وإنهاء الظلم والنهب والقهر الذي مارسته وتمارسه الحضارة الغربية - أمريكا آخر صورها - على العالم.

ومن ناحية النص الديني الإسلامي، فإن المسلمين متأكدون من أن النصر آت لا ريب فيه وفقاً للآية القرآنية ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء: ٤ – ٧].

ويميل المفسرون في مجملهم إلى أن الظهور الإسرائيلي الحالي في فلسطين هو تصديقاً للآيات الكريمة، وهو يمثل الإفساد الثاني لبني إسرائيل وأن نهايتهم هي الدمار كما تقرر الآيات ولكننا نعتقد - والله أعلم - أن هذا الإفساد والعلو الإسرائيلي هو الإفساد الأول لهم، ولأننا لا يمكننا اعتبار علوهم أيام داود وسليمان إفساداً، لأن داود وسليمان، كانا يطبقان شرع الله - أي الإسلام الذي جاء به كل الأنبياء - وبالتالي فلم يحدث علو وإفساد معاً لبني إسرائيل إلا هذه المرة، وبالتالي فهي الإفساد الأول ونهايته كما تقرر الآيات نهاية منكرة على يد عباد الله أي المسلمين بأسهم شديد على

طريقة العمليات الاستشهادية وعلى كل حال فسواء كان هذا هو الإفساد الأول أو الثاني أو أي إفساد فنهايته محتومة والنصر لنا بإذن الله تعالى والآيات الكريمات تختتم بوعد مطلق بأنه في كل إفساد ستكون نهايته مفجعة إن شاء الله ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء: ٨] أي إذا تكرر الإفساد لأكثر من مرتين وإن عدتم عدنا وتكررت نفس النهاية لكم.

هذا النص الديني الذي شكل الوجدان والرؤية الإسلامية يحتم على المسلمين والعرب بالتالي التمسك بتحرير كامل التراب الفلسطيني (القدس وما حولها) وأنها والعلو والإفساد الإسرائيلي، وأن هذه هي مسئولية المسلمين جميعاً بجميع طوائفهم ومذاهبهم بل وأجيالهم المختلفة وبالتالي فإن المسعى الدبلوماسي نحو ما يسمى بعملية السلام برمتها مسعى غير شرعي، واقتصار المطالب العربية الحكومية أو مطالب السلطات الفلسطينية على مجرد التمسك بالقدس الشرقية دون القدس الغربية هو أمر غير شرعي أولاً، ولا يحق لهم ثانياً لأن هذا حق كل العرب والمسلمين حكاماً ومحكومين، وأيضاً حق الأجيال الإسلامية القادمة.

في مقابل ذلك فإن إسرائيل تسعى إلى طمس معالم هوية القدس بل وفلسطين كلها، وتتمسك بأن القدس الموحدة عاصمة لإسرائيل وتسعى أيضاً إلى وضع حقائق على الأرض تجعل هذا الأمر أمراً واقعاً

ويأتي الاستيطان على رأس التكتيكات الصهيونية في هذا الصدد - كذلك الهجرة ثم طرد العرب وطمس معالم الهوية العربية للمدينة وغيرها من الأساليب الصهيونية لفرض أمر واقع.

ويمكننا أن نقارن بين عدد اليهود إبان الحكم العثماني في القدس، أي قبل بداية الاستعمار الأوروبي الذي مكن لهم في القدس وغيرها عن طريق الهجرة وبين عددهم الآن لنرى مدى نجاح ذلك المخطط فقد كان عدد اليهود في القدس إبان الحكم العثماني ٣٠٠ عائلة يهودية فقط ثم قفز إلى ٣٠٠٠ آلاف يهودي عام ١٨١٩ ثم إلى

٢٠ ألف يهودي عام ١٨٩٠ من أصل ٤٥ ألف من السكان، ووصل سنة ١٩٤٧ إلى ١٠٠ ألف يهودي مقابل ٦٥ ألف عربي، ثم أصبح العدد الآن ٢٠٠ ألف يهودي في مقابل ١٥٠ ألف عربي، وتسعى إسرائيل إلى زيادة عدد اليهود في القدس عام ٢٠١٠ إلى ٧٥٠ ألف يهودي في إطار مخطط القدس اليهودية الكبرى.

ومن الناحية السياسية فإن إسرائيل استطاعت أن تسيطر على القدس الغربية بعد حرب ١٩٤٨ أي حوالي ٨٠ ٪ من مساحة مدينة القدس وفي أعقاب ذلك صدر قرار إسرائيلي بتاريخ ٢٣ / ١ / ١٩٥٠ باعتبار هذا الجزء عاصمة لإسرائيل وتم نقل الكنيست إليه، وفي عام ١٩٦٧ تم احتلال باقي المدينة أي القدس الشرقية التي تضم المقدسات الإسلامية والمسيحية، وأصدرت إسرائيل قراراً بتوحيد القدس ٢٨ / ٦ / ١٩٦٧، ثم صدر قرار باعتبار القدس الموحدة عاصمة أبدية لإسرائيل وتم الضغط على الحكومات في مختلف بلاد العالم لنقل سفاراتها إلى القدس وقد تمسكت إسرائيل في مفاوضات السلام بهذه النقطة ولم تقبل أبداً مناقشتها، فهي إما تتمسك بالقدس الموحدة عاصمة لإسرائيل، أو تؤجل الحديث عن مستقبل القدس في ظل السلام إلى المرحلة النهائية وفي الحقيقة فإن مسألة القدس كانت من المسائل التي لا يختلف عليها مختلف الأحزاب والقوى السياسية والحكومات المتعاقبة في إسرائيل، فسواء كان العمل أو الليكود هو الذي يحكم فإن الموقف لم يتغير وفي الواقع فإن إسرائيل تسعى للسيطرة الكاملة على فلسطين كلها من خلال الزحف بالمستوطنات لتحقيق أكبر قدر من السيطرة والأمن في نفس الوقت، وتحويل الفلسطينيين داخل الأرض المحتلة إلى مجرد جزر منفصلة تحت السيطرة على طريقة جنوب إفريقيا، وقد استطاعت إسرائيل أن تبني حتى عام ١٩٩٥ حوالي ٢١٠ مستوطنة تضم ٣٠٠ ألف مستوطن في الضفة وغزة والجولان.

وفي إطار الاستيطان الصهيوني، حظيت القدس بالنصيب الأكبر والأهم، بحيث

يصبح من المستحيل تقسيم القدس أو عودتها إلى العرب وبالتالي تصبح عاصمة أبدية موحدة لإسرائيل، فبدأت إسرائيل تقيم المستوطنات في القدس بحيث تغرق الوجود العربي فيها في بحر من اليهود وتقطع كل صلة لهم بما حولهم من العرب الفلسطينيين وتقوم إسرائيل بمنع العرب من البناء لأسباب مختلفة ومختلقة، كما تسعى لطردهم، ومنع عودة من غاب منهم، وتصادر الأراضي باستمرار بحجج مختلفة، كما تقوم إسرائيل بمحاولة طمس معالم المدينة الإسلامية عن طريق هدم الآثار الإسلامية بحجج مختلفة والتخطيط لهدم المسجد الأقصى بحفر أنفاق تحته تؤدي إلى سقوطه في النهاية كما أنها أوعزت إلى بعض المتطرفين بإحراق المسجد الأقصى عدة مرات تحت ذريعة أنهم مجانين!

وتفعل إسرائيل نفس الشيء مع الآثار المسيحية في المدينة ثم تقوم بتغيير بعض المعالم الأثرية للمدينة ثم إدعاء أنها آثار يهودية.

وتسعى إسرائيل في النهاية إلى إقامة ما يسمى مشروع القدس الكبرى لتوسيع حدود مدينة القدس بحيث تمتد إلى رام الله شمالاً وإلى بيت لحم جنوباً، بحيث يكون عدد اليهود في هذا المشروع حوالي ٧٥٠ ألف نسمة في القدس الكبرى!

* * * * *

حماس - فتح
سبع مرات إحداهن بالتراب

على الرغم من كل ما قيل عن زيارة نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني للمنطقة وخاصة اجتماعه بكل من إيهود أولمرت رئيس وزراء الكيان الصهيوني ومحمود عباس رئيس ما يسمى بالسلطة الفلسطينية، رغم أن تلك الزيارة أطاحت بكل أمل مزعوم في وساطة أو جهد أمريكي لتحقيق ما يسمى بالدولة الفلسطينية حسب وعود الرئيس الأمريكي جورج بوش في أنابوليس بأنه سيتحقق ذلك قبل نهاية ولايته، لدرجة أن الأمين العام لجامعة الدول العربية السيد عمرو موسى اعتبر الحديث عن إمكانية تحقيق دولة فلسطينية في عام ٢٠٠٨ هو ضرب من الأوهام، وكذلك استمرار الحكومة الإسرائيلية في بناء الجدار العازل من ناحية والتوسع في الاستيطان من ناحية أخرى وهو ما ينسف عمليًا كل إمكانية لقيام تلك الدولة... رغم كل هذا فإن ذلك لم يكن أخطر ما في الموضوع، بل إن أخطر ما في زيارة تشيني للمنطقة هو كشف الحقائق عن إمكانية قيام مصالحة بين حماس وفتح وتوحيد الصف الفلسطيني بالتالي، ومن الطريف أن تلك الزيارة تزامنت مع الجهود اليمنية لتحقيق مصالحة، والتي انتهت بتوقيع نوع من الاتفاق حتى ولو كان هناك اختلاف في تفسير بنود هذا الاتفاق، هل هي إطار لبدء المحادثات والحوار لتنفيذها كما ترى فتح، أم هي مجرد إطار لبدء الحوار حول بنودها ذاتها كما ترى حماس.

السيد ديك تشيني نائب الرئيس الأمريكي، والشخصية الأهم في الإدارة الأمريكية وصاحب النفوذ داخل اليمين الأمريكي المحافظ، وضع النقاط على الحروف حتى لا يدعي أحد بعد الآن أنه لا يفهم الحقائق كما هي أو يحاول الالتفاف عليها، من تلك الحقائق أن الإدارة الأمريكية مصممة على تصفية حماس ولن تقبل بغير ذلك، وأن على قيادة فتح أن تختار بين الاستمرار في عملية السلام والحوار مع إسرائيل أو أن تدخل في ائتلاف مع حماس وأنه ليس بالإمكان أن تختار هذين الطريقين معاً، وأن المطلوب من حركة حماس أن تتخلى عن السلاح وعن السلطة حتى يُسمح أمريكيًا

وإسرائيليًا لفتح أن تتحاور معها، وكل هذا يعني أن على حركة حماس مثلاً أن تسقط سلطتها في غزة، وأن توقف ضرب الصواريخ على المستعمرات الصهيونية، وأن تجمع سلاحها وتسلمه لمحمد دحلان، ثم تنتظر الطائرات الصهيونية لتقصف بيوتها أو سياراتها لقتل زعمائها ومن كان معهم أو سار بجانبهم من الشيوخ والأطفال والمدنيين، أو تنتظر قرارات اعتقال يوقعها محمود عباس أو محمد دحلان بحق إسماعيل هنية وغيره من قادة حماس، وبغير هذا فلا فائدة من حوار أو اتفاق في مصر أو السعودية أو اليمن أو في أي مكان، وبالطبع لا تعنينا تصريحات تشيني عن موضوع السلام وتأكيد التزام الإدارة الأمريكية بالسلام، فالسلام في عرف ومفهوم تلك الإدارة هو الاستسلام الفلسطيني الكامل، والدخول في حرب تصفية مع حماس والجهاد والجبهة الشعبية وكل المنظمات الجهادية والنضالية في غزة والمنطقة، وكذا إطلاق يد إسرائيل في الاستيطان واعتبار ما تقوم به إسرائيل من قتل للفلسطينيين هو أمر مشروع ومبرر دفاعاً عن النفس، أما ما تقوم به حماس والجهاد وكتائب شهداء الأقصى فهو إرهاب يستحق الإدانة!!.

يمكننا بناء على ما تقدم أن نفهم لماذا اعتبر بعض المراقبين اتفاق صنعاء قد ولد ميتاً، ليس لأن تصريحات قادة حماس وفتح تنحني منحنى معيناً يعطل تفعيل هذا الاتفاق، أو الاختلاف عن فهم هذا الاتفاق هل هو إطار تنفيذ أم إطار حوار حول بنوده ولكن لأن هناك فيتو أمريكي إسرائيلي على أي اتفاق أو حوار بين فتح وحماس لا يلغي سلاح حماس وسلطتها ووجودها، وهو أمر مستحيل عمليًا، فحماس ليست ساذجة إلى هذه الدرجة، وليست ضعيفة أيضاً إلى هذا الحد.

على كل حال فإن السيد عزام الأحمد رئيس كتلة فتح البرلمانية والذي وقع على الاتفاق من طرف فتح قال: إن هناك في كل من فتح وحماس من يريد إفشال الاتفاق، أما السيد ياسر عبد ربه أمين سر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، قال بالحرف الواحد، إن إعلان صنعاء ولد ميتاً ولا يشكل خروجاً من الأزمة، وأن منظمة التحرير الفلسطينية لن تلتزم به، وأن القيادة الفلسطينية تؤكد موقفها الرافض

للحوار من أجل الحوار مع حماس - لماذا يتحاورون مع إسرائيل من أجل الحوار، بل يعتبرون مجرد جر إسرائيل إلى الحوار مكسباً للسلطة؟!.

إسرائيل من ناحيتها اعتبرت أن الاتفاق لا شيء، فايهود أولمرت رئيس وزراء الكيان الصهيوني قال: " إن هذا الاتفاق لا شيء " - لماذا هذا الاطمئنان؟! وجلعاد المسئول الكبير بوزارة الدفاع الصهيونية قال: " إن ما حدث في صنعاء لن يفضي إلى شيء، وأن تحالف فتح مع حماس هو خط أحمر يؤدي على إلغاء أي مفاوضات مع السلطة!

وهكذا فالمسألة واضحة، لا قبول لحماس حتى لو غسلت ثوبها الثوري سبع مرات إحداهن بالتراب، ولا سماح لفتح بالحوار الحقيقي مع حماس وإلا غضبت عليها إسرائيل، والصحيح في تلك الحالة أن تخرج السلطة من الوصاية الإسرائيلية الأمريكية وأن تضحي بالمفاوضات مع إسرائيل في مقابل التحالف مع حماس وتوحيد الصف الفلسطيني، أو تخرج فتح من وصاية السلطة وتتحالف مع حماس رغم أنف السلطة وإسرائيل وأمريكا.

* * * * *

دور الأصولية الإنجيلية في قيام ودعم إسرائيل

الأصولية الإنجيلية، أو الصهيونية المسيحية، هي تيار مسيحي كبير له الكثير من الأتباع والمؤسسات ومراكز النفوذ والكنائس والصحف والقنوات التليفزيونية والإذاعات والبنوك وغيرها في أوروبا وأمريكا، ويعتمد هذا التيار أساساً على أتباع المذهب المسيحي البروتستانتي.

وقد لعب هذا التيار دوراً كبيراً في نشأة إسرائيل ودعمها حتى اليوم وله نفوذ كبير داخل مؤسسة الرئاسة الأمريكية بل إنه يلعب دوراً مهماً في توجيهها، بل إن رؤساء أمريكيين مثل ريجان كان من المنتمين إلى هذا المذهب وكذلك يتأثر بهم الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن.

ويؤمن أتباع هذا المذهب أن هناك ثلاثة إشارات إلهية يجب أن تتحقق قبل أن يعود المسيح إلى الأرض وهي قيام دولة إسرائيل من النيل إلى الفرات، وامتلاك مدينة القدس، وإعادة بناء هيكل سليمان، وأنه بعد تحقق تلك الإشارات فإن معركة هرمجدون وهي معركة يعتقد الأنجيليون أنها ستقع في سهل مجدون القدس وعكا وأن التنبؤ بها ورد في أسفار حزقيال ويوحنا ويوشع وهي تقول: إن قوات الكفار سوف تدمر فيها، وإن المسيح سوف يظهر فوق أرض المعركة ويرفع بالجسد المؤمنين به ويخلصهم من الدمار ومن ثم يحكم العالم مدة ألف عام حتى تقوم الساعة.

ووفقاً لهذه العقيدة الدينية فإن الأنجيليون يعتبرون أن دعم قيام إسرائيل واجب شرعي مسيحي وكذلك دعم توسعها والاعتراف بالقدس عاصمة لها وكذلك تمويل الاستيطان اليهودي في الأرض المحتلة، بل أكثر من هذا فإن عليهم دعم المخططات الرامية إلى هدم المسجد الأقصى وإعادة بناء هيكل سليمان.

وفي الحقيقة فإن نشأة الأصولية وانتشارها يخضع لأكثر من تفسير، فالبعض يعتقد أن اليهود نجحوا في التسلل إلى دوائر الكهنوت المسيحي واستطاعوا إدخال العقائد الخاصة بقيام إسرائيل واحتلال القدس وإقامة هيكل سليمان في صلب الإيمان

المسيحى وخاصة البروتستانتى، وأن ذلك تمهيد لعودة المسيح بحيث أصبح دعم المخطط اليهودي لإقامة إسرائيل من الفرات إلى النيل واجب مسيحى شرعى.

ويرى البعض الآخر أن دهاة الساسة الأوروبيين، المعادين للسامية والكارهين لليهود هم الذين أنشأوا هذا المذهب لضمان تأييد مسيحى واسع لذلك على أساس أن هذا الأمر يجعل اليهود يفكرون في قيام وطن لهم في فلسطين على حساب العرب المسلمين، وبذلك يضرب هؤلاء عصفورين بحجر واحد، أولهما هو التخلص من اليهود على أساس أنهم سبب البلاء في أوروبا وأنهم نفاية بشرية يجب أن تتخلص منها أوروبا، وفى نفس الوقت تحقيق نوع من التآمر ضد العرب والمسلمين واستخدام اليهود كقفاز لضرب الإسلام والمسلمين على اعتبار أن هناك عداءً تاريخياً وصراعاً مستمراً لم يحسم حتى الآن بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية.

وفى الواقع فإننا نرى أن التفسيرين صحيحان وأن المخطط اليهودي تلاقى مع رغبات دهاة الساسة الأوروبيين المعادين للسامية وأن اللقاء بين الرغبتين أنشأ هذا التيار ونفذ هذا المخطط فقيام إسرائيل وتوسعها يحقق هدف اليهود ويحقق هدف الأوروبيين في وقت واحد على حساب العرب والمسلمين.

* * *

وإذا بحثنا في هذا التيار وظروف ظهوره، نجد أنه اتجاه قديم في السياسة الأوروبية، فعلى حين كانت الكنيسة الكاثوليكية تتمسك باعتقادها بأن ما يسمى بالأمة اليهودية قد انتهى، وأن الله طرد اليهود من فلسطين إلى بابل عقاباً على صلب المسيح، وكانت الكنيسة الكاثوليكية تعتقد أن النبوءات الدينية التي تتحدث عن العودة تشير إلى العودة من بابل وأن هذه العودة قد تمت بالفعل على يد الإمبراطور الفارسى قورش

ثم جاءت ما يسمى بحركة الإصلاح الدينى المسيحى الذي تمخضت عنه البروتستانتية ثم انتشار المذهب البروتستانتى في أوروبا وأمريكا ليكون الأرض

الخصبة لنشأة المسيحية الصهيونية والإيمان بضرورة قيام إسرائيل وبناء المعبد كتمهيد ضرورى لظهور المسيح، وتكريساً لهذا التحول أصبح العهد القديم " التوراة " هو المرجع الأعلى لفهم العقيدة المسيحية وبلورتها، وفتح باب تفسير نصوصه أمام الجميع لاستخراج المفاهيم الدينية دون قيود كما تم اعتبار اللغة العبرية باعتبارها اللغة التي أوحى بها الله إلى أنبيائه واللسان المقدس الذي خاطب به شعبه المختار هى اللغة المعتمدة للدراسة الدينية، ومن خلال ذلك تغلغل الفكر اليهودي إلى قلب الحركة الدينية المسيحية عموماً والبروتستانتية خصوصاً.

ثم بدأت الدعوة إلى قيام إسرائيل في فلسطين تظهر على يد علماء الدين المسيحى البروتستانتى ثم رجال السياسة البريطانيين والأوروبيين مثل عالم اللاهوت البريطانى توماس برايتمان ١٥٦٢ - ١٦٠٧ والسياسى البريطانى هنرى منشن ١٦٢١ ثم العالمان الإنجليزيان جوانا والينزر كارترايت ١٦٤٩ ثم السياسى البريطانى كروميل ١٦٤٩، ثم الفرنسى فيليب جنتل ١٦٥٦، لم يقتصر الأمر في هذا الصدد على علماء الدين والسياسيين بل تعداه إلى الأدباء والفنانين مثل ميلتون ولورد بايرون وكولريدج وألكسندر بوب وجان راسين وجورج إليوت وغيرهم.

ثم تبنى هذه الدعوة اللورد الإنجليزى شافتسبرى ١٨٨٢ وكذلك دوق كنت وجلادستون واللورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانى ١٨٦٥، بل حتى نابليون بونابرت قد تبنى الدعوة إلى إقامة وطن لليهود في فلسطين ووجه الجنرال بونابرت نداء إلى اليهود ودعاهم فيه بالورثة الشرعيين لفلسطين وطالب فيه بإقامة دولة لليهود في فلسطين وذلك في أثناء حملته على الشرق ١٧٩٨ - ١٨٠١.

واستمر الأمر على هذا المنوال إلى أن ظهر تيودور هرتزل فتبنى هذا الأمر ودعا اليهود إلى العمل على تحقيقه وتم بلورة ذلك في مؤتمر بال عام ١٨٩٧، ثم تدافعت الجهود اليهودية والأوروبية إلى أن تمخضت عن وعد بلفور سنة ١٩١٧، وبعد ذلك حظيت الدعوة بدعم كامل من أوروبا وأمريكا إلى أن قامت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨.

الصهيونية المسيحية في أمريكا:

مع تصاعد قوة ونفوذ الولايات المتحدة، ومع زيادة وزنها الاقتصادى والسياسى والعسكرى نشطت داخلها الحركة المسيحية الصهيونية ويبلغ عدد المنتمين إلى الكنائس الإنجيلية التي تعتقد بالمسيحية الصهيونية وضرورة قيام إسرائيل وبناء الهيكل تمهيداً لعودة المسيح حوالى ٧٧ مليون أمريكى ينتمون إلى ٢٠٠ طائفة، وتمتلك هذه الاتجاهات في أمريكا العديد من قنوات التليفزيون حوالى ١٤٠٠ محطة تليفزيون وإذاعة، وحوالى ٤٠٠٠ مقدم برامج والعديد من الصحف ووكالات الأنباء بل ومنهم العديد من الشخصيات الأمريكية البارزة كان منهم الرئيس ريجان والقس سيجوارت والقس فالويل والقس بات روبرتسون والعديد من أعضاء الكونجرس ودوائر النفوذ المالى والإعلامى والسياسى الأمريكي، ويتأثر بهذا المذهب الرئيس بوش الابن ووزير دفاعه رامسفيلد ووزير العدل أشكروفت، ويستطيع هؤلاء إقناع الـ ٧٧ مليون من أتباعهم بأن دعم إسرائيل واجب مسيحى وكذلك، يستطيعون إقناع عدد أكبر من غير أعضاء الكنائس الأصولية، أى أنهم عملياً قادرون على خلق رأى عام واسع جداً في أمريكا لتأييد إسرائيل ودعمها ناهيك عن النفوذ اليهودي التقليدى في الكونجرس والإعلام ودوائر المال.

وعلى أى حال فإن مجرد نظرة على المؤسسات التابعة للكنائس الإنجيلية التي تؤمن بالمسيحية الصهيونية يدلنا إلى أى مدى وصل نفوذهم المالى السياسى والإعلامى في أمريكا، فهناك على سبيل المثال لا الحصر المصرف الأمريكي المسيحى من أجل إسرائيل، مؤتمر القيادة الوطنية المسيحية من أجل إسرائيل،، منظمة جبل المعبد، وتبلغ هذه المنظمات في أمريكا عموماً حوالى ٢٥٠ منظمة تدير آلاف المصارف والصحف والمؤسسات المالية والإعلامية.

وتبشر هذه المنظمات المسيحية بالعديد من المفاهيم داخل أمريكا

وخارجها فهى تؤمن بأن دعم إسرائيل هو التزام دينى ثابت وليس مجرد التزام سياسى متغير ومتحرك، كما تعتبر شرعية الدولة اليهودية مستمدة من التشريع الإلهى وبالتالي اعتبار قيام الدولة تحقيقاً للنبوءات الدينية، التشديد على أن أرض إسرائيل هى كل الأرض التي وعد الله بها إبراهيم وذريته، وبالتالي تشتمل كل الأرض الموعودة من النيل إلى الفرات، استمرار العمل بالشعار الذي يقول: إن الله يبارك إسرائيل ويلعن لاعنيها، وبالتالي فإن دعم إسرائيل طريق إلى بركة الرب، بل إنه عندما يتناقض القرار الإسرائيلي مع مواثيق الشرعية الدولية أو القانون الدولي فإنه لا اعتبار لذلك ويجب احترام القرار الإسرائيلي لأنه تعبير عن إرادة الرب، أما القوانين الدولية فإنها تعكس إرادة الإنسان، ومن الضرورى احترام إرادة الرب إذا ما تناقضت مع إرادة الإنسان.

* * * * *

المسجد هو محور الحياة في المجتمع الإسلامي

ومنذ أن بعث الله تعالى رسوله الأمين محمد ﷺ فإن للمسجد دوراً مركزياً في حياة المجتمع المسلم - ولم يكن عبثاً أن الرسول ﷺ منذ وصل إلى المدينة المنورة مهاجراً - أي منذ بدأ قيام كيان اجتماعي للمسلمين - قام على الفور ببناء مسجد " مسجد الرسول بالمدينة المنورة " - وكان المسجد على عهد الرسول ﷺ هو المكان الطبيعي للقاء المسلمين - وهو معهد العلم - وفيه تعقد الاجتماعات وتبرم المعاهدات ومنه تنطلق الجيوش - وبداخله تعقد عمليات البيع والشراء والقضاء والزواج - وفيه يتم تنظيم الدروس الدينية والعلمية للمسلمين - بل إن صلاة الجمعة ذاتها التي فرضها الله على المسلمين وجعل من الضروري أدائها في المسجد الجامع في جماعة تعد في حد ذاتها اجتماعاً سياسياً أسبوعياً يناقش المسلمون من خلال خطبة الجمعة مشاكل المجتمع الإسلامي والتحديات التي تواجهه والمهام الملقاة على عاتقه - واستمر الأمر على هذا المنوال في عهود ازدهار الإسلام وأيام الحكم الإسلامي الصحيح - ومع ظهور الانحراف في المجتمع الإسلامي وخاصة على مستوى شكل الحكم السياسي قام المسجد بدوره في النصح والإرشاد بل وفي احتضان حركات الثورة والانتفاض من أجل العودة إلى العلاقات الإسلامية الصحيحة على مستوى الفرد والجماعة ونظام الحكم ليس هذا فحسب - بل إن المسجد كان دائماً موطناً لحركات الاحتجاج الاجتماعي والحركات المطالبة بالجهاد ضد الغزو الخارجي مما كان يشكل ضغطاً هائلاً على الحكام يضطرون معه إلى دخول المعارك ضد الكفار - وكان المسجد يقوم بدوره في التعبئة الجماهيرية وتنظيم المتطوعين للجهاد بالنفس والمال ولعل تجربة ابن تيمية والعز بن عبد السلام تؤكد هذا المعنى في مواجهة التتار والصليبيين.

واكتسبت العلاقة التاريخية بين الأمة والعلماء من خلال المسجد بعداً هاماً

وأصبحت شرطاً ضرورياً من شروط الانتصار الإسلامي على قوى الكفر الخارجي أو الاستبداد الداخلي على حد سواء - وأصبح فصم هذه العلاقة إحدى الأهداف الثابتة لأعداء أمتنا من استعمار أو عملاء محليين أو علمانيين أو حكام مستبدين أو غيرهم.

والحديث عن كفاح الأزهر - هو حديث عن العلاقة التاريخية بين العلماء والجماهير من خلال المسجد - وهو في ذات الوقت حديث عن كفاح الشعب المسلم في مصر ضد الظلم وضد الغزو في نفس الوقت وهو أيضاً حديث عن الأساليب التي اتبعها الاستعمار لترويض الشعب المسلم في مصر عن طريق فصم العلاقة التاريخية المتميزة بين الأمة والعلماء وتقليص دور المسجد ليكون مجرد مكان للصلاة دون أن يمتد لأداء دوره الاجتماعي المنشود.

* * * * *

زيارة بوش للمنطقة محاولة أخيرة لغسيل سجله الأسود

الزيارة التي قام بها الرئيس الأمريكي جورج بوش إلى المنطقة في الفترة من ٨ - ١٦ يناير ٢٠٠٨ والتي اجتمع فيها بأكثر من زعيم عربي وإسرائيلي، بل ومبعوث دولي، لم تسفر عن شيء وما كان لها أن تسفر عن شيء، ذلك أنها جاءت بدافع الإحساس بالفشل والعجز عن تحقيق شيء في غضون سبع سنوات قضاها الرئيس الأمريكي في البيت الأبيض منذ عام ٢٠٠١ وحتى الآن، وبديهي أن ما أفسده جورج بوش في سبع سنوات لم يكن قادراً على إصلاحه في ربع الساعة الأخير، أو العام الأخير في ولايته الدموية. حسب التصريحات الرسمية الأمريكية، فإن الزيارة كانت تستهدف تأكيد الالتزام الأمريكي الراسخ بأمن واستقرار المنطقة، وسبل مكافحة الإرهاب ودفع جهود الحرية والديمقراطية وتحقيق السلام والرخاء في المنطقة، فهل حدث شيء من هذا؟!. كل ما استطاع أن يؤكد عليه جورج بوش هو حل الدولتين (فلسطينية وإسرائيلية) جنباً إلى جنب وهو حل أصبح تماماً لصالح إسرائيل، لأن إسرائيل تدرك الآن وباعتراف كل قادتها بما فيهم إيهود أولمرت رئيس الوزراء أن البديل هو الغرق في بحر متلاطم من السكان الفلسطينيين وضياع يهودية دولة إسرائيل، ومن ثم نهاية فكرة الصهيونية بالكامل، إذا كان الرئيس الأمريكي لم يحقق شيئاً جديداً، وكل ما في الأمر أنه أكد التزاماً كان ولا زال لصالح إسرائيل، ثم إن إسرائيل ذاتها سوف تحدد حدود الدولة الفلسطينية وصلاحياتها ومن ثم تفرغها من مضمونها وتحولها إلى مكان يستقبل اللاجئين الفلسطينيين بل ويستقبل أيضاً ما يمكن طرده من عرب وفلسطيني ١٩٤٨ الذين لا يزالون يعيشون داخل فلسطين التاريخية، ويمثلون تهديداً ديموغرافياً وأمنياً خطيراً على إسرائيل ومستقبلها " يبلغ هؤلاء حوالي ١.٥ مليون نسمة ويزدادون بمعدل كبير وهم مسلمون ومسيحيون ودروز ". ونلاحظ في هذا الصدد أن زيارة جورج بوش سبقها قيام إسرائيل بغارات مستمرة على غزة ومات فيها العشرات من أهالي غزة، وكذلك تم تشديد الحصار على تلك المنطقة واستمرار قطع الكهرباء والماء ومنع دخول المساعدات والأموال مما حول

حياة أهل غزة إلى حياة شديدة الصعوبة في إطار حصار حماس، ولكنه في الحقيقة حصار جماعي لكل أهالي غزة. ويمكننا أن نقول: إن جورج بوش أيضاً أعطى ضوءاً أخضر لإسرائيل ولمحمود عباس باجتياح غزة وتصفية حماس في أي وقت يشاءون، حين شدد في تصريحاته عقب لقائه بالسيد أولمرت والسيد عباس بضرورة القضاء على الإرهاب، ومن المثير والملفت للنظر أن الرئيس الأمريكي رفض أن يزور أي رمز فلسطيني مثل قبر ياسر عرفات أو غيره، في حين زار الجندي المجهول الإسرائيلي!!. فيما عدا موضوع حل الدولتين، الذي لا يزال أيضاً يراوح مكانه، فإن جورج بوش عاد بخفي حنين، فلا تزال الأوضاع في لبنان كما هي، بلد بلا رأس وشلل سياسي تام بين حكومة السنيورة والمعارضة ولم ينجح جورج بوش ولا حليفه ساركوزي رئيس فرنسا في دفع سوريا نحول القبول برئيس لبناني بدون صفقة شاملة في الكثير من القضايا كما تشترط المعارضة اللبنانية، على مستوى العراق لا يزال هناك مقاومة، ولا يزال هناك نزيف للقوات الأمريكية، بل والحكومية، وفي هذا الصدد فإن من الضروري أن يشعر جورج بوش بالعار؛ لأنه تسبب في موت مئات الملايين من العراقيين وتهجير وتشريد عدة ملايين، وأوصل البلاد إلى حافة حرب أهلية، ولم يحقق فيها إلا ديمقراطية الطوائف، وهي ديمقراطية التطهير العرقي والطائفية ومعاناة الإنسان، وأوقع بلاده ذاتها في مستنقع كبير لم يعد من السهل الخروج منه بدون خسائر استراتيجية كبيرة جداً ن بل إن هذا الخطأ التاريخي دفعت وسوف تدفع الولايات المتحدة الأمريكية ثمناً فادحاً له في المنظورين المتوسط والبعيد فضلاً عن المنظور القريب والمباشر، على مستوى الحرب على الإرهاب فإن أوضاع المنظمات الإرهابية مثل طالبان تزداد قوة، وقد استعادت طالبان قوتها في عام ٢٠٠٧ بصورة كبيرة وعادت إلى الساحة، وهي تسيطر على ٥٤ ٪ من أراضي أفغانستان، بل ويمتد نفوذها إلى باكستان التي أصبحت صداعاً كبيراً في رأس بوش وأمريكا، خاصة بعد مصرع بنازير بوتو، وهي البديل الأمريكي الأخير في باكستان، وبموتها فإن مخاطر تحول باكستان إلى

دولة إرهابية أصبحت كبيرة جداً وفي أي الأحوال فإن التطورات في باكستان لن تكون في صالح الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم فإن جورج بوش جاء إلى أمريكا وهي الأقوى والأكثر نفوذاً في العالم ويتركها في حالة يرثى لها من التداعيات السلبية على كل مستوى، على مستوى الإرهاب أيضاً، فإن جورج بوش لم يستطع أن يقضي على القاعدة التي ازدادت نفوذاً، ولولا أنها ترتكب الخطأ التاريخي بالهجوم على دول عربية وإسلامية، لكانت في وضع يسمح بإنزال هزيمة استراتيجية بالولايات المتحدة الأمريكية، ولكن ضيق النظر من قادة القاعدة جرم إلى الدخول في معارك بلا مبرر في مصر والسعودية والمغرب والجزائر وغيرها كانوا في غنى عنها بالتركيز على مناهضة ومحاربة أمريكا وإسرائيل في العراق وأفغانستان وفلسطين. أياً كان الأمر فإن جورج بوش جاء لغسيل سجله الأسود في المنطقة، وعاد بعد أن زاد الثوب سواداً للأسف.

* * * * *

ماذا كشفت عنه فاجعة غزة

لا يمكن أن نصف ما حدث في غزة إلا بالفاجعة، ورغم أن المشكلة تم حلها جزئياً بسماح السلطات المصرية بعبور الفلسطينيين من غزة إلى رفح والعريش ومن ثم الحصول على شيء من المواد الغذائية والمحروقات ولوازم الحياة يمكن أن تساهم في تخفيف معاناة أهل غزة، إلا أنه حل مؤقت وجزئي بالطبع ولا يلبي الحاجات الضرورية المستمرة لاستمرار الحياة في غزة. وهذا لا يقلل من الجهد المشكور للسلطات المصرية، التي فتحت الحدود أمام الفلسطينيين على غير رغبة أمريكا وإسرائيل بالطبع مع ما يترتب على ذلك من تداعيات على الحكومة المصرية خاصة بالرجوع إلى اتفاقية كامب ديفيد المشئومة، والاتفاق العسكري الأمني بخصوص المعابر الموقع في أغسطس ٢٠٠٥ بين مصر وإسرائيل.

هي فاجعة بالطبع ذلك أن ١.٥ مليون إنسان تم إنزال العقاب الجماعي بهم عن طريق حصارهم حصاراً تاماً، فلا ماء ولا كهرباء ولا محروقات ولا مواد غذائية أو أدوية، وتعطل المستشفيات بسبب قطع الكهرباء، وكذا طفح المجاري للسبب نفسه، حيث أن ماكينات رفع المياه تعمل بالطبع بالكهرباء أو الطاقة الممنوعة على أهل غزة، وهو أمر ربما لم يحدث في التاريخ من قبل.

المهم هنا هو ما كشفت عنه فاجعة غزة... لقد كشفت الكثير من حقائق هذا العالم الظالم. وربما يكون الاكتشاف ليس جديداً، فالجريمة الغربية الأمريكية العالمية بإنشاء الكيان الصهيوني على حساب الشعب الفلسطيني هي ذاتها أثبتت أننا في عالم ظالم، وكذلك ممارسات القمع الصهيونية مختلفة الأشكال والألوان على مدى أكثر من ٦٠ عاماً وعلى مدر اليوم والساعة وتحت سمع العالم وبصره هي بدورها تثبت أننا في عالم ظالم. أضف إلى ذلك أن تلك الدولة أو الكيان المعتدي والغاصب يتمتع بدعم مادي وسياسي أمريكي وأوروبي واضح، وبلا رتوش!!.

على أن ما حدث في غزة في الأونة الأخيرة أعاد تأكيد هذه الحقيقة المرة، وهي

أننا نعيش في عالم ظالم، بل وأضاف إليها أن مستوى الظلم والإجرام في هذا العالم قد فاق كل تصور وتعدى كل الحدود. من الحقائق المنكشفة على ضوء - عفواً على إظلام غزة. أن هناك تواطؤ دولي كبير، فالرباعية الدولية سكتت، والاتحاد الأوروبي الذي انتقد مصر بخصوص حقوق الإنسان في توقيت متزامن مع أحداث غزة سكت بدوره، ومجلس الأمن يراوح مكانه دون اتخاذ قرار واضح وصريح يلزم الجميع بفك الحصار، والولايات المتحدة تمنع أي تحرك دولي أو عربي جاد لإنهاء الحصار، بل قل إن زيارة جورج بوش الأخيرة للمنطقة كانت بهدف إعطاء الضوء الأخضر لإسرائيل لتنفيذ هذه الجريمة، أي أن أمريكا ليست مجرد متواطئ مع إسرائيل، بل هي فاعل أساسي في الجريمة، من الحقائق أيضاً، أن مستوى العجز والانهيار وعدم القيمة بالنسبة للدول العربية كان فادحاً. صحيح أن هناك أغنياء وأفراد وجماعات عربية فعلت ما تقدر عليه لدعم صمود أهل غزة وتقليل معاناتهم، ولكن ظل الموقف الرسمي العربي عاجزاً تماماً وبصورة مزرية، وفي هذا الصدد - أي قياساً على العجز العربي، فإن السلطات المصرية كانت أفضل نسبياً من غيرها، ومن المفروض أن يكون الإجراء المصري مشمولاً بدعم عربي بقرار من جامعة الدول العربية أو من اجتماع استثنائي للقمة العربية، ويمكننا أن نقول: إن القرار المصري كان موقفاً جيداً نسبياً، سواء كان ذلك بفعل شهامة مصرية أو لضرورات الأمن القومي المصري الذي لا يريد انفجار غزة في وجهه، نعم أياً كان الواقع فإنه جهد مشكور. ولعل هذا يعلمنا درساً كبيراً أن العدو الحقيقي هو أمريكا وإسرائيل، وليست الحكومات العربية مهما كان عجزها، وهذا ليس للتبرير ولكنه لترتيب الأولويات ووضع نقاط النضال على الحروف الصحيحة.

كشفت أحداث غزة عن مستوى غير لائق بالنسبة للسلطة الوطنية الفلسطينية، التي بدلاً من أن تدين أمريكا وإسرائيل، وتوقف المفاوضات مع العدو القاتل، وتقوم بتوحيد الشعب الفلسطيني بلا شروط مسبقة راحت تضع الشروط والفروض على حماس لعودة الحوار مجرد الحوار، بل طلبت عدم إطلاق صواريخ على سديروت

رغم أن تلك الصواريخ ليست السبب في المعاناة أولاً، وهي نوع من رد الفعل البسيط، وهو حق طبيعي لأي حركة تحرر وطني ورغم أن حماس عرضت وقف إطلاق الصواريخ مقابل فك الحصار ولكن إسرائيل هي التي رفضت، ثم إن إسرائيل مارست القتل والعدوان والحصار والتجويع وضرب البنية التحتية الفلسطينية قبل ظهور حماس أصلاً، وقبل اختراع صواريخ القسام!!.

من الأمور التي كشفت عنها فاجعة غزة، أن من الضروري قيام مصر والدول العربية بمد غزة بالطاقة ووقف تصدير الغاز لإسرائيل وفتح الحدود أمام السلع والبضائع والأفراد، فلا يكون غذاء أهل غزة وطاقتهم من إسرائيل فقط، فلا تتحكم فيهم إسرائيل وصحيح أن إسرائيل سوف تحاول عرقلة ذلك، ولكن هناك أوراق مصرية وعربية يمكن أن تحقق هذا، مثل قطع الغاز المصري عن إسرائيل، وضغط اقتصادي وسياسي عربي على أمريكا.

والله المستعان!!.

* * * * *

محرقة غزة.. لماذا لم يتحرك العرب؟

في رصد قامت به إحدى مراكز الأبحاث والدراسات السياسية والاستراتيجية تبيّن أن الصهاينة نفّذوا حوالي ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) مجزرة بحق الفلسطينيين على مدى حوالي ٥٠ عامًا وبالتحديد منذ عام ١٩٣٨ وحتى عام ٢٠٠٥، وبديهي أن العدد تزايد بعد ٢٠٠٥ بصورة خطيرة، ومن ثم فإن الهولوكوست الصهيوني بحق الفلسطينيين بدأ حتى قبل أن يقوم هتلر بتنفيذ الهولوكست النازي ضد اليهود حسب زعمهم، وأنه استمرّ بعد ذلك وحتى الآن، ومن ثم فإن مجرد الحديث عن أن الهولوكوست الصهيوني بحق الفلسطينيين جاء كردّ فعل على الهولوكوست النازي هو نوع من الدجل الرخيص، فهذا أولاً غير حقيقي؛ لأن الهولوكوست الصهيوني بحقّ الفلسطينيين بدأ قبل أن يصل هتلر أصلاً إلى السلطة، كما أنه من غير العدل ولا المنطق مجازاة شعب بريء على جريمة شعب أو نظام أو ديكتاتور في مكان آخر، وكذا من المعروف أن العرب والمسلمين عاملوا اليهود أفضل معاملة، في إطار العدل الإسلامي بخصوص الأقليات، بل وكانت هناك أقليات يهودية في معظم الدول الإسلامية والعربية؛ في المغرب وتونس وليبيا والجزائر ومصر، والعراق واليمن وإيران... إلخ، بل داخل فلسطين ذاتها قبل ظهور الفكرة الصهيونية وأن هذه الأقليات كانت تمتلك المال والنفوذ ربما أكثر من الأغلبية المسلمة!!.

وهكذا فنحن أمام عدد من الحقائق وهي كالتالي:

- إن شعب فلسطين لم يتورط يومًا في اضطهاد اليهود، وكذا العرب والمسلمون، بل الذي تورط هم الروس والألمان والفرنسيون والأوروبيون عمومًا، ومن ثم فإذا كان ثمن هذا الاضطهاد هو إقامة وطن قومي لليهود، فليكن ذلك في جزء من ألمانيا أو أوروبا مثلاً، على حدّ تعبير الرئيس الإيراني أحمدي نجاد.

- إن أوروبا وأمريكا تورطتا في إنشاء دولة إسرائيل على حساب الشعب الفلسطيني - قبل أن يقوم هتلر بالمحرقة المزعومة أو الحقيقية ضد اليهود - وأن الدعم الأمريكي والأوروبي عسكريًا وسياسيًا وماليًا هو المسئول عن إنشاء واستمرار دولة إسرائيل، ومن ثم فإن الجرائم التي ترتكبها إسرائيل بحقّ الشعب الفلسطيني هي جريمة أوروبية وأمريكية بامتياز.

- إن الجرائم الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني استمرّت في الزمان والمكان قبل تأسيس إسرائيل رسميًا عام ١٩٤٨ واستمرت حتى اليوم، وتم رصدها بكل وسائل ا لرصد؛ الصورة والكلمة وغيرهما، ومع ذلك لم يتحرك العالم المتحضر!!. والأمر الذي يعني نوعًا من التواطؤ غير المسبوق.

- إن تلك الجرائم الصهيونية شهدت كل أنواع الجرائم، من اغتصاب الأرض وتشريد الشعب، والقتل والسجن الجماعي والفردي وتدمير البنية، والحصار والتضييق في أسباب الرزق... إلخ.

- إنه يندر أن ترتكب جريمة بهذا الشكل الفظيع والمستمر لعشرات السنيين دون توقف، وربما تكون الحالة الفلسطينية في هذا الصدد هي المعاناة الأكبر في التاريخ.

- وهكذا فنحن أمام هولوكوست صهيوني كامل بحق الفلسطينيين، ومن ثم فإن تصريحات نائب وزير الدفاع الصهيوني بتنفيذ محرقة (هولوكوست) في قطاع غزة لم يكن زلة لسان، فالحقيقة إن تلك المحرقة تتم فعلاً. وبالنسبة لحالة قطاع غزة، فإن ما يحدث هو نوع من العقاب الجماعي أولاً، وحصار شعب بكامله ثانيًا بدعوى أن هناك من يطلق صواريخ صغيرة على مستعمرات صهيونية غير شرعية أصلاً، ومن حقّ أيّ شعب في الدنيا أن

يدافع عن نفسه ويحاول أن يحرر أرضه خاصة إذا كانت وسائله شديدة المحدودية والضعف، ومن ثم فإن التواطؤ أو التأييد الأمريكي والأوروبي لإسرائيل في هذا الصدد بدعوى حقها في حماية أمنها هو نوع من الظلم والفسوق والعصيان وازدواج المعايير، وهو أمر يثير الاستفزاز بالطبع!!.

الهولوكوست الصهيوني موجود أصلاً ضد قطاع غزة المحاصرة التي يموت فيه المرضى والأطفال والشيوخ بسبب نقص الوقود وانقطاع الكهرباء ومنع دخول الغذاء والدواء، واستمرار الهجمات الصهيونية على القطاع بالطائرات والمدفعيات والدبابات. الهولوكوست الصهيوني موجود بالفعل، قبل تصريحات نائب وزير الدفاع الصهيوني (ماتان فيلناني)، وكل ما في الأمر أنه يعد بالمزيد، والمسألة بالطبع ليست إلا تأخيرًا صهيونيًا لتنفيذ عملية واسعة النطاق في غزة، خوفًا من تكرار السيناريو اللبناني ليس أكثر، بل ربما كان الاقتحام واسع النطاق إحراجًا لمحمود عباس وإحراجًا لدعاة التفاهم في السلطة، وكذا نوعًا من دفع الجماهير الفلسطينية لتبني خط حماس، وتصبح المحصلة زيادة قوة حماس وصمودها أمام جحافل الجيش الصهيوني، فتخرج حماس أكثر قوة كما حدث مع حزب الله إبان حرب تموز ٢٠٠٦ م. مع الأخذ في الاعتبار أن الأسباب الطائفية منعت امتداد حزب الله خارج المنطقة الشيعية أما بالنسبة لحماس فإن امتدادها مؤكد في غزة والضفة، بل وداخل إسرائيل ذاتها؛ لأن الأغلبية العظمى من الشعب الفلسطيني مسلمون سُنَّة مثل حماس.

وهكذا فإن التأخير الصهيوني ليس إلا خوفًا من سيناريو معين وليس تورعًا، وهذا لا يمنع أن ما تقوم به إسرائيل الآن في غزة هو أشدّ من الاجتياح الكبير؛ لأنه حصار وعدوان مستمر ويحدث يوميًا.

ومن المؤسف أن هذا يحدث تحت سمع وبصر العالم ولا يتحرك ومن المؤسف أكثر أن ذلك يحدث تحت سمع وبصر العرب والمسلمين ولا

يتحركون، فهل نظل متفرجين على المحرقة التي تتم بحق أهالي غزة، بدعوى الخوف من حماس أو الطلب إليها بالتخلي عن السلطة أو غيرها من الطلبات المستحيلة، والتي تعبر عن نوع من الهروب من مواجهة المسئوليات تجاه هذا الشعب، وبالمقابل فإننا نناشد حماس أن تطمئن مصر وغيرها أنها لن تكون خطرًا عليها، وأنها لا علاقة لها بالإخوان المسلمين في مصر، وأنها تدرك أنها حركة تحرير وطني قبل أن تكون جزءًا من مشروع دولي أو إقليمي للإخوان المسلمين، وحتى لا يظلّ أهالي غزة بين شقي رحى، الحقيقة أنه عدد من المطاحن وليس اثنين فهم محاصرون من إسرائيل والسلطة الفلسطينية ومصر وحماس، وعلى الجميع - أقصد السلطة وحماس ومصر - أن يرتفعوا عن مواقفهم الذاتية باتجاه تخفيف معاناة أهالي غزة وليس تركهم للمحرقة الصهيونية التي تأكلهم بالتدريج أو تأكلهم مرة واحدة.

* * * * *

مصر. إسرائيل - حماس... وبينهم أهالي غزة

منذ أن تدفقت الحشود الفلسطينية من بوابة رفح، أو بعض الثغرات والفجوات التي أحدثها الفلسطينيون في الحدود بين مصر وغزة، فإن التحليلات لا تنقطع عن هذا الموضوع، وكل يغني على ليلاه، هناك البعض في مصر والدول العربية - وبالمناسبة فهم ليسوا من الحكومات فقط أو المرتبطين بالحكومات - استغلوا المناسبة، فراحوا يتحدثون عن أن ذلك نوع من انتهاك السيادة المصرية، وبديهي أن الأمر ليس فيه أي انتهاك للسياسة، لأن الجوعى والمرضى والمجاهدين لا يمكن بحال من الأحوال أن يفكروا في انتهاك سيادة أحد، وخاصة مصر الشقيقة الكبرى للفلسطينيين عموماً وأهالي غزة خصوصاً، ولما لم يكن هذا المنطق مقبولاً، راح هؤلاء أنفسهم يتحدثون عن خطورة حماس، وأن اجتياح الحدود جاء بناء عن خطة مسبقة مع سبق الإصرار من حماس في إطار ما يسمى بالتنظيم الدولي للإخوان المسلمين، وأن ذلك نوع من الدعم والخطورة لقوة الإخوان المسلمين في مصر، الذين هم بالفعل يشكلون القوة الأكبر في الشارع المصري أو البديل الوحيد الممكن للنظام المصري، بل وصل الأمر إلى حد القول بأن خالد مشعل هو المرشد العام للإخوان المسلمين في مصر وفلسطين وأن عملية الاجتياح جاءت بناء على خطة بين إخوان مصر وحماس (إخوان فلسطين وغزة). وأن الأمر أخطر من أن يتم السكوت عليه، وبديهي أيضاً أن هذا كلام لا دليل عليه، بل ينافي المنطق - أي منطق - وأن حماس ليست ساذجة للتورط في مثل هذا الأمر فضلاً عن أن الإخوان المسلمين في مصر، تركوا منذ زمن طويل قصة الثورة على النظام أو الانقلاب عليه مدنياً أو عسكرياً وكل ما في الأمر أنهم يرغبون في الوصول إلى السلطة عن طريق صندوق الانتخابات فقط لا غير، وبصرف النظر عن إمكانية ذلك من عدمه، أو تخلي الإخوان المسلمين عن كثير من الثوابت الدينية والقومية والوطنية تحقيقاً لهذا الأمر، لدرجة أنهم أحياناً يغازلون الأمريكان، ويغازلون العلمانيين، ويغازلون إسرائيل ذاتها - أو على الأقل فهذه التهم منسوبة لهم بصورة أو بأخرى ليس من فراغ بل هناك

بالفعل ما يشير إلى ذلك، تصريح الدكتور عصام العريان مثلاً - وهو بمثابة رئيس المكتب السياسي لجماعة الإخوان حول إمكانية الاعتراف بإسرائيل، وهو التصريح الذي أثار لغطاً كبيراً في وقتها عندما نُشر في جريدة الحياة اللندنية منذ عدة شهور!!.

واستمراراً في تلك الحملة، فإن هناك بالفعل أخطاء تمت بين عدد من الفلسطينيين، وهذا أمر بديهي وطبيعي جداً، فلن يتصرف ٧٥٠ ألف مواطن عبروا الحدود بسبب الجوع والمرض والحصار على مستوى واحد، فمنهم من سوف يسرق أو يستخدم نقوداً مزيفة، أو يستفز أجهزة الأمن، أو يستغل الظرف لأهداف إجرامية كالتهريب مثلاً، أو يحاول دخول باقي الأراضي المصرية لأي سبب ومن ثم مخالفة التعليمات أو غيرها، وهذا لا يسيء إلى المجموع، ولكن كل من فعل جريمة أو مخالفة يسيء إلى نفسه فقط، ولا يمكننا أن نحمل كل الفلسطينيين الذين عبروا مسئولية المخالفين، وكذا لا يمكن تحميل كل الشعب الفلسطيني مسئولية هؤلاء - استغل البعض الأمر - وتحدث عن انحطاط أخلاقي فلسطيني عام - ولا حتى يمكن تجميل الأمر لحماس، لأن اندفاع الجموع أكبر من طاقة أي حكومة أو شرطة على ضبط الأمر تماماً، وهكذا فإن الهدف المعلن والخفي لتلك الحملة كان الوقيعة بين مصر وفلسطين، وهو أمر غبي يضر الأمن القومي المصري من ناحية، ولا يتناسب مع طبيعة العلاقات بين الشعبين من ناحية ثانية، ولا يتناسب حتى مع الأخلاق التقليدية لمصر حكومة وشعباً، ومن الضروري أن نشيد هنا بالقرار المصري بفتح الحدود، حتى ولو كان ذلك نوع من الاضطرار؛ لأنه لو ركب النظام المصري رأسه في الموضوع لكانت مذبحة مروعة!!.

على الجانب الآخر، فإن هناك حملة أخرى بعضها صحيح وأهدافها مريبة، تتحدث عن أن هناك خطة إسرائيلية أمريكية لتوطين أهالي غزة في سيناء، ويستند هؤلاء القائلين بذلك إلى استنادات هي بالفعل صحيحة، مثل القول بأن تلك الخطة قديمة قال بها بن جوريون، وأنها منشورة في عدد من الصحف الأمريكية والإسرائيلية... أو أن عمرها يرجع إلى ما قبل ١٩٦٧ بقرار من مجلس الوزراء

الإسرائيلي، وكل هذا صحيح، وأكثر منه نقوله نحن، وهو أن معدل زيادة السكان الفلسطينيين تعادل ستة أضعاف زيادة الإسرائيليين، ومن ثم فإن الانفجار الديموجرافي حادث لا محالة، وهو يشكل خطراً ماحقاً على مستقبل إسرائيل، وبديهي أن إسرائيل تفكر في حل، لأنها تريد طرد عدد من الفلسطينيين " الذين يعيشون داخل حدود ١٩٤٨ " وكذا فإن من الواضح أن إسرائيل تزيد من مستوطناتها في القدس والضفة، ومن ثم فإن الحديث عن دولة فلسطينية في غزة والضفة لن يصبح مقبول عملياً، فبعد أن تقتطع إسرائيل ما تريد من الأراضي، فإن ما يتبقى سيكون ضيقاً جداً ولا بد من نوع من التنفيس وإلا حدث انفجار باتجاه إسرائيل وأفضل نوع من التنفيس هنا يكون باتجاه سيناء إذا أخذنا تلك الحقائق مأخذ الجد، فإن المعنى الحقيقي والصحيح هو أن تقوم مصر بتعمير وتسكين سيناء بالمصريين وإعطائها أولوية في ذلك، الأمر الثاني ألا ندع الأمور تسير بشكل تلقائي نحو الانفجار، فليس من الممكن عملياً الاستمرار في حصار الشعب الفلسطيني في غزة ولا يحدث انفجار، ولا يمكن استمرار غلق المعابر في وجوه هؤلاء يجوعون ويموتون ويمرضون وتظلم حياتهم، ثم لا نتوقع أن تصبح غزة مرتعاً خصب لأسوأ أنواع التطرف والإرهاب ستكون حماس النسبة له نوع من الملائكة!!

لا بد من بحث عن حل عملي للمشكلة، فتح الحدود بنظام، السماح بدخول أغذية وأدوات طبية ووقود، سواء أراد الإسرائيليون والأمريكيون ذلك أم لم يريدوا، الضغط بجدية على أمريكا وإسرائيل لوقف عمليات الحصار والعقاب الجماعي، إعطاء الفلسطينيين نوع من الأمل، وقف عمليات التحريض بداع أو بدون داع ضد أهالي غزة، إجراء صلح سريع بين حماس وفتح، وإيصال رسالة واضحة للأمريكيين والإسرائيليين ولأبي مازن شخصياً ورجاله في الضفة، بأن استهداف حماس بهذه الطريقة لن يحل المشكلة، فهو إما أن يؤدي إلى تقوية حماس، أو زيادة تطرفها، أو يؤدي إلى انهيار الأمور تماماً في غزة، وحينذاك لن تستطيع فتح ولا حماس ولا أمريكا ولا إسرائيل، ولا كائناً من كان أن يوقف نمو أسوأ أنواع الإرهاب والتطرف

في غزة بل في المنطقة كلها.

من المؤسف أن أهالي غزة هم الذين يدفعون الثمن، وهم محاصرون بين الحكومة المصرية، وإسرائيل، والسلطة الفلسطينية، وهم أيضاً يتعرضون لتحريض أمريكي مستمر عليهم، لدرجة أن جورج بوش شخصياً في خطاب حالة الاتحاد دعا إلى المزيد من حصار غزة حتى يندفع أهلها للتخلص من حماس، وهو أسلوب يدل على مدى سذاجة جورج بوش، ولكنه الواقع!! وكذا فإن أهالي غزة يعانون من بعض تصرفات حماس التي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تصبح ذريعة للانتقام من غزة، يجب أن نقف مع حماس في هذا الظرف، وألا ننفذ المخطط الأمريكي بشأن تصفيتها؛ لأنها أولاً حركة تحرر وطني، وقوة مقاومة والزهار مثلاً استشهد له ولدان في حين أن ابن " أبو مازن " يستخدم نفوذ أبيه في الحصول على مكاسب تجارية، ولكن أيضاً مهما كان الرأي في حماس، فإن ذلك ينبغي ألا يصبح ذريعة لحصار غزة والانتقام من أهلها، ومن الضروري في المقابل أن تتفهم حماس الهواجس الحكومية المصرية بشأن العلاقة مع الإخوان المسلمين في مصر، وأن تطمئن حماس مصر بأنها لا تنوي أن تكون ورقة في هذا الإطار، وأنها وإن كانت من أصول إخوانية، فإن اهتمامها بالقضية الفلسطينية أعلى من انتمائها الإخواني، ومن الضروري أن تقول حماس لمصر: إن من مصلحة حماس أن تحافظ على الأمن المصري، وأن نجاح حماس في التصدي لإسرائيل هو ورقة عربية ومصرية ضد إسرائيل في النهاية، لأن إطلاق يد إسرائيل وأمريكا في المنطقة خطر ليس على حماس وحدها، ولا على الفلسطينيين وحدهم، بل خطر على كل الأمة، وخطر على الحكومات العربية المعتدلة قبل غير المعتدلة.

يجب أن يتحرك الجميع وفق رؤية استراتيجية شاملة وأن يجلسوا مع بعضهم بعضاً لوضع تفاصيل تلك الخطة الاستراتيجية، وأن نكف جميعاً عن سياسة العمل الأحادي أو ردود الفعل العفوية غير المدروسة، أو السير بلا خطة ولا رؤية كالعميان فنصل إلى ما تريده أمريكا وإسرائيل لنا، ونكون جميعاً خاسرين.

* * * * *

نكبة ١٩٤٨
يأس المرحلة وتفاؤل التاريخ والمستقبل

ظـن الـبعض عنـدما وقعـت نكبـة ١٩٤٨، ومـن ثـم قيـام دولــة إسـرائيل أن مستقبل الأمـة أصـبح فـي خطـر شـديد، وهـذا صـحيح، ولكنـه لـيس كـل شـيء، فالأمـة لا تمـوت، لأنهـا تحمـل تفـاؤل التـاريخ والمسـتقبل، رغـم يـأس المرحلـة، وفـي الحقيقـة فـإن نضـالات وكفاحـات أبنـاء الأمـة، خاصـة مـن القـوى الشـعبية لـم تنقطـع ضـد الغـزوة الصـهيونية الاسـتعمارية، سـواء قبـل ١٩٤٨، أو بعـد ١٩٤٨ ووصـولاً إلـى نضـالات حمـاس، بـل يمكننـا أن نقـول الآن، أنـه بعـد هـذه النضـالات، اسـتعادت الأمـة زمـام المبـادرة ووضـعت النقـاط علـى الحـروف، وأصـبح مسـتقبل الكيـان الصـهيوني ذاتـه فـي مهـب الـريح بـاعتراف قـادة العـدو نفســه، فالعمليــات الاستشــهادية وإطـــلاق الصـــواريخ علـــى المســـتعمرات الصـــهيونية، لـيس فقـط يثيـر الرعـب فـي سـكان إسـرائيل، ولكنــه يضـــرب المسـتقبل الإسـرائيلي فـي مقتـل ويجعـل مـن اسـتمرار إسـرائيل أمـر مسـتحيل، ذلـك أن الفكـرة الصـهيونية قامـت أساسـاً علـى إيجـاد مكـان آمـن لليهـودي، فـإذا بهـذا المكـان الآمـن يصـبح الأقـل أمانـاً بالنسـبة لليهـودي، وهـذا نسـف للفكـرة الصـهيونية من أساسها.

فـي ذكـرى النكبـة يجـب أن نضـع النقـاط علـى الحـروف، يجـب أن نـدرك أن فكـرة التفـاوض مـع الكيـان الصـهيوني فكـرة عقيمـة، وأن الكفـاح المسلح وحـده هـو الطريـق للانتصـار وأن ذلـك يرجـع إلـى طبيعـة المجتمـع الصـهيوني، وإلـى طبيعـة الصـراع ذاتـه، وإلـى المـنهج الصـحيح لفهـم معـادلات الصـراع، وهـذا مـا سوف نتناوله في هذا البحث.

منهج لفهم الصراع:

إن حـديثنا عـن الصـراع العربـي الإسـرائيلي علـى أرض فلسـطين إنمـا هـو

حديث عن مستقبل كل الأمة الإسلامية وبالتالي مستقبل العالم. ذلك أن الصراع الذي جرى على أرض فلسطين ليس إلا جزءا من تاريخ وجغرافيا العالم الإسلامي.

إن ذلك الصراع يمثل بشكل شبه كامل جدل العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فضلا عن التاريخية. بل ويمثل صراع القوى الكونية في تلك اللحظة من عمر التاريخ.

وإن فهمنا لطبيعة الصراع وتحليلنا للعوامل السابقة يقودنا إلى نتائج في غاية الخطورة والحسم.

مدخل تاريخي:

يظلل وجه التاريخ دوما ذلك الصراع المستمر والذي لم يتوقف لحظة بين القوى الربانية من جانب والقوى الشيطانية من جانب آخر. بما تملكه كل قوة من خصائص خاصة بها وأدوات وأساليب في الصراع خاصة بها أيضا ولكن ضمن سنن الله سبحانه وتعالى التي لا تستطيع أي قوة منها أن تتجاوزها.

فالقوى الربانية قوة الجماهير المسلمة بقيادة الطليعة المؤمنة وهي قوى تعمل على:

- ربط مصير الإنسانية بأيدي كل الجماهير. أي أنها جماهيرية تعمل مع وبالجماهير.

- تحرير البشر كافة من الخوف والجهل والاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي والتخلف القبلي.

- قوى غير سلطوية بمعنى أنه لا إكراه لديها في أي شيء بل هي تعتمد في التفاف الجماهير حولها على تحرير تلك الجماهير من الاستبداد السياسي والتخلف

القبلي والاجتماعي والظلم الاقتصادي ثم تترك للجماهير حقها في اختيار قناعاتها الدينية والسياسية والاجتماعية. فإذا بالجماهير تختار الإسلام لأن هذا يوافق فطرتها ولأن تصميم الكون والحياة والعقل البشري يقود إلى هذا تماما.

- قوى تعمل على إزالة كل أشكال التسلط من على وجه الأرض لتحرير كافة البشر (مفهوم الجهاد الإسلامي).

والقوى الشيطانية قوى غير جماهيرية. تعزل الجماهير باستمرار عن الوعي والعلم والمشاركة في بناء حياتها بل تمارس عليها استبدادا سياسيا بمعنى أنها تصادر حرياتها وحقها في الاختيار فهي تفكر لها. ثم هي تربطها بالقيود القبلية والاجتماعية ولا تترك لها فرصة للاختيار الحر وتقمعها اقتصاديا بمعنى أنها لا تلبي لها حاجاتها الاقتصادية المشروعة.

فهي في النهاية أن تمارس فئة من البشر التسلط والتحكم في الجماهير مستخدمة في ذلك إعلامها وشرطتها وأجهزتها القمعية المختلفة.

وبالتالي فإن أي نجاح في انتزاع حق من حقوق الجماهير في الحرية السياسية ورفع المعاناة الاقتصادية وتسليح الجماهير بالوعي هو في النهاية لصالح القوى الربانية. ضد القوى الشيطانية والعكس دائما صحيح.

وهكذا أصبح شكل الصراع في تلك الحقبة هو صراع بين القوى الشيطانية ممثلة في الحركة الصهيونية بدعم كامل من الغرب الصليبي (أمريكا وأوروبا).

وذلك في مواجهة القوى الربانية التي تمثلها جماهير مؤمنة بقيادة طليعة واعية مع ملاحظة وجود حاجز قوي يمنع الطليعة من أداء دورها وهي أنظمة الحكم التي لا تكتفي بمجرد منع الطليعة من أداء دورها بل تطاردها وتنكل بها.

وبذلك يكون هذا الفهم مدخلا لفهم طبيعة الصراع في المنطقة.

يأخذ الصراع الإسلامي الصهيوني شكله الخاص عبر مستويين:

المستوى الأول:

يمثل تناقضا جوهريا بين الطليعة المؤمنة وجماهيرها وبين رأس الحربة الشيطانية إسرائيل.

المستوى الثاني:

هو التناقض الثانوي بين الأنظمة العربية وبين إسرائيل.

وينبغي علينا الآن أن نفهم شروط وظروف كل من المستويين.

ولنبدأ بالمستوى الثاني:

١ - التناقض بين الأنظمة العربية وبين إسرائيل ليس تناقضا جوهريا وبالتالي فإن ذلك التناقض يمكن أن يحل عبر التفاوض وبذلك يمكننا أن نقول: إن التفاوض سمة أساسية من سمات الصراع بين الأنظمة العربية وإسرائيل.

٢ - إن تلك الأنظمة بما أنها لا تملك تناقضا جوهريا مع الكيان الصهيوني فإنها لن تواصل القتال ضده حتى النهاية، ولكنها في إدارة الصراع مع العدو الصهيوني تحاول أن تكسب مجرد أوراق تساوم بها من ناحية ومن ناحية أخرى تسحب البساط من تحت أقدام الجماهير المؤمنة باعتبارها يمكن أن تكون نائبا عنها. وهكذا فإنها أنظمة مساومة تمتلك هامشا من المصالح يتطابق مع وجود إسرائيل وهامشا آخر تشكل إسرائيل خطرا عليها فيه.

٣ - إن تلك القوى مهما كان شكلها ستسقط في النهاية في الحقبة الإسرائيلية لأنها لا تملك مبررا أيديولوجيا. للاستمرار حتى النهاية.

٤ - إن تلك القوى والأنظمة تحاول استثمار حركات المد الجماهيري ضد إسرائيل لصالح تحسين ظروف التفاوض ليس إلا. بل وعلى استعداد أن تبيع دم الشهداء مقابل ثمن بخس.

٥ - إن تلك القوى ليست على استعداد لترك الجماهير لممارسة حقها المشروع في مقاومة الغزوة الصهيونية لأن هذا خطر عليها

خصائص وشروط المستوى الأول:

١ - التناقض الجوهري بين الجماهير المسلمة وبين إسرائيل يستمد أساسا من وعي تلك الجماهير أن إسرائيل ليست إلا آخر أشكال الصراع بين القوى الإلهية والقوى الشيطانية وأنها في هذه المرة تستهدف قلب الأمة المسلمة وعقلها معا وبالتالي فإنه صراع حضاري في جوهره وصراع فناء، فإما أن نكون وإما ألا نكون، وهكذا فإن الجماهير المؤمنة عاشت شعار (إن قضية فلسطين هي القضية المركزية للأمة الإسلامية). (فكل نظام يريد أن يقوم لا بد أن يدخل من بوابة هذه القضية وكل نظام يسقط يسقط أيضا من هذه البوابة)...

٢ - أن الجماهير المؤمنة بما أنها وعت شكل وحقيقة الصراع لا تملك أن تختار إلا طريقا واحدا وهو حرب التحرير الشعبية الإسلامية طويلة المدى وإعلان الجهاد المقدس.

٣ - أن الجماهير المؤمنة ترفض تماما طريق المساومات والتفاوض وخلافه بما أنها فهمت حقيقة الصراع.

٤ - أن الجماهير المؤمنة يجب أن تعرف شروط وظروف عملها في إطار الهجمة الغربية الشرسة وفي إطار الزمان والمكان وعليها أن تدرس طبيعة التناقضات الموجودة في الساحة وتستفيد منها، وعليها أن تفرز حلفاءها وأعداءها بوضوح.

وانطلاقا مما تقدم ينبغي علينا أن نضع تحت الدراسة بعض الوقائع التاريخية الآتية التي توضح دور الجماهير المسلمة ودور الأنظمة كمحورين للصراع ضد إسرائيل ومراحل ذلك الصراع:

- ظهرت إسرائيل على يد اليهود وبدعم من الإنجليز البروتستانت (وعد بلفور).

- اعترف بها بمجرد إعلانها في ٤٨ أمريكا الصليبية وروسيا الشيوعية بل والأحزاب الشيوعية في العالم العربي والإسلامي.

- أيدها المسيحيون وبخاصة المارونيون في لبنان بمجرد قيامها بل دعوا إلى ذلك دعوات صريحة "يقول المطران مبارك في كتاب صدر سنة ١٩٤٨: إذا لم تقم لليهود دولة في فلسطين سوف يتعذر أن نعيش مع العرب في صعيد واحد ولم يكتف هذا المبارك بهذه الركلة فقط، ولكنه طاف بكل كنائس العالم وأمريكا ليلتمس من دولها في هيئة الأمم إنشاء وطن مسيحي في لبنان ليتعاون مع الوطن اليهودي في تأديب العرب.

- قامت الجماهير المسلمة بانتفاضات دموية قبل مطلع الثلاثينيات كانت الأولى سنة ١٩٢٠ والثانية ١٩٢٣ والثالثة سنة ١٩٢٩ وفهمت الجماهير المسلمة بحسها العميق أن الصراع ضد طرفي الهجمة بريطانيا والصهاينة مع ملاحظة أن التنظيمات الداعية إلى مهاجمة بريطانيا كانت جمعية الشباب المسلم في حيفا ذات الصلة الوثيقة بالشيخ القسام.

وعلى الوجه الآخر تظهر الزعامات المحلية والعربية غارقة حتى أذنيها في الوسطية والتفاوض. بل وتقف كل القوى غير الإسلامية مواقف مشبوهة "يلاحظ موقف الشيوعيين الفلسطينيين من الانتفاضات".

- انتفاضة سنة ١٩٣٦ في حين كانت الجماهير تقدم دمها على ساحة الجهاد، وكانوا هم خارج الساحة يقودون المعركة وبعد ستة أشهر من الجوع والقهر، جاء الزعماء العرب في الممالك العربية (مصر والأردن والسعودية والعراق) ليأمروا الجماهير المسلمة التي تنزف دمها بإيقاف المعركة الأولى لأن الصديقة بريطانيا ستفهم مطالبنا في جلسات التفاوض القادمة.

- وعت الجماهير المسلمة في تلك اللحظات كيف أن الزعماء ليسوا على استعداد للذهاب حتى النهاية في النضال خوفا على مصالحهم فطرح عز الدين القسام نظريته الفذة في العمل التنظيمي الجماهيري الذي يعتمد على الجماهير الغفيرة المسلمة (عمال - فلاحين - بائعي جاز) ويتخذ الجهاد الإسلامي المسلح طريقا وحيدا. ولأن جماهير الأمة المسلمة هي صاحبة المصلحة في التصدي للغزوة الصهيونية ولأنها هي القادرة حتى النهاية فإن طريق القسام مازال يتحرك حتى اليوم عبر ذلك التاريخ. مع ملاحظة أن القوى السياسية خارج الإطار الإسلامي تتحرك لتحجيم دور الجماهير ومنعها من أداء رسالتها.

وقد تم ذلك عبر عدة مراحل:

(أ) المرحلة الليبرالية: الزعماء العرب يطرحون الليبرالية كشعار لهم ويمنعون الجماهير من الوصول إلى مراكز السلطة بالقمع والخداع مع ظهور تفاوت طبقي ضخم ولقد خاضت تلك الأنظمة مكرهة تحت ضغط الجماهير معركة سنة ١٩٤٨ ولكن ما كان أسهل على العصابات الصهيونية أن تضرب تلك الأنظمة ضربات قاتلة ليس لأنها أقوى من جيوشها ولكن لأن قادة تلك الجيوش بما يمثلونه من طبقات وفئات اجتماعية ليس بينهم وبين إسرائيل تناقضا جوهريا فضلا عن أن ما يمثله هؤلاء من الليبرالية ليس إلا جزءا من الحضارة الغربية فكيف يستطيع أن يتحدى مثله الأعلى (لا شك أن إسرائيل تمثيل أكثر جودة للحضارة ولاشك أن الأنظمة العربية تمثيل متخلف للحضارة الغربية).

كما أن تلك الأنظمة قد دخلت الحرب كتنفيس لضغط الجماهير المسلمة عليها فهي ليست جادة في دخول الحرب.

وعلى الطرف المقابل تقوم الجماهير المسلمة والطلائع الواعية بالقتال البطولي

مكملة طريق القسام (قام الإخوان المسلمون بقيادة البطل أحمد عبد العزيز بالقتال البطولي الرائع ضد اليهود وإلحاق قدر كبير من الخسائر بهم وكذلك المجاهد البطل فوزي القاوقجي وعبد القادر الحسيني. إلا أن الأنظمة العربية تمنع الجيوش الجماهيرية المسلمة من إكمال انتصارها فتوقع هذه الأنظمة اتفاقية الهدنة).

وهكذا تنتهي حرب ١٩٤٨ لتدرك الجماهير المؤمنة أن عليها أن تناضل بشكل جذري ضد تلك الأنظمة العميلة التي حالت دون انتصارها وأدت بخياناتها إلى ضياع قلب الأمة الإسلامية وهكذا فإن حرب ٤٨ أدت إلى:

١ - انتهاء حقبة الليبرالية العربية وإفلاس تلك الأنظمة وعدم قدرتها على الاستمرار فجاءت الخمسينيات لتحمل لنا أنظمة العسكر.

٢ - أن التناقض الرئيسي هو بين الجماهير المسلمة وبين إسرائيل.

٣ - أنه ليس ثمة تناقض رئيسي بين الأنظمة العربية وبين إسرائيل.

مرحلة حرب ١٩٦٧:

لم تنقطع نضالات الجماهير المسلمة داخل الأرض المحتلة وخارجها ضد إسرائيل ولكن نلاحظ أن فترة ٤٩ - ٦٧ كانت تحمل بوجه خاص محاولة لسحق الكيان الإسلامي للأمة على كل المستويات حتى البسيطة منها، (اغتيال وشنق وسجن العديد من قيادات الحركة الإسلامية) مع تصاعد مد علماني قومي اشتراكي على المستوى الثقافي والفني والمؤسسي. ويأتي عام ٦٧ لتتكرر نفس المأساة فالقيادة (هذه المرة الاشتراكية القومية) تترك جيوشها لتسحقها إسرائيل سحقا دون أن تطلق رصاصة تحت ستار مهزلة انسحاب مازالت تحمل الكثير من الأسرار غير المفهومة على المستوى التفصيلي، ولا داعي لأن نكرر أن نفس تلك الأنظمة بما تمثله من قوى وأيديولوجية غير قادرة على مواجهة مثلها الأعلى (الحضارة الغربية) التي هي جزء ممسوخ ومشوه لها كما أنها لا تملك في الأساس تناقضا مع الكيان الصهيوني (يلاحظ بعض الطروح الغربية في تلك الفترة عن وحدة البروليتاريا العربية

والإسرائيلية وغيرها من الترهات التي صدعنا بها السادة اليساريون في تلك الحقبة).

وهكذا يأتي عام ١٩٦٧ لينهي رسميا حقبة الاشتراكية وإن كانت بعض تلك الأنظمة قد عاشت بعدها إلا أنها عاشت في الوقت الضائع من عمرها مهما طال ذلك الوقت. وذلك بسبب عدم قدرة الحركة الإسلامية على التقدم والقيام باستلام زمام الأمة لأسباب خاصة.

وهكذا فإن الهجمة الصليبية الصهيونية منذ عام ١٩٦٧ قد استطاعت أن تحل تناقضاتها مع الأنظمة العربية لصالحها وما عليها إلا أن تتقدم لتصبغ كل شيء بالصبغة الإسرائيلية ولتفتح عصر الحقبة الإسرائيلية وخصوصا أن الحركة الجماهيرية المسلمة قد تم ضربها ضربات موجعة وبدا أن تلك الحركة لم تعد قادرة على التصدي للهجمة الصهيونية داخل كيان الأمة وعقلها ووجدانها ولكن هيهات.

تبدو ملامح تلك الفترة في:

١ - إقامة أنظمة عميلة مباشرة للقوى الإسرائيلية بمعنى أنها تتلقى أوامرها مباشرة من شارون وبيجين.

وهذه الأنظمة أنظمة تلفيقية لا تملك أيديولوجية محددة فهي تارة ديموقراطية اشتراكية أو قومية أو....

٢ - أن تلك الأنظمة لا تملك أي تناقض مع إسرائيل بل إن تناقضها الأساسي مع الجماهير.

٣ - يتم تزييف الثقافة والفن بشكل كامل لصالح إسرائيل (رفع كل ما يمت للتاريخ الحقيقي بصلة من المدارس - إغراق الأسواق بالأفلام والكتب والسلع ذات التوجه الإسرائيلي - منع خطباء المساجد من ترديد آيات القرآن التي تسب بني إسرائيل).. إلخ.

ملاحظة هامة جدا:

* ظهرت كثير من البطولات الإسلامية في سيناء والجولان بدوافع شخصية إسلامية بحتة بل وقام عرب سيناء المسلمون بكثير من العمليات العسكرية ضد إسرائيل ولم يفصح النظام عنها تمهيدا للحقبة الإسرائيلية.

* برغم الضعف الشديد للحركة الإسلامية في تلك الحقبة إلا أن الحركة الإسلامية قد تصدت لتلك الحقبة بشكل قوي جدا أسهم في تأخير الحقبة الإسرائيلية وتقليل كثافتها بشكل كبير.

* قلنا: إن الأنظمة العربية لم تعد تملك تناقضا مع إسرائيل والهجمة الاستعمارية، ووقعت في شرك العمالة المباشرة لإسرائيل وسحبت بنادق جيوشها من اتجاه إسرائيل إلى اتجاه قلوب الجماهير المسلمة وإن وظيفتها في تلك المرحلة ستكون ضرب الجماهير المسلمة بلا هوادة وتغييبها وتزييف وعيها إلا أن سقوط تلك الأنظمة سيكون متفاوتا بحسب الظروف الذاتية والموضوعية لكل منها. وقلنا: إن الجماهير المسلمة هي وحدها التي تملك تناقضا جوهريا وبالتالي تملك القدرة على التصدي لإسرائيل. وظهر مما سبق وطبقا لهذا التحليل أن الأنظمة العربية لم تخض معركة واحدة مع إسرائيل وأنها كانت تهزم قبل أن تدخل المعركة وأن القوة الوحيدة التي استطاعت أن تحقق انتصارات تكتيكية ضد إسرائيل هي قوة الجماهير المسلمة وأنها قادرة على الانتصار النهائي ما لم تحل الأنظمة العربية دون ذلك - حزب الله - حماس - الجهاد الفلسطيني.

* * * * *

ـبيعة الكيان الصهيوني

لكي نستطيع أن نواجه التحدي الصهيوني الذي يمثل رأس الحربة الشيطانية بتحد مكافئ له ينبغي لنا أن ندرس طبيعة هذا الكيان من حيث نشأته ومن حيث طبيعته ومن حيث توجهاته.

المجتمع التوراتي:

تستطيع أن تقرر بكل حزم أن المجتمع الصهيوني هو مجتمع توراتي تماما من حيث نشأته، من حيث طبيعته ومن حيث توجيهاته ولا داعي أن نكرر أن الصهاينة يلغون النصوص ويحرفونها ليؤيدوا وجهة نظرهم فهذا ليس من موضوع بحثنا.

ومسألة توراتية المجتمع الصهيوني واضحة تمام الوضوح في كل قواه السياسية وكافة الاتجاهات من يمين ويسار وحتى ملحدين.

"نشأ هذا البلد تنفيذا لوعد العرب ذاته ولهذا لا يصح أن نسأله إيضاحا عن شرعية هذا الوجود".

جولدا مائير في تصريح لها لـ (لوموند) الفرنسية بتاريخ ١٥ مايو عام ١٩٧١ "لاحظ أن جولدا مائير رئيسة حزب العمل الإسرائيلي":

"لقد وعدنا هذه الأرض ولنا الحق فيها".

بيجين في أوسلو ونشرته صحيفة دافار عدد ١٤ ديسمبر سنة ١٩٧٨ وبيجين من كتلة ليكود:

(إذا كنا نملك التوراة وإذا كنا نعتبر أنفسنا شعب التوراة فينبغي أن نمتلك أيضا بلاد التوراة، بلاد القضاة، أرض أورشليم وحيرون وأريحا وأماكن أخرى) تصريح موشى ديان لجيروزاليم بوست في ١٠ أغسطس سنة ١٩٦٧.

وهكذا يتردد دائما على ألسنة الزعماء الصهاينة نفس الشعارات سواء كانوا من اليمين أم من اليسار، أعضاء في حزب العمل أو في كتلة ليكود ناطقين باسم الجيش

أو باسم الحاخامية. التوراة ترسم كل شيء في إسرائيل.

ترسم ثقافة الأطفال في المدارس بناء على توجيه بن جوريون فإن الدين اليهودي في إسرائيل يدرس كمادة إجبارية في الدراسة.

الزواج في إسرائيل زواج ديني ولا يوجد زواج مدني كما أنه لا يوجد في دولة إسرائيل دستور لأن التوراة هي القانون الأساسي للدولة.

كما أن التوراة ذاتها تعرف المواطن وتحدد من هو الإسرائيلي وهي ذاتها تحدد حدود الدولة بل وتبرر الحرب والإرهاب.

* علينا ألا ننسى أجزاء التوراة التي تبرر هذه الحرب. فنحن نؤدي واجبنا الديني بتواجدنا هنا فالنص المكتوب يفرض علينا واجبا دينيا وهو أن نغزو أرض العدو. صحيفة هاريتس ٥ - ٧ - ١٩٨٢. على لسان حاخام برتبة نقيب.

والمذابح ابتداء من دير ياسين وحتى "صابرا وشاتيلا" تبررها التوراة.

"وحرقوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل ومسن وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف" سفر يسوع الإصحاح ٦ الآية ٢١.

وإن تصريح شعار دولة علمانية ديمقراطية في إسرائيل مجرد إلهاء ولهو. لأننا رأينا كيف أن الكيان الصهيوني، كيان توراتي حتى النخاع وبالتالي فإن من يطرح هذا الشعار كمن يدفن رأسه في الرمال أو يريد مواجهة مجتمع بأسلوب لابد أن يفشل معه وليس مكافئا له وهو يسحب سلاح الجماهير المسلمة منها ولا يسحب سلاح الصهاينة منهم وبالتالي فهو طرح خائن ومرفوض فضلا عن أن هذا الشعار مرفوض تماما في إسرائيل فإسرائيل في نشأتها وطبيعتها لا تنفصل عن التوراة وإلا سقطت وبالتالي فإننا حين نطرح أن الصراع يجب أن يكون قرآنيا فإننا بالتالي نعطي تحديا مكافئا فضلا عن أن أمتنا لا تتحرك إلا من خلال قرآنها. وبالتالي فإنها حضارة توراتية بكل ما تملكه من إرهاب وعنصرية أمام حضارة قرآنية بكل ما تملكه من حرية وإخاء والصراع صراع حضاري.

المجتمع الصهيوني مجتمع عنصري:

يدعي الصهاينة أن كل يهود العالم اليوم من ذرية جنس واحد وكتلة واحدة بأمر الرب.

وهذه العنصرية تقوم أيضا على أساس توراتي وتستمد وجودها من عناصر التوراة التي حرفها اليهود، وهكذا فإن اليهود هم شعب الله المختار، وبقية العالم عبيد لهم. وهي فكرة مرفوضة من علم الأنثربولوجي وعلم الآثار ومرفوضة أيضا تاريخيا. ولكن يجب علينا كجماهير مسلمة. أن نطرح في مواجهتها شعار الأممية الإسلامية بمعنى أن نطرح شعار الظاهرة الثقافية في مواجهة الظاهرة العنصرية والظاهرة الرسالية المتفتحة على كل المستضعفين في مواجهة القومية الدينية الضيقة الأفق.

والإسلام يرفض فكرة العنصرية والعرقية ويطرح المسلمون أن كل مستضعفي العالم من مسلمين وغير مسلمين في خندق واحد أمام كل القوى الشيطانية حتى لو كان فيهم مستكبرون يتسمون بأسماء إسلامية. إن جماهير المسلمين تطرح رسالة يقوم بها الإسلاميون التي يمكن أن ينتسب إليهم أي شخص بصرف النظر عن جنسه ولونه ويتحالف مع الإسلاميين كل المستضعفين ويدافع هذا المعسكر عن كل المستضعفين حتى لو كانوا يهودا وهذا يسقط شعار القومية العربية في مواجهة القومية اليهودية.

الأسطورة التاريخية:

ووفقا لنصوص التوراة فإن الصهاينة يحاولون تلفيق التاريخ في المنطقة بشكل يجعل لليهود حقا تاريخيا في فلسطين. وهكذا فإن اليهود يستعملون كل طاقتهم التاريخية في حشد قواهم ضد أمتنا وحضارتنا وبالتالي فإن أي طرح يجابه هذا التحدي يكون غير متكافئ ما لم يحشد طاقتنا التاريخية والحضارية أمامهم وهكذا فإن على الجماهير المسلمة أن تتسلح بالوعي

التاريخي ابتداء من خيبر واقتحام القدس وتحريرها على يد عمر بن الخطاب لتستطيع مواجهة ذلك التحدي الحضاري.

أسطورة الصحراء الخالية:

روج الصهاينة لأسطورة أن أرض فلسطين شبه صحراوية وأنها لا زرع فيها ولا ضرع وعلى من شاء أن يأتي للحصول على ما يشاء من الأرض، هذا من ناحية ومن ناحية فإنهم يروجون للمعجزة الإسرائيلية الاقتصادية في أرض فلسطين.

وعلينا كجماهير مسلمة أن نواجه ذلك التحدي بما يلي:

- دراسة البيئة الاقتصادية للمنطقة وإثبات أنها لم تكن يوما ما صحراء.

- إثبات تآمر الرجعية العربية والأسر الإقطاعية مع الصهاينة في محاولة نهب الأراضي التي كانت مزروعة ولم تكن صحراء.

- التشبث بشدة بالبقاء بالأرض المحتلة ودعم صمود الأهالي داخل الأرض المحتلة، بل ودعمهم اقتصاديا لإقامة كيان اقتصادي عربي داخل الأرض المحتلة.

الكيان الصهيوني كيان استعماري:

لا بد أن نقرر هنا أن الكيان الصهيوني هو جزء من القوى الشيطانية التي تستهدف أمتنا بحضارتها ومصالحها ووحدتها وطبيعتها بوجود رأس الحربة الشيطانية.

يقول هرتزل في كتابه (الكتلة اليهودية ستكون جزءا من حائط يحمي أوروبا من آسيا وستكون بمثابة حارس يقف في الطليعة ضد البربرية): لاحظ أن آسيا هي القارة المسلمة وأن كلمة البربرية تعني المسلمين.

وهكذا فقد حدد هرتزل دور الصهيونية كجزء من القوى الاستعمارية

وكحليف أساسي لها وأنه سوف يؤدي دوره في ضرب حركة الجماهير المسلمة والوقوف كحائط أمام امتدادها.

والكيان الصهيوني كيان استعماري من نوع استيطاني وهكذا فإنه يعتمد على الإرهاب والإفناء في محاولة التفريغ للأرض من سكانها والحلول محلها وهكذا فإن كل يهودي يقيم في أرض إسرائيل فهو عدو لي مهما كان انتماؤه السياسي.

وإسرائيل تعتمد سياسة التوسع وبالتالي فهي كيان استعماري باستمرار استعماري بطبيعته، واستعماري بتركيباته، واستعماري بارتباطاته الاستعمارية وبدوره في المنطقة، وهكذا فإن مقولة التحالف بين البروليتاريا العربية والإسرائيلية التي يروج لها اليسار هي مقولة خائنة ومرفوضة، وعلينا أن نسقطها لأن الكيان الصهيوني كله كيان استعماري بكل انتماءاته وطبقاته وهكذا فإن الطرح المكافئ لهذا يتمثل في:

- ضرب كل المصالح الاستعمارية وليس ضرب اليهود وحدهم.

- اعتبار كل يهودي على أرض فلسطين مستباح الدم.

- إن كل أساليب التفاوض والمهادنة إلهاء وتضييع للجماهير وصرفها عن دورها الحقيقي.

- اعتبار حرب التحرير الشعبية الإسلامية هي الحل الوحيد.

الكيان الصهيوني كيان عسكري

تنفق إسرائيل أكثر من ٥٠ ٪ من ميزانيتها على الجيش وبذلك يمكن اعتبار الكيان الصهيوني كيانا توراتيا استعماريا عسكريا وهذا يدعونا لأن نواجهه بأيديولوجية إسلامية وحرب تحرير شعبية وصراع حضاري متكافئ. ودراستنا لطبيعة المؤسسة الإسرائيلية توضح بجلاء عبث الدخول

مع الكيان الصهيوني في حرب جيوش ولكن ترك الجماهير المسلمة لتواجه الكيان الصهيوني بحرب طويلة المدى.

الكيان الصهيوني كيان فاشي:

والكيان الصهيوني بتركيبته وطبيعته وتوجهاته، كيان فاشي فالديمقراطية الإسرائيلية ديمقراطية بالنسبة لليهود وليست ديموقراطية بالنسبة لغير اليهود والتحدي المكافئ لهذا هو النضال المستمر لجماهير المسلمين من أجل انتزاع حريتها داخل بلدانها ومزيد من إبراز الوجه الحقيقي للإسلام كرسالة تؤمن بحرية الجماهير ومساواتهم.

بعض الملاحظات الهامة:

قضية العداء للسامية:

- معاداة اليهودية ترجع إلى أصل مسيحي وهي من مخلفات الفكر القسطنطيني الذي ورث تقاليد كهنة المعابد اليهودية وتقاليد الإمبراطورية الرومانية، فبعد أن كانت تلك الكنيسة مستضعفة أصبحت تمارس الاضطهاد بمجرد استيلائها على السلطة وراحت تصب غضبها على كل الأديان الأخرى سواء كانت وثنية أم يهودية ووجدت في اليهودية منافسا خطيرا ينبغي القضاء عليه، واتهمت اليهود بأنهم عندما رفضوا الاعتراف بأن يسوع هو المسيح فقد أصبحوا في عداد (قتلة الرب) - من كتاب برنا ولازار (اللاسامية) نشر عام ١٨٩٤.

- معادة اليهودية (اللاسامية) فكرة تخدم الصهيونية حيث إن أعداء السامية يريدون التخلص من اليهود ولو على حساب إقامة دولة لهم في أراضي الغير.

- إنه لم يثبت في تاريخنا أي اضطهاد لليهود على يد المسلمين.

- إننا كجماهير مسلمة ترفض العداء للسامية ونعلن تضامننا مع كل مضطهد. وإننا نرفض فكرة اضطهاد اليهود من أساسها، لأن هذا موقف يأباه ديننا الحنيف ولكننا بنفس القدر نرفض أن ندفع ثمن اضطهاد غيرنا لليهود.

* * *

إسرائيل والاستعمار الغربي:

علينا أن نفهم أن هناك صراعا جوهريا بين القوى الإسلامية والقوى الشيطانية وأن القوى الشيطانية تمثل في العالم:

- استعمارا غربيا، صليبيا

- كيانا صهيونيا.

- وأن هناك تناقضا أيضا بين تلك القوى وبعضها، وبالتالي فعلينا ألا نقع في وهم أن إحدى القوى يعمل لحساب الأخرى، ولكن علينا أن ندرك أن هناك مصالح مشتركة تجمع بينها.

أهمية إسرائيل للاستعمار الغربي:

١ - أن الغرب الأوروبي يعرف خطورة مد الجماهير المسلمة عليه وبالتالي فإسرائيل تبرز باستمرار أنها تعتبر بالنسبة لأوروبا الحارس ضد البربرية (البربرية تعني المسلمين).

٢ - تقوم إسرائيل بمهمة الشرطي في الشرق الأوسط وذلك للحفاظ على المصالح الغربية البترولية التي لم يعد الغرب - الولايات المتحدة - بقادر على أداء هذا الدور.

٣ - تصل إلى مراكز الأبحاث الغربية ووزارات الدفاع معلومات متصلة من إسرائيل بشأن أنواع الأداء لمختلف أنواع الأسلحة التي لم

تستخدم بعد، وهكذا يستطيع الجيش الأمريكي مثلا تجربة أسلحته المتقدمة في جيش إسرائيل، وهكذا فإن مقولة اليمين بأننا نستطيع إقناع أمريكا أو المجتمع الأمريكي بحقنا المشروع هو قول من قبيل التضليل، فقضية أهمية إسرائيل الاستراتيجية بالنسبة للاستعمار الغربي قضية محسومة.

أن هذا يدفعنا لإسقاط مقولة: إن أوراق اللعبة بنسبة ٩٩.٥ ٪ أو أي نسبة مئوية أخرى بيد أمريكا وعلينا أن ندرك أن علينا أن نعتمد على أنفسنا في مواجهة إسرائيل ومعرفة أن إسرائيل ليست وحدها في المعركة ولكن الغرب، كل الغرب ضدنا ووفقا لمصالحه وهكذا فإن دراسة بنيان وطبيعة وتوجهات الكيان الصهيوني لمواجهة التحدي بتحدٍ مكافئ، أبرز:

- أن الحرب حرب حضارة ضد حضارة.
- حرب انتماء.
- أنه ما لم نتسلح بأيديولوجيتنا الإسلامية فلا فائدة.
- أن حرب التحرير الشعبية الإسلامية طويلة المدى هي الحل الوحيد.
- أن الحروب النظامية بالنسبة لنا خسارة مؤكدة.

وهكذا فإن التحدي يبرز شعار:

(أيديولوجية إسلامية وحرب تحرير شعبية)..

وهي نفس المقولة التي يفرزها إسلامنا وقيمنا وواجبنا تجاه ربنا فليس هذا هو واجبنا تجاه الله فحسب ولكن جزء من طبيعة رسالتنا كما أنه هو التحدي الوحيد المكافئ للتحدي الصهيوني.

* * * * *

هدم الأقصى عقيدة صهيونية

الحديث الملفق عن اكتشافات صهيونية لآثار تتصل بالتاريخ اليهودي تحت المسجد الأقصى ليس إلا مقدمة لتنفيذ الخطة الصهيونية بهدم المسجد الأقصى وهكذا فإن تهديد المتطرفين اليهود باقتحام المسجد - حديث يجب ألا يمرّ بهدوء، ويجب أنْ يُؤخذ بجديّة؛ ذلك أنّ التخطيط لهدم المسجد الأقصى ليس وليد هذه اللّحظة؛ بل هو عمليّة قديمة جديدة تتكرّر وسوف تتكرّر؛ لأنّها جزءٌ لا يتجزّأ من العقيدة الصّهيونيّة، وهي عقيدة لا تخصّ اليهود الصّهاينة وحدهم؛ بل تخصّ قطاعًا كبيرًا من المسيحيّة البروتستانتية (المسيحيّة الصّهيونيّة)؛ ذلك أنّ تلك العقيدة المزعومة يؤمن أتباعها أنّ من شروط عودة المسيح ووقوع معركة (هرمجدون) للقضاء على الأشرار (المسلمين تحديدًا، واليهود أيضا)، وبداية ما يسمّى الألفية السعيدة - إنّ من شروط ذلك هدم المسجد الأقصى، وإقامة هيكل سليمان في مكانه؛ حيث يعتقد هؤلاء أنّ هيكل سليمان يقع تحت المسجد الأقصى، وهكذا فنحن أمام قوى إسرائيليّة ويهوديّة صهيونيّة، ومسيحيّة بروتستانتيّة صهيونيّة، والأخيرة لها أتباع كثيرون في الدول البروتستانتية، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكيّة، وبريطانيا، واستراليا، وعلى سبيل المثال لا الحصر؛ فإنّ هناك داخل الولايات المتحدة نفوذًا قويًّا لتلك العقيدة، وهناك كنائس تبشر بذلك، وتدعو إليه، وتجمع من رعاياها المال اللازم لتمويل عمليّة هدم المسجد الأقصى، وبناء الهيكل، ودعم إسرائيل سياسيًّا وإعلاميًّا كجزءٍ من تحقيق شروط عودة المسيح المزعومة؛ كما تتمتع هذه الجماعة بنفوذٍ قويّ داخل الحزب الجمهوريّ في الولايات المتحدة، ويتعاطف معها بصورة ضخمة رموز اليمين الأمريكي المحافظ من " ديك تشيني " إلى " دونالد رامسفيلد " إلى الرئيس " بوش " ذاته، وكان الرئيس الأمريكي الأسبق " رونالد ريجان " يؤمن مباشرة بتلك العقيدة المزعومة، كما تمتلك تلك الجماعة قنواتٍ

تلفزيونيّةً وإذاعيّة وصحفًا، ويتبعها عددٌ كبير من القساوسة أمثال "باث روبرتسون " والأب " جراهام " وغيرهما.

وهكذا فنحن أمام تهديد جديّ مهما كان غريبًا ومتطرّفًا لهدم المسجد الأقصى... الأمر الذي يستدعي تحرّكًا شعبيًا وحكوميًا... عربيًا وإسلاميًا.

محاولات هدم المسجد الأقصى بدأت منذ عام ١٩٦٩ م... أي بعد عامين فقط من الاحتلال الإسرائيلي لمدينة القدس؛ مما يؤكّد مدى تغلغل هذه الفكرة في العقل الصهيونيّ المسيحيّ واليهوديّ على حدٍّ سواء، وقد كانت المحاولة الأولى لحرق المسجد الأقصى عن طريق البروتستانتي الأسترالي " مايكل روهان " في ٢١ / ٨ / ١٩٦٩ م، ونلاحظ هنا أنّ ذلك الشخص ليس يهوديًّا ولا إسرائيليًّا؛ بل مسيحيّ بروتستانتيّ أسترالي، وقد تمّ القبض عليه واعترف بالموضوع إلا أنّ المحكمة الإسرائيليّة أصدرت أمرًا بإطلاق سراحه بدعوى أنّه مصابٌ بنوعٍ من الجنون المتقطع، وأنّه أثناء المحاولة كان واقعًا تحت سطوة إحدى نوبات الجنون هذه، وقد تكرّرت المؤامرات لحرق أو هدم المسجد الأقصى بعد ذلك مراتٍ كثيرة، وعلى سبيل المثال لا الحصر: تآمر عدد من أتباع (عُصبة الدّفاع اليهوديّة) عام ١٩٨٠م بقيادة " مائير كاهانا " و " باروخ غرين " وخطّطوا لنسف المسجد الأقصى، وفي عام ١٩٨٢م خطّطت جماعة سريّة صهيونيّة مكوّنة من (٢٧) شخصًا بقيادة " يهودا عتسيون " لنسف المسجد الأقصى، وعددٍ آخرَ من المساجد في القدس المحتلة، وقد أُلقي القبض على هؤلاء وسرعان ما تمّ إطلاق سراحهم، ولا يزال "يهودا عتسيون " حتى اليوم يحرّض علنًا على نسف المسجد الأقصى، وفي عام ١٩٨٩م قامت مجموعة من جماعة (غوش أمونيم) باقتحام المسجد الأقصى، وهذه المحاولات... " محاولات اقتحام المسجد الأقصى " تتمّ سنويًا، وخاصة في الذكرى السنويّة لهدم هيكل سليمان المزعوم، كما قام في نفس الإطار " أرئيل شارون " قبل أنْ يصبح رئيسًا للوزراء بدخول المسجد

الأقصى عام ٢٠٠٠م، وقد قامت الحكومة الإسرائيليّة وقتها بحراسته، بـ(٣٠٠)جندي إسرائيلي، وقد كانت هذه المحاولة سببًا في اندلاع انتفاضة الأقصى الفلسطينيّة.

ونلاحظ هنا أنّ المؤسّسة الرسميّة الإسرائيليّة والتي لم تطلق بعد إشارة البدء في هدم المسجد الأقصى، على أساس أنّ الظروف لم يتمّ إعدادها بعد في إطار حسابات معيّنة؛ إلا أنّ تلك المؤسّسة تطرح حاليا فتح المسجد الأقصى لزيارة اليهود والصلاة فيه لليهود، على غرار ما يحدث في الحرم الإبراهيمي بالخليل... الذي فرض عليه التقسيم الوظيفي؛ فتحول إلى جامع وكنيس معًا... أي تتمّ فيه الصلاة للمسلمين واليهود على حدٍّ سواء كما أنّ المؤسّسة الرسميّة الصّهيونيّة تقوم من وقت لآخر بعمل ضربات، وأنفاق، ومشروعات مشبوهة حول المسجد الأقصى، وتحته بهدف زعزعة أساساته تمهيدًا لهدمه أو سقوطه من تلقاء نفسه، كما أنّ تلك المؤسّسة الرسميّة قد قامت بضمّ القدس رسميًّا بكاملها إلى دولة إسرائيل عقب احتلالها مباشرة، وكثّفت عمليّات الاستيطان الإسرائيلي فيها وحولها وإنشاء مستعمراتٍ، وهدم بيوت الفلسطينيّين فيها، ومضايقتهم، ودفعهم إلى ترك القدس، وتغيير الطبيعة السكانيّة للمدينة، وطمس المعالم الإسلامية والمسيحيّة فيها بهدف تحويلها إلى الطابع اليهودي، وهذا كله في إطار هدم المسجد كمحصّلة ونتيجة ومن ثم بناء الهيكل!!

ويعترف الصهيوني " شاحر زليغر " أنّه يوجد حاليًّا عدد من المنظّمات الإسرائيليّة متفقة فيما بينها على تدمير كل مساجد القدس في أثناء صلاة الجمعة بما فيها المسجد الأقصى، وذلك بهدف تدمير المساجد، وقتل أكبر عدد من المصلّين في نفس الوقت.

وفي الإطار نفسه تأسّست ما يسمى بـ " جماعة أبناء الهيكل " عام ١٩٨٨م، وحصلت على ترخيص رسميّ إسرائيليّ بممارسة نشاطها تحت

مسمى (مؤسّسة العلوم والأبحاث وبناء الهيكل)، وكان مؤسّسها هو " يسرائيل أرييل "، ويقوم أعضاء هذه الجماعة المشبوهة حاليًا بجمع وإعداد المواد اللازمة الخاصّة ببناء الهيكل، وقد أعدّت الجماعة رسمًا تخطيطيًّا للهيكل المزمع إقامته مكان المسجد الأقصى، ويرى هؤلاء ضرورة هدم المسجد الأقصى عاجلا أو آجلا؛ لأنّ هيكل سليمان - حسب زعمهم - يقع تحته مباشرة، ويقول زعيم تلك الجماعة الحاخام " مناحم مكوبر ": " إنّه في كل الأحوال، وتحت أي ظروف سوف يتمّ بناء الهيكل، وسوف يتمّ هدم المسجد الأقصى، وأنّه في الوقت الذي سنحصل فيه على الضّوء الأخضر سيتمّ بناء الهيكل خلال بضعة أشهر فقط باستخدام أحدث الوسائل التكنولوجيّة، وأنّ المساجد الموجودة في تلك المنطقة - بما فيها المسجد الأقصى، وقُبّة الصخرة - هي مجرّد مجموعة من الأحجار يجب إزالتها ".

* * * * *

هل حماس هي السبب في معاناة غزة

المعاناة التي يعيشها أهالي غزة، وهي معاناة شديدة وقاسية وصمود أهل غزة أمام تلك المعاناة هو نوع من التميز الغزاوي والفلسطيني بامتياز، وهو تميز مسجل لأهل فلسطين، فربما لم يعان شعب في العالم تاريخاً وجغرافية مثل هذا الشعب، ومع ذلك فإن الصمود الأسطوري لهذا الشعب هو درس كبير لكل المناضلين والشرفاء في العالم.

معاناة الشعب الفلسطيني - ليست كغيرها - فالزمن الذي عاشاه هذا الشعب تحت نار المعاناة هو زمن كبير ومتصل - أكثر من ستين عاماً حتى الآن. لم تنقطع فيها المذابح والطرد القسري، ونسف البيوت وتدمير المرافق، بل والسجن والقتل والتشريد والتعذيب بصورة لم تحدث لشعب آخر من قبل. وكذا فإن معاناة أهالي غزة في الإطار الفلسطيني هي الأشد قسوة، فضلاً عن التكدس والفقر، فإن الحصار ومنع الدخول والخروج، وتقطيع الأرزاق وانقطاع المياه والكهرباء، لدرجة أن المستشفيات لا تقدر على مواجهة حالات المرض العادية، فضلاً عن الصعبة والمزمنة، والمرضى الذين يُمنعون من الخروج من غزة للعلاج في بلاد الله الواسعة، فيموتون بسبب نقص في عقار أو قصور في أجهزة المستشفيات، أو تعطل تلك الأجهزة بسبب استمرار قطع الكهرباء المتكرر أو تغير في نوعية الجهد الكهربائي الذي يسبب أعطالاً في الكثير من الأجهزة، أو غيرها من الأسباب، وتصل الأمور أحياناً إلى منع حتى المساعدات الإنسانية القادمة من هيئات الإغاثة أو من الشعوب المجاورة، إنها معاناة بلا نظير، منع الغذاء والماء، تدهور المرافق وخاصة المجاري، مما يهدد بتفشي الأمراض، كل هذا وغيره بالإضافة إلى القتل اليومي المستمر والاعتقالات المستمرة، وقد تزايدت معدلات تلك الجرائم " القتل بالطائرات والمدفعية والقتل بالجوع والمرض، واعتقال الأهالي باستمرار " تزايدت معدلات تلك الجرائم في الآونة الأخيرة

بصورة غير مسبوقة.

معاناة أهل غزة حقيقة واضحة، وهي معاناة قاسية وتدل على وحشية العدو الصهيوني، فهو ليس كأي محتل بل إن شراسته وعدم رحمته فاقت كل الحدود المعروفة في حالات الاحتلال، وتدل أيضاً على مدى انهيار الأخلاق الدولية، فالعدو الصهيوني الذي يقوم بذلك على مرأى وسمع من العالم كله لا زال يتمتع بالدعم الأمريكي والأوروبي، والصمت الدولي!!. بل إن من المثير للتأمل أن كمية ونوع الوحشية الصهيونية زادت خلال زيارة الرئيس الأمريكي للمنطقة!!، وتدل أيضاً على مدى الهوان العربي وربما التواطؤ العربي فالشعب الفلسطيني شعب عربي مسلم يتعرض لأقسى أنواع المعاناة ومع ذلك تتفرج عليه الدول العربية والإسلامية ولا تفعل شيئاً لوقف تلك المعاناة.

معاناة فلسطين ومعاناة غزة حقيقة زادت وتيرتها في الآونة الأخيرة، ويبدو أن البعض منا ومن غيرنا، بدلاً من أن يواجه مسئولياته الأخلاقية تجاه هذا الاحتلال الوحشي راح يبحث عن أسباب غير موضوعية ليعلق عليها فشله وعجزه وتواطؤه، وإذا كان من المفهوم أن تقول دوائر العدو الصهيوني والأمريكي والإعلام الموالي لها: إن السبب في تلك المعاناة هي سيطرة حركة حماس على غزة، أو إطلاق صواريخ القسام على المستعمرات الصهيونية، فإن من الغريب أن البعض منا راح يردد نفس تلك الأكاذيب.

وبداية فإن معاناة الشعب الفلسطيني عموماً، وأهل غزة خصوصاً حدثت وتحدث منذ ستين عاماً، لم تنقطع تلك المعاناة في وجود حماس أو حتى قبل أن توجد حماس أصلاً، بل قبل أن يعرف أحد هذا الاسم، وتلك المعاناة لم تنقطع، سواء قام الفلسطينيون بأي نوع من المقاومة أو لم يقوموا، وبديهي أن المعاناة مع المقاومة أفضل من المعاناة بدونها، على الأقل هناك نوع من

العزاء ولو على مستوى الكرامة، ومن المؤلم جداً أن نموت في صمت وخضوع، على الأقل فلنحاول أن نحدث أي نوع من الألم صغير أو كبير بعدونا!!.

ومن المعروف أيضاً أن حماس عرضت أكثر من مرة وقف ضرب الصواريخ على المستوطنات الصهيونية مقابل توقف العدوان الصهيوني على غزة ورفع الحصار عنها، ولكن العدو الصهيوني هو الذي لم يقبل، فهل تقف حماس مكتوفة الأيدي تنظر في حسرة إلى أبنائها وأبناء الشعب الفلسطيني يموتون ويسجنون دون حراك!!.

الأكثر دلالة هنا هو أن الضفة الغربية ذاتها تتعرض لعمليات صهيونية وعدوان وقتل واعتقال، الأمر الذي يعني أنه لا خصوصية لغزة في هذا الصدد.

يجب أن نسجل هنا أن السيد ياسر عرفات شخصياً وكان قد وقع اتفاقية أوسلو مع العدو الصهيوني، ومع ذلك تعرض للحصار في رام الله، بل وانتهى مقتولاً بالسم على يد الصهاينة، فالعدوان إذن خلق صهيوني مستمر فالأفعى لا تنفث إلا سماً!!. ومن ثم فإن الزهار وهنية وخالد مشعل ليسوا السبب في المعاناة وإلا فلماذا حاصروا ياسر عرفات.

يجب أن نضيف هنا أنه بصرف النظر عن الرأي في حماس فإن الواجب الوطني والقومي والإسلامي والإنساني يقتضي الوقوف معها الآن وبقوة، فهي لا تزال تطلق الصواريخ على المستعمرات الصهيونية، وتاريخها مملوء بالعمليات الاستشهادية، ولديها من المعتقلين في السجون الصهيونية ما يفوق أي حركة أخرى بمن فيها حركة فتح بقياس عدد السنوات التي مارست فيها كل من فتح وحماس النضال وكذا حساب أن المعتقلين غير المنتمين في السجون الصهيونية يصنفون على أنهم من فتح،

وهذا لا يقلل من قيمة نضال فتح التاريخي، وكذا فإن حركة حماس مات قادتها داخل الميدان أحمد ياسين وعبد العزيز الرنتيسي وصلاح وغيرهم، بل ويقدم قادة حماس أبناءهم للشهادة دون تمييز عن غيرهم، وهذا دليل على المصداقية النضالية.

أياً كان الأمر، فإن حماس ليست السبب في معاناة غزة فالعدوان خلق الأفعى الصهيونية التقليدي، وهذا العدوان حتى اليوم لا زال يستهدف كل المناضلين من حماس وفتح والجهاد وغيرهم، والذين يرددون هذا الكلام، هم في الحقيقة يشاركون في خطة القضاء على حماس، بل والقضاء على مستقبل النضال الفلسطيني لحساب إسرائيل وأمريكا والقوى الفلسطينية والعربية المتواطئة، والتي تريد سلاماً ذليلاً، وحتى هذا السلام الذليل لن تحصل عليه، لأن إسرائيل لن تعطي إلا الدم والنار، وليس السلام - أي سلام - والأفعى لن تعطي إلا السم، وهذه حقيقة ينبغي ألا تغيب عنا.

* * * * *

هل قتل عماد مغنية فعلا؟!

يمكننا بسهولة أن نصدق أن السيد عماد مُغنية قد تمَ اغتياله، في دمشق أو بيروت أو أي مكان في العالم، ذلك أن الرجل كان مستهدفًا لأكثر من جهة أمنية واستخباراتية لا يستهان بها، وهي بالطبع قادرة على تنفيذ محاولة اغتيال الرجل، بصرف النظر عن النجاح أو الفشل فيها؛ فعماد مغنية أو الحاجّ رضوان كان منسوبًا إليه العديد من "العمليات الإرهابية الكبرى"، سقط فيها قتلى من الأمريكيين والإسرائيليين بل والأوربيين أيضًا، ومن ثمَ فهو مستهدف لكل من جهاز المخابرات الإسرائيلية "الموساد"، وجهاز المخابرات المركزية الأمريكية "CIA" وأجهزة استخباراتية فرنسية وأوروبية، وكل جهاز من هؤلاء يملك الإمكانيات والعملاء لمحاولة اختراقه في دمشق أو غير دمشق والحصول على معلومات تسهل له عملية تصفية الرجل المستهدف، بل إن الأمريكان مثلاً قرّروا جائزة قدرها ٢٥ مليون دولار لمن يساعد في القبض على الرجل أو الإدلاء بمعلومات مفيدة عنه.

وبديهيٌ أن كلاً من الأمريكيين والإسرائيليين قد فرحوا عندما تمَ الإعلان عن اغتيال الحاج عماد.

وقال المتحدث باسم البيت الأبيض: (إنه خبرٌ سعيد، وإن الإدارة الأمريكية مسرورة بتصفية هذا الإرهابي الكبير). ولكنها لم تعلّق عن مسئوليتها عن الاغتيال، وقريبًا من هذا فعلت الدوائر الرسمية الإسرائيلية، التي نفت اشتراكها في العملية، ولكنها سعيدة بما حدث.

حزب الله من جهته اتهم الإسرائيليين بالوقوف وراء العملية وهذا أمر طبيعي ومفهوم؛ فالإسرائيليين يريدون اغتيال الرجل؛ لأنه منسوب إليه قتل إسرائيليين، وفي الإطار العام أيضًا، فهو أحد كبار رموز حزب الله من ناحية، وربما كان القائد الأكبر للجهاز العسكري لحزب الله، أو على الأقل

أحد أهم رموز هذا الجهاز.

وإذا تناولنا الموضوع من زاوية أخرى.. نجد أن الحاج عماد المستهدف جدًا جدًا، لا يمكن بسهولة أن يتحرك بغير احتياطات أمنية هائلة - وهذا بالطبع لا يمنع إمكانية اغتياله - وهو استطاع أن يختفي عن أعين الأجهزة الأمريكية والغربية والإسرائيلية مدة كبيرة جدًا تُعَدّ بعشرات السنين، وقد غيّر الرجل شكله واسمه، وساعده هذا الزمن الطويل في النجاح في تغيير الشكل والاسم، ومن ثمّ فإن نجاح عملية الاغتيال بعد هذا الزمن الطويل جدًا، تصبح صعبة، بل صعبة جدًا. اللهمّ إلا إذا كان قد تمّ اختراقه، وهو أمر لا يمكن الاعتماد عليه حتى الآن في التحليل، وكان من الأقرب إلى التصور والحالة هذه أن تكون العملية موجهة للسيد حسن نصر الله شخصيًا، فهذا يفيد إسرائيل إعلاميًا ونفسيًا، بل وعسكريًا في إطار صراعها مع حزب الله!.

تمّ الإعلان عن العملية بطريقة فيها الكثير من الغموض؛ فقد تمّ تسريب خبر حول عملية انفجار في أحد أسواق دمشق، وبعد ساعات طويلة تمّ الإعلان عن أن الانفجار ذاته أودى بحياة عماد مغْنية أو الحاج رضوان، وفي بلد مثل سوريا لا يمكن أن نفهم أن يتم الإعلان عن انفجار دون معرفة كل تفاصيله. وبديهي أن عماد مغْنية لا يتحرك داخل سوريا بدون معرفة كاملة من السوريين، فهذا يعرض التحالف القوي بين حزب الله وسوريا لمخاطر لا ضرورة لها بالنسبة لحزب الله، الذي لا يخفى أنه تلقى ويتلقى دعمًا هائلاً من سوريا عمومًا والجيش والأجهزة الاستخباراتية السورية خصوصًا.

ما المانع مثلاً أن يكون ما حدث هو مجرد مسرحية تمّت لأسباب عديدة، منها مثلاً أن حزب الله أراد أن يدفن هذا الملف، ومن ثمّ يريح عماد مغْنية شخصيًا من عمليات البحث الجارية عنه، فيعيش بصورة عادية باسم مستعار وشكل جديد تمامًا، تسمح به الفترة الطويلة التي اختفاها، وعمليات

تغير الشكل المعروفة والسهلة والفاعلة، ومنها أن حزب الله أحسَّ بأن هناك مباحثات واتصالات سرية وعلنية بين كل من أمريكا وإيران، وأنه لو حدثت صفقة بين أمريكا وإيران فإن ذلك يمكن أن يكون على حساب حزب الله وربما سوريا أيضًا، فتمَّ الاتفاق على إخراج هذه المسرحية لإفشال مثل هذه الصفقة. مع العلم أن هناك كلامًا كثيرًا داخل أمريكا، ومراكز أبحاثها، بل وبين كبار السياسيين فيها، يتحدث عن ضرورة الحوار وربما التحالف الإيراني ضد الإرهاب الأصولي السلفي، وصحيح أن جورج بوش وإدارته لا يزالون يمانعون في ذلك، ولكن التغيير الوارد في تلك الإدارة في نهاية العام يمكن أن يجعل ما كان صعبًا أصبح ممكنًا!!. ومن ثمَّ فإن على حزب الله - أو حزب الله وسوريا معًا - استباق الأحداث لإفشال مثل هذه الصفقة.

ومن الأهداف الواضحة لإمكانية أن تكون عملية دمشق مجرد مسرحية، أن حزب الله يقرأ جيدًا العقلية الإسرائيلية، وهذا أمر محسوب له لا عليه، والقراءة المتمعنة لتقرير القاضي الإسرائيلي فينوجراد، تقول: إن إسرائيل لا بدّ أن تفكر بالضرورة في ضربة جديدة لحزب الله، تتلافى بها أخطاء الجيش الإسرائيلي في حرب ٢٠٠٦، وحزب الله لا ينتظر أن تستعد إسرائيل جيدًا ثم تحدِّد الزمان المكان الملائمين لها وتضرب ضربتها، فهو يريد استفزاز إسرائيل وجرَّها للمعركة في الوقت الذي يريده هو، وقد فعل ذلك من قبل في حرب صيف ٢٠٠٦، عندما حدَّدت إسرائيل ساعة الصفر في أكتوبر أو نوفمبر ٢٠٠٦، فقام حزب الله باختيار زمان أفضل له، فقام بعملية خطف الجنود الإسرائيليين في جنوب لبنان، ومن ثمَّ اضطرت إسرائيل أن تقوم بضربة سريعة له حتى لا تفقد قدراتها الردعية الإعلانية والسياسية. وعلى مستوى الداخل والخارج، وقد اختار حزب الله التوقيت بحيث يكون في وقت تقوم إسرائيل فيه بالعدوان الشديد على الفلسطينيين فيحقق نوعًا من الدعاية في الشارع العربي والإسلامي بأنه فعل ذلك من أجل التخفيف من معاناة

الفلسطينيين، وكنوع من التضامن معهم، وهو ما لم تفعله الحكومات وحركات ودول غيره، ومن ثمّ يحقق زيادة في وزنه الإقليمي واللبناني والأمر نفسه يحدث الآن، فهناك معاناة الفلسطينيين عمومًا، وأهالي غزة خصوصًا، وإذا قام حزب الله بعمليات ضد إسرائيل فإن ذلك يحقق له نفس الهدف، وهو أنه الوحيد الذي يفعل شيئًا عمليًا لصالح الفلسطينيين وضد إسرائيل، ولكن المتغير هذه المرّة هو أن الأوضاع الداخلية اللبنانية شديدة التعقيد لا تسمح له باستخدام الأراضي اللبنانية لفعل ذلك، وإلا اتهمه الفرقاء الآخرون بأنه يجرّ لبنان إلى حرب لصالحه هو، وليس لصالح لبنان، وهو بداهة لا يريد ذلك، وقد استخدمت هذه المقولة ضده كثيرًا في إطار الصراع السياسي والإعلامي بين الموالاة والمعارضة في لبنان. أضف إلى ذلك أن الوضع اللبناني في تغير كثيرًا ولم يعد في نفس حالة التوهُّج لصالح حزب الله كما كان إبّان حرب صيف ٢٠٠٦ أو بعدها بقليل، بل والجامعة العربية عندما تقدّمت بمبادرتها لإنهاء الجمود السياسي في لبنان، وتعثّرت تلك المبادرة، ثمّ اتهام حزب الله والمعارضة اللبنانية بذلك علنًا، وتمّ إحداث نوع من الضغط السياسي والإعلامي على المعارضة عمومًا، وحزب الله خصوصًا، إذن فاستفزاز إسرائيل لشنّ عدوان جديد، سيفشل حتمًا ولن يحقق نتائجه لأسباب معروفة، حول حرب العصابات والصواريخ الصغيرة وإمكانية اختفاء الحزب داخل التربة الشيعية في لبنان، وربما النصرانية في القطاع الموالي لميشيل عون من النصارى، استفزاز إسرائيل لشنّ عدوان سيخرج حزب الله من حالة الحصار الطائفي التي يتعرض لها، ويعيد خلق الأوراق اللبنانية، بين معادٍ لإسرائيل وموالٍ لها، وليس سنة وشيعة مثلاً، فيكسب الحزب المزيد من الدعم ومن ثم النفوذ، وبما أن فعل شيء لاستفزاز إسرائيل داخل لبنان أو انطلاقًا من لبنان أصبح صعبًا، بأن من الضروري البحث عن مكان آخر، ولأن إمكانية المبادأة باستفزاز إسرائيل سيضرّ

الحزب لبنانيًا؛ لأنه يتسبب في خراب لبنان مثلاً، إذن يكون الحل عن طريق أن يكون هذا الاستفزاز نوعًا من ردّ الفعل وليس المبادأة بالاستفزاز وأن يكون الفعل الإسرائيلي كبيرًا بحيث يسمح بردّ فعل كبير من حزب الله، واختيار شخصية كبيرة تاريخيًا وإعلاميًا بالنسبة للمقاومة العربية والإسلامية والشعبية مثل عماد مغْنية يعطي حزب الله تلك الفروق. فيقوم بعملية انتقامية كبيرة في الوقت الذي يريده حزب الله، ومن ثم تضطر إسرائيل للردّ في الزمان والمكان الملائمين لحزب الله، فيحقق حزب الله - وربما سوريا - ما يريده من الأهداف وهي:

- تخفيف الضغط الداخلي والعربي على حزب الله وسوريا.
- إعادة رسم المعادلات اللبنانية وفق الصيغة الملائمة لحزب الله.
- منع حدوث تحالف بين أمريكا وإيران أو حتى تفاهم من أي نوع.
- الراحة من عملية مطاردة عماد مغْنية؛ لأنه قد مات!!.

وهكذا فإن السيد حسن نصر الله شخصيًا لم يقل بأنه سيوجه عمليات انتقامية لإسرائيل، بل قال: إن إسرائيل نفذت عمليتها خارج الأرض الطبيعية للصراع، ومن ثمّ فهي قد اختارت المعركة المفتوحة، وأنه يعلن ذهابه إلى تلك الحرب المفتوحة.

* * * * *

هل تأثير الجنرال ميشيل عون
أقوى من النفوذ السوري في المعارضة اللبنانية

من المعروف والمشهود أن لسوريا نفوذاً قوياً داخل المعارضة اللبنانية، فحركة أمل بقيادة الرئيس نبيه بري رئيس البرلمان اللبناني هي حركة موالية لسوريا تماماً، وحزب الله وإن كان ولاءه لإيران، إلا أنه حليف قوي لسوريا أيضاً، وحتى أطراف المعارضة الصغيرة أو الهامشية خارج أمل وحزب الله والتيار الوطني الحر بقيادة ميشيل عون، هي حركات موالية في معظمها لسوريا، سواء كان في إطار مسيحي مثل آل فرنجية " تيار المردة "، أو آل أرسلان في الدروز أو آل كرامي في السنة... إلخ، ومن ثم فإن النفوذ السوري داخل المعارضة اللبنانية أمر لا تخطئه عين مراقب، وهذا بالطبع ليس في مجال النقد أو المدح، الذم أو غيره، ولكنه تقرير للحقائق على الأرض. ومن ثم فإن المعارضة لا تستطيع بسهولة مخالفة الموقف السوري، ومع ذلك نرى أن المبادرة العربية التي توصل إليها وزراء الخارجية العرب والتي أوصت بانتخاب فوري للعماد ميشيل سليمان لرئاسة الجمهورية، وإقامة حكومة وحدة وطنية، يكون الترجيح فيها للوزراء التابعين لرئيس الجمهورية وتعديل قانون الانتخابات اللبناني، هذه المبادرة التي حظيت بتأييد سوري علني، وسوريا كانت أصلاً طرفاً في التوصل إليها وصياغتها على النحو الذي جاءت به عن طريق وزير خارجيتها السيد وليد المعلم، وكذا حظيت المبادرة بتأييد إيراني علني تم عقب إعلان المبادرة إبان زيارة مستشار المرشد الأعلى للثورة الإسلامية في إيران السيد علي لاريجاني إلى دمشق، بالإضافة إلى تصريحات لمسئولين إيرانيين آخرين، هذه المبادرة تعثرت في لبنان رغم زيارة السيد عمرو موسى إلى بيروت واجتماعه بالفرقاء وعاد الرجل إلى القاهرة دون أن يحقق شيئاً مع وعد بالعودة إلى بيروت مرة أخرى، كيف يمكننا أن نفهم أن مبادرة حظيت بالرضا الإيراني

والسوري العلني والرسمي، يتم إجهاضها عن طريق الدخول في خلافات حول التفاصيل، نحن أمام تفسيرين لا ثالث لهما، إما أن الرضا الإيراني والسوري كانا رضا مزيف، بمعنى أنه مظهر لا يعبر عن حقيقة، بمعنى أن سوريا اضطرت إلى الموافقة في القاهرة حتى لا تظهر بمظهر المخالف للإجماع العربي، خاصة أنها تريد انعقاد مؤتمر القمة العربي القادم في دمشق كما هو مقرر سلفاً، وأنها في الوقت نفسه لم تمارس نفوذاً حقيقياً على حلفائها في لبنان لإنجاح المبادرة بل أعطتهم ضوءاً أخضراً لإغراق المبادرة في التفاصيل وعدم تعويمها ومن ثم امتصاصها في النهاية. وإما أن سوريا كانت جادة بالفعل في تأييد المبادرة مقابل تحسين علاقاتها العربية وعدم تغيير مكان انعقاد مؤتمر القمة العربي القادم من دمشق إلى غيرها من العواصم العربية، مع ما يترتب على ذلك من تهميش لها ودورها لا يمكنها أن تقبله وتطيقه. ومن ثم مارست نفوذها للحصول على تأييد إيراني للمبادرة وقد حصلت عليه، ثم ضغطت على حلفائها في لبنان، وبالفعل رحب نبيه بري بالمبادرة، إلا أن ميشيل عون قائد التيار الوطني الحر، وأحد أقطاب المعارضة، الطامح جداً إلى رئاسة الجمهورية، استطاع أن يقنع حزب الله وباقي الفرقاء في المعارضة بإفشال المبادرة، ومن ثم فإن التفاصيل المطلوبة حول المبادرة أغرقت المبادرة إلى حد كبير، لدرجة أن عمرو موسى الأمين العام لجامعة الدول العربية عندما سُئل عن تفسير للمبادرة قال أنها واضحة جداً، إذن كان هناك نوع من الالتفاف حول المبادرة من قبل المعارضة ثم بضغط من ميشيل عون، وإذا صح هذا التفسير فإن نفوذ ميشيل عون على المعارضة يصبح كبيراً جداً، لدرجة مخالفة سوريا وهو أمر يمكن فهمه في إطار حاجة المعارضة الشديدة لميشيل عون لأنه لو خرج ميشيل عون من المعارضة، لكان معنى ذلك توحيد المسيحيين ضد المعارضة، بالإضافة إلى الدروز والسنة، فتصبح المعارضة شيعية فقط، وهو أمر يضعف المعارضة

اللبنانيـة جـداً بالإضـافة إلـى نـوع مـن الإحسـاس بالجميـل مـن قبـل حـزب الله لميشـيل عـون والتيـار الـوطني الحـر، الـذي سـاهم فـي إخفـاء قيـادات حـزب الله فـي المنطقـة المارونيـة إبـان الغـزو الإسـرائيلي للبنـان عـام ٢٠٠٦، وسـاعد كثيـراً فـي دعـم حـزب الله وصـموده فـي تلـك الحـرب التـي كانـت تسـتهدف استئصـال حـزب الله، وهـو جميـل لا يسـتطيع حـزب الله أن ينكـره، خاصـة أن الحاجـة إلـى ميشـيل عـون والتيـار الـوطني الحـر لا تـزال قائمـة فـي موضـوع سـلاح حـزب الله المـراد نزعـه وفقـاً للقـرارات الدوليـة، ولا يعطـل ذلـك سـوى التركيبـة المعقـدة للقـوى السياسـية اللبنانيـة، والتـي يعـد التيـار الـوطني الحـر " تيار ميشيل عون " هو الحلقة الأهم فيها.

* * * * *

ظاهرة أوباما
تغيير أم تجميل أم مأساة

على قدر تعقيد عملية الانتخابات الرئاسية الأمريكية، فإن من الضروري التصدي لبحث أسرار هذه الانتخابات، وتفاعلاتها، لفهم المجتمع الأمريكي أولاً، والاستعداد ثانياً لما يمكن أن تسفر عنه هذه الانتخابات، ذلك أن قدراً كبيراً من أحوالنا الإقليمية والوطنية، وكذا الأوضاع الدولية يتأثر بما يجري في الولايات المتحدة الأمريكية، باعتبارها القوة الأكبر حالياً في العالم، وباعتبار أن لها مشروعاتها في المنطقة وبحكم وجود احتلال أمريكي سافر لكل من العراق وأفغانستان، واحتلال عن طريق وكيل - هو إسرائيل لفلسطين، ناهيك عن احتلال غير سافر أي مقنع في أكثر من بلد عربي وإسلامي، ولا شك أن الفهم هو جزء من واجب النخبة ومراكز الأبحاث فضلاً عن أجهزة الحكومات المعنية.

ظاهرة السيناتور - باراك أوباما، أو باراك حسين أوباما، الأسود، من جذور إفريقية، الذي ينتمي إلى أب من كينيا، أب مسلم، حمل ابنه اسمه المسلم " حسين " حتى وإن لم يكن للإسلام والثقافة الإسلامية تأثير على الابن السيناتور باراك أوباما. تلك الظاهرة بما أحدثته من تفاعلات داخل المجتمع الأمريكي عموماً، والحالة الانتخابية الرئاسية في الولايات المتحدة خصوصاً فرضت نفسها على الباحثين ومراكز الأبحاث في كل مكان من العالم، ومن الضروري أن يكون لنا كعرب ومسلمين اهتمام بالمسألة، لما لها من تقاطعات خاصة وعامة علينا وعلى مستقبلنا.

السيناتور باراك أوباما، الأسود اللون، الذي حمل لون الأب واسمه، هو ابن لمهاجر كيني إفريقي أسود مسلم، ذهب إلى الولايات المتحدة وحقق فيها ما يسمى بالحلم الأمريكي - المال والتعليم والزواج من امرأة أمريكية بيضاء

البشرة، ورزق منها بولد هو باراك أوباما وأخذه معه إلى جاكرتا حيث تربى في طفولته المبكرة تربية إسلامية ومهما تنكر الابن لتلك التربية أو استخف بموضوع الدين عموماً فإن لتلك التربية آثارها عليه، وهي أيضاً محسوبة على الابن، يمكن أن تستغل ضده في أي لحظة، أو من باب أن إحساس الابن بذلك ربما يدفعه إلى سلوك الطريق العكسي لنفي ذلك الانتماء الذي يؤثر بالضرورة على رؤية الآخرين له. عاد الابن إلى أسرة الأم بعد فترة قليلة في جاكرتا بإندونيسيا، وربته جدته لأمه تربية أمريكية غربية صرفة بل استطاع الابن أن يدخل أعرق وأرقى الجامعات الأمريكية ويتخرج فيها " جامعة هارفارد "، ثم طرح نفسه للعمل السياسي العام من خلال الحزب الديمقراطي، ونجح أن يصبح عضواً لمجلس النواب الأمريكي رغم لونه الأسود، وجذوره الإسلامية في مجتمع مصاب شيئاً ما بما يسمى إسلامو فوبيا - العداء الغير عقلاني للإسلام - خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ويمتلك باراك أوباما شخصية جذابة ومؤثرة، وهو قادر بالطبع على الوصول إلى عقول وقلوب الشباب الأمريكي، وهذا ما جعل منه ظاهرة لا يمكن تجاهلها في الانتخابات الأمريكية، فهو ليس مجرد أسود يترشح للرئاسة كما حدث من قبل لأكثر من رجل أسود، لأن السابقين على أوباما من المرشحين السود، لم يكونوا يمثلون تحدياً حقيقياً للمرشحين الآخرين، بعكس أوباما الذي أظهر حتى الآن في الانتخابات التمهيدية للحزب الديمقراطي أنه متفوق أو على الأقل مرشح له وزن حقيقي يهدد أمثال هيلاري كلينتون، البيضاء زوجة الرئيس السابق بيل كلينتون، والتي تحظى وزوجها بعلاقات قوية داخل كبار رجال الحزب الديمقراطي، بل كبار رجال السياسة الأمريكية عموماً.

يمكننا بالطبع انطلاقاً من حقيقة أن الانتخابات الأمريكية ليست مجرد سباق بريء بين مجموعة من المرشحين، ولكنها نوع من الصناعة المعدة

سلفاً داخل أروقة القوى الحاكمة في الولايات المتحدة الأمريكية وهي كبار رجال الأعمال والرأسمالية والمجمع الصناعي العسكري والأجهزة السيادية الأمريكية، يمكننا انطلاقاً من ذلك أن نقول أن الرجل صناعة هذه القوى، ولكننا لن نميل في تحليلنا إلى هذا المنحنى ونتزلق من ثم إلى نظرية المؤامرة - وصحيح أن نظرية المؤامرة صحيحة بالطبع، ولكنها ذات حدود محددة ولا يمكنها أن تفسر كل شيء.

أياً كان الأمر، فإن ظاهرة أوباما حققت للولايات المتحدة دعاية هائلة، وسواء نجح الرجل في الفوز بترشيح الحزب الديمقراطي، أو حتى نجح بعد ذلك في الفوز بمنصب الرئيس، أو لم يحدث هذا أو ذاك فإن الاهتمام العالمي واسع النطاق - وهو أمر طبيعي بالنسبة للانتخابات الأمريكية - قد حقق أفضل نوع من تجميل وجه أمريكا القبيح، ومما لا شك فيه أن سمعة أمريكا بعد غزوها للعراق، وقمعها للشعوب وقضايا مثل معتقلي جوانتانامو، وسجن أبي غريب في العراق، وقلعة جانجي في أفغانستان، وتجاوزات حقوق الإنسان داخل أمريكا ذاتها، والسجون الأمريكية السرية في أوروبا وغيرها، كل ذلك أدى إلى انحطاط سمعة أمريكا بصورة نوعية في الآونة الأخيرة، وقد أظهرت استطلاعات الرأي في معظم دول العالم العربية والإسلامية خصوصاً، وكل دول العالم عموماً، أن الشعوب تكره أمريكا، وراحت الأجهزة الأمريكية ترصد الأموال، وتُنشأ القنوات الفضائية، وتدفع رشاوى للصحفيين والكتاب هنا وهناك لتحسين صورة أمريكا في العالم دون جدوى، ولكن رجل واحد مثل أوباما الأسود من أصول إسلامية حين يترشح للرئاسة ويحظى بتأييد الأمريكيين، يعطي رسالة أن أمريكا غسلت ثوبها العنصري تجاه السود والمسلمين، وأنه في بلد مثل أمريكا يمكن لرجل من أصول إسلامية وسوداء أن يصل إلى أعلى المراكز ولا شك أن في ذلك مصلحة لأمريكا، ومصلحة للقوى المسيطرة والمهيمنة فيها، حتى ولو كانت تلك

القوى ترى أن أمريكا هي الأنجلو سكسون البروتستانت البيض!!. لأن تلك القوى تدرك أن منصب الرئيس الأمريكي في النهاية لا يغير استراتيجية الولايات المتحدة نظراً لتعقيدات السياسة والكونجرس وجماعات الضغط والإعلام التي تتحكم عن طريقها في الرئيس مهما كان لونه أو جذوره أو أفكاره، أضف إلى ذلك أن أوباما نفسه يميل إلى السياسات الرأسمالية، بل يكاد أن يكون جمهوري في ثياب ديمقراطي، وهو يقول ذلك علناً حيث اعترف أن قاعدته الانتخابية فيها سود وبيض وديمقراطيين وجمهوريين، ومن ثم يمكن تحقيق نفس السياسات والاستراتيجيات عن طريق رئيس أسود وبنوع من التكتيك الجديد، خاصة بعد الفشل الذريع الذي مني به المحافظون الجدد وإدارة الرئيس بوش في العراق وأفغانستان بل ولبنان وفلسطين، وإذا كان مشروع القرن الأمريكي الجديد، أو المشروع الإمبراطوري الأمريكي قد فشل، وأن هناك مخاطر حقيقية على مستقبل أمريكا إذا ما استمر هذا الفشل وإذا ما استمر تصاعد الإرهاب الإسلامي وانخراط المزيد من المسلمين فيه على قاعدة سوء سمعة أمريكا وسياساتها التعسفية، وإدراك الأجهزة الأمريكية أن الحرب على الإرهاب هي حرب ثقافية قبل أن تكون عسكرية، فالمدد الحقيقي للإرهاب يأتي من قناعة الكثيرين من المسلمين بأنه لا طريق آخر لمواجهة أمريكا وإسرائيل، سوى هذا الطريق، ومن ثم فإنه كلما وجهت الولايات المتحدة ضربات للإرهاب، كلما وُجد مناصرين جدد بلا انقطاع، ولقطع هذا الحبل السُري للإرهاب فإن الإقناع الثقافي هو الطريقة الوحيدة، ولا شك أن أوباما يحقق جزءاً كبيراً من هذا الأمر، وهكذا فإنه سواء كان أوباما هو صنيعة الأجهزة الأمريكية المعنية، أو كان ظاهرة مستقلة، فإنه يمكن استغلالها أفضل استغلال لتحقيق هذا الهدف، هدف قطع وإفساد البنيان الثقافي الذي يبرر الإرهاب ضد أمريكا، وتحقيق نوع من التراجع التكتيكي الأمريكي عن أخطاء إدارة بوش.

من جانب آخر، فإن منظري الحزب الجمهوري، يرون أن ما ألحقه جورج بوش من تدمير لسمعة الحزب الجمهوري بسبب سياساته يقتضي سلوك طريق غير تقليدي لمنع ذلك من تدمير الحزب أو إلحاق قدر كبير من الخسائر به، ولا شك أن فوزاً سهلاً لأي مرشح ديمقراطي عادي سيكون هو المتوقع في حالة ما إذا سارت الأمور على النحو المعتاد، ومن ثم فإن على الجمهوريين أن يبحثوا أو يدعموا ظواهراً غير عادية لتحقيق ذلك، فهم أولاً جعلوا معركة الانتخابات التمهيدية للحزب الجمهوري لاختيار مرشحه سهلة ومحسومة تقريباً لصالح مرشح واحد، هو جون ماكين، وسهولة وحسم تلك الانتخابات التمهيدية، يوفر الكثير من المال والجهد لصالح الحزب لاستغلالها في الانتخابات الرئاسية مع مرشح الديمقراطيين، بعكس الديمقراطيين، الذين خاضوا مع بعضهم البعض معركة شرسة خاصة بين أوباما وهيلاري كلينتون، استنزفت فيها طاقات كبرى وأموال أكبر، وهذا يجعل المرشح الديمقراطي المختار قد وصل إلى الترشيح منهك القوى، قد أنفق معظم المال الذي جمعه أو دفعه من جيبه الخاص وكذلك القوى والآلة الديمقراطية الانتخابية ستصل إلى الانتخابات الرئاسية مع مرشح الحزب الجمهوري منهكة القوى والمال!!

وهذه فرصة ونقطة إضافية يحتاجها الحزب الجمهوري بشدة في ظل ظروف تراجع شعبيته بسبب سياسات إدارة جورج بوش، من جانب آخر فإن ضراوة المعركة الانتخابية ألجأت أنصار هيلاري كلينتون مثلاً، إلى استخدام التحريض العرقي ولو بطريقة خفية ولكنها مفهومة ضد أوباما، وهذا سوف يؤثر في النهاية على فرصة أوباما في الفوز بالرئاسة إذا ما تم اختياره مرشحاً للحزب الديمقراطي، لأن استفزاز الوجدان الأمريكي - العنصري بالطبع ولو في قطاعات كبيرة منه على الأقل - سيجعل فرصة المرشح الجمهوري أكبر، فتصبح الانتخابات ليست بين مرشح جمهوري

وآخر ديمقراطي، بل مرشح أبيض وآخر أسود، وهو أمر له خطورته وأهميته في بلد مثل أمريكا، ومن ثم يصبح الجمهوريون الأقرب إلى البيت الأبيض للمرة الثالثة على التوالي ويحققون فوزاً غير مستحق لهم، وعلى عكس كل الأسباب العادية.

لهذه الأسباب وغيرها، فإن أوباما يصعد بشدة، وهذا لا يقلل من إمكانياته الشخصية، وقدرته على مخاطبة الشباب الأمريكي من كل الأعراق والوصول إلى عقولهم وقلوبهم، على أنه من الممكن جداً، أن يكون صعود أوباما الأسطوري هو نوع من المأساة الإغريقية، إنه صعود إلى الهاوية، ويرى البعض أن الأجهزة والمؤسسات السيادية الأمريكية، والقوى المتحكمة فيها، لن تسمح بغير أبيض بروتستانتي أنجلوسكسوني لرئاسة أمريكا، وأن جون كينيدي وروبرت كينيدي قد تم اغتيالهما لأنهما كانا من كاثوليكيين مثلاً!!. وتقول الأديبة البريطانية دوريس كيسنج - الحائزة على جائزة نوبل للأدب عام ٢٠٠٧، إن فوز أوباما لن يستمر طويلاً، فصعود رجل أسود إلى منصب الرئاسة قد يعرضه للقتل، وهو أمر مفهوم بالطبع، لأن داخل أحشاء المجتمع الأمريكي قوى عنصرية مسلحة، وفاعلة، ويمكنها لحساب نفسها أو مدفوعة من الأجهزة والقوى المسيطرة على أمريكا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة أن تقوم بذلك، وهكذا فنحن أمام ظاهرة مركبة، إنها ظاهرة أوباما التي تحمل التجميل والتغيير والمأساة معاً. ولا يمكننا أن نحسم مقدماً في أي طريق ستسير الأمور في هذا الصدد.

* * * * *

الحرب الصليبية لم تتوقف قط

جاءت تصريحات قادة حزب عصبة الشمال الإيطالي عقب فوزه في الانتخابات الإيطالية بالتحالف مع سلفيو بيرلسكوني رئيس الوزراء الإيطالي والتي كشفت عن عنصرية صليبية فجة؛ فقد صرح ماريو بورجيتسيو أحد قادة هذا الحزب أن الفوز في الانتخابات يعتبر تصديا قويا للإسلام والمسلمين ومواجهة مفتوحة مع من اسماهم بالمتطرفين والإرهابيين والمجاهدين المسلمين، وأنه ينبغي تطهير أوروبا من هؤلاء المسلمين على حد قولـه، وكان سيلفيو بيرلسكوني رئيس الوزراء الإيطالي نفسه قد اعتبر أن الحضارة الإسلامية حضارة منحطة.

وهكذا فإنه يخطأ من يظن أن الحرب الصليبية قد توقفت يوما أو أنها كانت مرتبطة بحقبة زمنية معينة، وكذلك يخطأ من يتصور أن هذا الوجدان الأوروبي الصليبي قد ظهر من جديد عقب انتهاء الحرب الباردة في إطار السعي لإيجاد عدو بديل، والحقيقة أن هذا الوجدان الصليبي هو جزء لا يتجزأ من العقل الأوروبي لأسباب كثيرة جدا منها ما هو عقائدي وما هو تاريخي وما هو سياسي واقتصادي؛ كان

وما يزال وسيستمر يشكل أبعاد الوجود الإنساني في كوكب الأرض، وإن ظهرت بعض التناقضات الثانوية لتأخذ مساحة في الزمان والمكان مثل التناقض بين الشيوعية والرأسمالية مثلا، فسرعان ما تتلاشى هذه التناقضات الثانوية أمام التناقض الجوهري؛ فالغرب كل الغرب وثني صليبي: الرأسمالي منه والشيوعي والنازي والاشتراكي والفاشي والليبرالي. والإسلام والمسلمون هما العدو الرئيسي للغرب بكل إفرازاته الأيديولوجية والمذهبية.

فالرئيس السوفيتي السابق ميخائيل جورباتشوف، عندما أراد أن يقدم أوراق اعتماده إلى أوربا وأميركا تكلم عن وحدة المصير المسيحي والحضارة المسيحية، وهي حضارة وثنية ذات قشرة مسيحية وهي إغريقية في جوهرها، وليس فيها شيء

من المسيحية الحقة، ولا حتى المسيحية المزيفة اللهم إلا القشور.

والرئيس الأميركي جورج بوش، في إطار حملته الانتخابية لعام ٢٠٠٤ قال باللفظ الواحد: "إني هنا أمثل أميركا التي تمثل بدورها الحضارة اليهودية المسيحية التي تقود عالم اليوم بلا منافس"(١).

ونائب الرئيس الأميركي السابق دان كويل يقول: "إن أخطر ثلاث حركات في القرن العشرين هي النازية والشيوعية والحركة الإسلامية"(٢).

وإذا كانت النازية والشيوعية قد انهزمتا فلم يبق أمام السيد دان كويل إلا تصفية الحركة الإسلامية!

وقد نشر "عاموس بيرلماتر" الكاتب الصحفي الأميركي في صحيفة الواشنطن بوست يقول: "إنه لا يمكن حدوث مصالحة بين العالم المتمدن والإسلام؛ لأنه دين ثوري وعدواني وعنيف ومتشدد، مثل البولشفية والفاشستية والنازية"(٣).

أما بيتر رومان الكاتب الأميركي بمجلة "ذي ناشيونال ريفيو" فيقول: "إنه بنهاية الحرب الباردة فقد انتصر الغرب، ولكن الآن نحن أمام تحد من قوى إسلامية تقودها الكراهية للأفكار السياسية الغربية بما يعيد إلى الأذهان الظلم الذي تعرضت له المسيحية في زمن سابق"(٤).

ويواصل رومان حديثه قائلا: "نحن لا نظلم الإسلام عندما نعتبره عدونا الجديد الذي يحل محل شيوعية الاتحاد السوفيتي، ولا يمكن الحكم على الإسلام بالمقاييس التقليدية للسياسة الخارجية"(٥).

أما ريتشارد شيفتر مساعد وزير الخارجية الأميركي السابق فيقول: "إن الإسلام

---

(١) الأهرام.
(٢) الأهرام.
(٣) الأهرام.
(٤) هذه بالطبع مغالطة فالمسيحية لم تتعرض للاضطهاد على يد المسلمين بل العكس هو الصحيح.
(٥) بل تظلمونه ولا تفهمونه يا سيد رولان.

يمثل تهديدا كبيرا للاستقرار العالمي"[١].

أما زعماء الصرب فأكثر وضوحا، فوزير الإعلام الصربي يعلن: "إن القوات الصربية التي تذبح المسلمين وتبيدهم - تؤدي دور فرسان الصليب الذين ذهبوا لتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين إبان الحروب الصليبية

وزعيم الصرب في كوسوفو يقول: "الصرب حاربوا هنا لإنقاذ أوروبا من الإسلام، ومازلنا نحارب لمنع الإسلام من الانتشار في قلب أوروبا"[٢].

وتحت عنوان - الإسلام السياسي والغرب إشكالية صناعة العدو في النظامين الدولي والإقليمي الجديدين - كتبت جريدة الأهرام القاهرية تقول: "ولكن المرشح ليكون عدو النظام الدولي والغرب هو الإسلام السياسي والأيديولوجيات الثورية الراديكالية وجماعاته في الشرق الأوسط أو الإسلام الآسيوي في باكستان وأفغانستان"[٣].

والرئيس الأميركي الأسبق ريتشارد نيكسون يقول: "إن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية متطرفة، وإنه مع التزايد السكاني والإمكانيات المتاحة سوف يشكل المسلمون مخاطر كبيرة وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدواني للعالم الإسلامي، ومما يرجح هذا الأمر أن الإسلام والغرب متضادان، وعلى الغرب أن يتحد ليواجه الخطر الإسلامي الداهم"[٤].

والمتتبع لتاريخ الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، يجد أن تشويهات الغرب للإسلام والحضارة الإسلامية مستمرة منذ ظهور الإسلام، وعلى وتيرة واحدة، فهي صورة ثابتة لم تتغير، وتكمن التغيرات فقط في الوسائل لتوصيل المضمون والصورة، سواء وسائل بشرية (قادة - إعلاميين - مستشرقين)، أو مادية.

(١) الأهرام.
(٢) الأخبار.
(٣) جريدة الأهرام: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية.
(٤) ريتشارد نيكسون - الفرصة السانحة - ترجمة أحمد صدقي مراد - دار الهلال - القاهرة - ١٩٩٢.

والمعلق الروسي الشهير فاسيليف يقول: "إن أميركا الآن تنظر إلى العالم الإسلامي بوصفه إمبراطورية الشر الجديدة"(١).

ولم تستهدف الحركة التبشيرية أبدا تنصير المسلم، ولكن تسعى هذه العملية التبشرية لإخراج المسلمين من دينهم وتركهم بدون ملة أو هوية دينية، لاعتبار أن الدخول في المسيحية هو شرف لكل مسلم لا يستحقه!

والموجة العنصرية الصليبية التي تتصاعد في أوروبا وأميركا لا تخص كبار القادة وحدهم، ولا تخص اتجاهات سياسية معينة بل هي موجة للجميع، كتعبير عن وجدان صليبي متغلغل في الغرب

* * *

ما رصدناه فيما سبق من موجة عنصرية صليبية عارمة في أوروبا وأميركا يختص على وجه التحديد بما بعد عملية انهيار الشيوعية وانفراد أميركا بقيادة العالم، فهل يرجع الأمر إلى أن الغرب بدأ يبحث عن عدو بديل للشيوعية مثلا. فرجع إلى عدائه للإسلام؟ أم أن الأمر أعمق من هذا التفسير السطحي؟ خاصة بعد أن أصبحت أميركا تكيل بمكيالين لقياس الأمور.

وفي الحقيقة فإن المنطلق العلمي والموضوعي يقول: إن انهيار الشيوعية لا يؤدي بالضرورة إلى العداء للإسلام، وإن بحث الغرب عن عدو بديل للشيوعية - ربما لأنه يحتاج إلى عدو دائما! لا يمكن أن يكون مبررا لاختيار الإسلام بالذات ليكون هو العدو الجديد، ما لم يكن هناك استعداد ذاتي في الوجدان الغربي لتقبل هذه الفكرة؛ أي ما لم يكن العداء للإسلام أصلا موجودا وعميقا في الوجدان الغربي قبل الشيوعية ذاتها صعودا وانهيارا.

وعلينا أن ندرك بداية أن الشيوعية ما هي إلا أحد أوجه الحضارة الغربية أو هي إحدى إفرازات الأرضية الثقافية للحضارة الغربية التي أفرزت: الرأسمالية والنازية

---

(١) نقلا عن د. محمد مورو - الإسلام وأميركا - مرجع سابق.

والفاشية والاشتراكية الديمقراطية وغيرها. والتناقض الذي كان قائما بين الدول الرأسمالية وبين الشيوعية لم يكن إلا تناقضا بين طرفين خرجا من حضارة واحدة "الحضارة الغربية"، ويحملان السمات الأساسية لتلك الحضارة، وهذا الأمر معروف، بل ويعترف به مفكرو الغرب أنفسهم حتى قبل انهيار الشيوعية، يقول المؤرخ الإنجليزي "أرنولد توينبي":

"إن المنافسة بين الاتحاد السوفيتي وبين الولايات المتحدة على زعامة العالم، وبين المذهب الحر والشيوعية هو موضوع نزاع عائلي داخل أسرة المجتمع الغربي"(١).

وقبل ظهور الشيوعية، وأثناء صعودها، وبعد انهيارها كان وما يزال التناقض الرئيسي في هذا العالم هو التناقض بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية الذي أدى بدوره إلى صراع استمر في الزمان والمكان في التاريخ والجغرافيا وشغل مساحة كبيرة من تاريخ الصراع في هذا العالم منذ ظهور الإسلام وحتى اليوم، وإن كل القوى الغربية بلا استثناء، وكل إفرازات الحضارة الغربية بلا استثناء، وكل دول الغرب تدخل في الطرف المعادي للحضارة الإسلامية.

وصحيح أنه يمكن أن يحدث تناقض بين بعض الدول الغربية أو بعض المذاهب السياسية الغربية أو بين الشيوعية والرأسمالية مثلا أو المعسكر السوفيتي والمعسكر الأوروبي الأمريكي، إلا أن ذلك يظل في إطار التناقضات الثانوية، بل ويمكن لهذه التناقضات الثانوية أن تقفز في بعض اللحظات لتأخذ مكانا كبيرا في التاريخ، إلا أنها تظل رغم حدتها تحمل سمات التناقضات الثانوية التي سرعان ما تذوب وتتلاشى أمام التناقض الجوهري.

فبرغم حدة الصراع الثانوي بين إنجلترا وفرنسا في نهاية القرن التاسع عشر، نرى هذا التناقض يتلاشى مع ظهور الثورة العرابية في مصر، فنجد فرنسا تضحي

---

(١) أرنولد توينبي - تاريخ الحضارات.

بمصالحها في مصر، وتسلم الكعكة كلها لإنجلترا خوفا من خطر الثورة العرابية على المشروع الاستعماري الغربي برمته(١)، ونرى التناقض بين أميركا والاتحاد السوفيتي يتلاشى في قضية فلسطين، ونحن نعلم أن الدولتين اعترفتا بإسرائيل فور قيامها سنة ١٩٤٨(٢).

إذا فالتناقض الغربي مع الإسلام تناقض جوهري امتد في الزمان والمكان منذ ظهور الإسلام وحتى اليوم أيا كان النظام السياسي الغربي الكائن، سواء كانت أوروبا تحت حكم الإقطاع والكنيسة أو الرأسمالية أو مع ظهور المذاهب الفاشية والنازية والشيوعية.

والسلوك الغربي تجاه المسلمين هو نفس سلوك البابا أربان الثاني - مفجر الحروب الصليبية - الذي وقف خطيبا عام ١٠٩٥ م في مجمع كليرمونت الكنسي بفرنسا قائلا: "أيها الجنود المسيحيون.. اذهبوا وخلصوا البلاد المقدسة من أيدي الكفار المسلمين، اذهبوا واغسلوا أيديكم بدماء أولئك المسلمين الكفار"(٣).

نعم قبل أن تظهر أو تندثر الشيوعية بزمان بعيد، كان الإسلام دائما وأبدا هو العدو. فالكاردينال لاتيجوري يحدد أهداف الاستعمار الفرنسي في الجزائر قائلا: "علينا أن نخلص هذا الشعب، وأن نحرره من القرآن، وعلينا أن ننشئ أطفالهم على مبادئ غير التي نشأ عليها أجدادهم، إن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل أو إبادتهم"(٤).

ويقول الجنرال كليمونت تونير وزير الحربية الفرنسية عام ١٨٣٠ أي عام احتلال الجزائر: "إن الحملة على الجزائر هي حرب صليبية هيأتها العناية الإلهية لينفذها الملك الفرنسي الذي اختاره الله للثأر من أعداء المسيحية"(٥).

---

(١) د. محمد مورو - صفحات من كفاح شعب مسلم - الجزء الثالث "الثورة العرابية الإسلامية" - الزهراء للإعلام العربي - القاهرة ١٩٩٢.
(٢) د. محمد مورو - التحدي الاستعماري الصهيوني وجهة نظر إسلامية - دار الفتى المسلم - القاهرة ١٩٨٦.
(٣) د. سعيد عبد الفتاح عاشور - الحروب الصليبية - مكتبة الأنجلو المصرية.
(٤) بسام العسيلي - جهاد شعب الجزائر - دار النفائس - بيروت.
(٥) نفس المصدر السابق.

والجنرال بيجو - القائد العسكري الفرنسي في الجزائر - كان يعمل على جمع الأطفال الجزائريين وتسليمهم للقسيس الأب "بريمون" قائلا: "حاول يا أبت أن تجعلهم مسيحيين"(١).

ويقول الجنرال بيجو أيضا: "إن أيام الإسلام الأخيرة في الجزائر قد ماتت ولن يكون في الجزائر كلها بعد عشرين عاما من إله يعبد سوى المسيح"(٢).

وفي الذكرى المئوية لاحتلال فرنسا للجزائر قال خطباء الفرنسيين: "إن احتفالنا اليوم ليس احتفالا بمرور مائة سنة على احتلالنا الجزائر، ولكنه احتفال بتشييع جنازة الإسلام فيها"(٣).

وفي نفس الاحتفال وقف أحد المستوطنين الفرنسيين في الجزائر يقول: "إن عهد الهلال قد ولى وإن عهد الصليب قد بدأ وإنه سيستمر إلى الأبد"(٤).

وكتبت جريدة فرنسية سنة ١٩٢٦ تقول: "لقد استسلم عبد الكريم الخطابي من غير شرط وخضع لحماية فرنسا، ذلك ما كنا نبغي فالحادث مهم، فهو يضرب الإسلام في الصميم وبوسعنا الآن أن نفتك بهذا الدين الفتك الذريع"(٥).

وحين دخل الجنرال اللنبي القدس يوم ٩ ديسمبر عام ١٩١٧ قال قولته المشهورة: "الآن انتهت الحروب الصليبية"(٦).

وحين دخل الجنرال جورو دمشق يوم ٢١ يونيو ١٩٢٠ توجه إلى قبر صلاح الدين الأيوبي ووقف أمامه قائلا:

"ها قد عدنا يا صلاح الدين"(٧).

---

(١) نفس المصدر السابق.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) أبو الصنصاف عبد الكريم - جمعية العلماء المسلمين في الجزائر ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية - دار الهدى - الجزائر - ١٩٨٧.
(٤) نفس المصدر السابق.
(٥) La Depeche de Constantine 28 - 5 - 1926
(٦) د. عبد العزيز الشناوي - الخلافة العثمانية - مكتبة الأنجلو المصرية.
(٧) نفس المصدر السابق.

وما قاله اللنبي أو جورو ما هو إلا تعبير عن الموقف السياسي والثقافي الأوروبي في ذلك الوقت، فنشرت الصحف البريطانية صور اللنبي وكتبت تحتها العبارة التي قالها، وهنأ لويد جورج وزير الخارجية البريطانية في ذلك الوقت الجنرال اللنبي في البرلمان البريطاني لإحرازه النصر في آخر حملة صليبية من الحروب الصليبية التي سماها لويد جورج الحملة الصليبية الثامنة(١).

والجندي الإيطالي الذي كان يذهب إلى ليبيا لاحتلالها كان ينشد لأمه: "أماه.. أتمي صلاتك.. لا تبكي.. بل اضحكي وتأملي.. أنا ذاهب إلى طرابلس.. فرحا مسرورا.. سأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة.. سأحارب الديانة الإسلامية.. سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن"(٢).

ويقول لورانس براون: "إن الإسلام هو الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي"(٣).

ويقول رئيس الوزراء البريطاني الأسبق: "ما دام هذا القرآن موجودا في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق"(٤).

ويقول المستشرق جاردنر: "إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوربا"(٥).

ويقول "أنطوني ناتنج": "على العالم الغربي أن يحسب حساب الإسلام كقوة دائمة وصلبة تواجهنا عبر المتوسط"(٦).

ويقول مسئول في وزارة الخارجية الفرنسية سنة ١٩٥٢:

---

(١) د. وليم سليمان - مقال في مجلة الطليعة القاهرية - عدد ديسمبر عام ١٩٦٦. ولعل استدلال د/ وليم سليمان بها دليل على مدى استفزازها، وكذلك نشرها في مجلة الطليعة اليسارية، أي أن التعصب الصليبي الأوروبي لا ينكره حتى المسيحي المصري، ولا يستطيع حتى أن يبتلعه ذوو الميول اليسارية.
(٢) محمد جلال كشك - القومية والغزو الفكري.
(٣) د. عمر فروخ، ومصطفى الخالدي - التبشير والاستعمار.
(٤) محمد أسد - الإسلام على مفترق الطرق.
(٥) د. عمر فروخ، ومصطفى الخالدي - التبشير والاستعمار.
(٦) وليم بولك - الولايات المتحدة والعالم العربي.

"ليست الشيوعية خطرا على أوروبا فيما يبدو لي، إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديدا مباشرا وعنيفا هو الخطر الإسلامي"(١).

ويقول فيليب فونداس:

"إن من الضروري لفرنسا أن تقاوم الإسلام في هذا العالم وأن تنتهج سياسة عدائية للإسلام، وأن تحاول على الأقل إيقاف انتشاره"(٢).

ويقول كيمون المستشرق الفرنسي:

"من الواجب إبادة خمس المسلمين والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر"(٣).

ويقول أيوجين روستو رئيس قسم التخطيط في الوزارة الأميركية ومساعد وزير الخارجية الأميركية ومستشار الرئيس جونسون لشئون الشرق الأوسط حتى عام ١٩٦٧: "يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية"(٤).

(بل إن الصهيونية، التي تدرك مدى العداء الأوروبي للإسلام استخدمت شعار "قاتلوا المسلمين" لدعوة الأوروبيين للتبرع لإسرائيل)(٥).

حتى أنصار الديكتاتورية والشيوعية في الغرب كان لهم نصيب من العداء للإسلام؛ فما زال ديكتاتور البرتغال يقول:

"إن الخطر الحقيقي على حضارتنا هو الذي يمكن أن يحدثه المسلمون"(٦).

وجريدة الحزب الشيوعي تقول في عدد ٢٢ مايو ١٩٥٢:

---

(١) سعيد حوي - جند الله ثقافة وأخلاقا.
(٢) فيليب فونداس - الاستعمار الفرنسي في أفريقيا السوداء.
(٣) د. محمد البهي - الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي - مكتبة وهبة القاهرة.
(٤) جلال العالم - قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله - المختار الإسلامي القاهرة.
(٥) محمد جلال كشك - طريق المسلمين إلى الثورة الصناعية.
(٦) سعيد حوي - جند الله ثقافة وأخلاقا.

"من المستحيل تثبيت الشيوعية قبل سحق الإسلام نهائيا".

إذا فالعداء للإسلام أمر طال كل إفرازات الحضارة الغربية، وهو وجدان أوروبي عميق قبل ظهور الشيوعية، وبعد انهيارها، وليس أمرا طارئا على العقل والوجدان الأوروبيين.

* * * * *

الإسلام وحماية الأقليات

حماية الأقليات، فضلاً عن أنها فريضة شرعية، فإنها أيضًا تعكس القيم العظيمة لحضارة الإسلام، ولا شك أن الكثير من الأقليات الدينية والعرقية والقومية في العالم تعاني من الاضطهاد منذ أن سادت وهيمنت الحضارة الغربية على مقدرات العالم.

والأصول النظرية، والممارسات العملية في حضارة الإسلام تمثل أروع وأعظم ما عرفته البشرية في هذا الإطار، وبداية فإن الإسلام يحترم خصوصية الأقليات ويحرص على تأكيدها: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ [الكهف: ٢٩]، ويدعو إلى التعارف مع الجماعات البشرية ﴿ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، ويجعل المعيار القانوني واحدًا بالنسبة للأقلية والأغلبية، فلا ازدواج معايير هناك، ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [النساء: ١٣٥]، ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [الممتحنة: ٨].

ويقول الرسول ﷺ : «**وخالق الناس بخلق حسن**» رواه الترمذي (١٩٨٧) وحسنه.

ويقول الرسول ﷺ : «**من ظلم معاهدًا أو كلَّفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة**» [رواه أبو داود (٣٠٥٢)]. وقوى إسناده الحافظ العراقي.

وقال البيهقي في المعرفة (١٣/١٥): روينا في الحديث الثابت عن عمرو بن ميمون، عن عمر بن الخطاب، أنه قال: « أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرا، أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم ».

ولمسلم في الأدب (٢٦١٣) أن هشام بن حكيم وجد رجلا وهو على حمص يشمس ناسا من النبط في أداء الجزية فقال: ما هذا؟ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا».

وقال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة – ليس بيني وبينه نبي – والأنبياء أولاد علات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد» [رواه البخاري (٣٤٤٣)].

وقد بشّر الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بفتح مصر، وأوصى بقبطها خيرًا حيث قال: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحمًا» [رواه مسلم في الفضائل(٢٥٤٣)].

والوثيقة التاريخية الهامة التي كتبها الرسول ﷺ لأهالي نجران تشهد على عدل الإسلام ورحمته، وقد جاء فيها: «ولنجران وحاشيتها ذمة الله وذمة رسوله على دمائهم وأموالهم، وملتهم وبِيَعهم ورهبانهم، وأساقفهم وشاهدهم وغائبهم، وكل ما تملك أيديهم من قليل أو كثير، وعلى أن لا يغيروا أسقفًا من سقيفاه، ولا واقهًا من واقيهاه، ولا راهبًا من رهبانيته، وعلى ألا يحشروا ولا يعشروا ولا يطأ أرضهم جيش... ومن سأل منهم حقًا فالنصف بينهم بنجران على ألا يأكلوا الربا، فمن أكل الربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة، وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا غير مظلومين ولا معنوف عليهم، شهد بذلك عثمان بن عفان» [أورده ابن تيمية في الجواب الصحيح: ص٣٠]

وبعد وفاة الرسول ﷺ سار أبو بكر الصديق، رضي الله عنه على نفس المنهج، فكتب لأهل نجران كتابًا حذا فيه حذو الرسول ﷺ.

وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعطى عمر لأهل إيلياء في بيت المقدس كتابًا جاء فيه: «هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تُسكَن كنائسهم ولا تُهدم ولا يُنتَقص منها، ولا من خيرها، ولا من صليبهم ولا شيء من أموالهم، ولا يُكرَهون على دينهم، ولا يُضَارّ أحد منهم ولا

يسكن إيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وأن يُخْرِجوا منها الروم واللصوص.. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بِيَعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم».

بل إن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قام وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التي على بابها عندما حانت الصلاة، وقال للبطريرك: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدي.

ويقول ساويرس بن المقفع (1): «إن عمرو بن العاص عندما دخل مصر فاتحًا كان بطريرك الأقباط مختفيًا من وطأة الاستبداد البيزنطي، فكتب عمرو بن العاص إلى عمال مصر كتابًا يقول فيه:

«الموضع الذي فيه بنيامين بطريرك النصارى له العهد والأمان والسلامة من الله، فليحضر آمنًا مطمئنًا ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته».

وتحكي المصادر التاريخية أنه في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قام الوليد عبد الملك بهدم جزء من كنيسة يوحنا ليضيفه إلى المسجد الأموي بدمشق، فشكا إليه النصارى ذلك، وعرض المسلمون أن يدفعوا تعويضًا للكنيسة، فأصدر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قرارًا بهدم جزء من هذا المسجد، وردّه إلى الكنيسة، وعندما تباطأ والي دمشق في التنفيذ أصدر عمر بن عبد العزيز قرارًا جديدًا حدد فيه اليوم والساعة التي يجب أن تتم فيها عملية الهدم والتسليم.

ولم يكن كل هذا إلا ترجمة أمينة لروح الإسلام ووصايا الرسول ﷺ الذي يقول: «**من ظلم معاهدًا فأنا حجيجه**» [سبق تخريجه].

وإذا قارنًا ذلك التسامح الإسلامي بتاريخ الاضطهاد الديني في أوروبا نجد أن

---

(١) نقلاً عن د. وليم سليمان، الإسلام والمسيحية على أرض.

هناك فرقًا شاسعًا، فالاضطهاد الديني عَلَم على أوروبا قديمها وحديثها، فالرومان اضطهدوا المسيحيين في بداية ظهور المسيحية أيما اضطهاد، بل وعندما دخلت الدولة الرومانية في المسيحية حوَّلتها إلى مسيحية وثنية، ولم يتوقف الاضطهاد الديني، وانصب هذه المرة على المسيحيين المخالفين في المذهب لمذهب الدولة الرومانية، واشتدت عمليات القتل والتحريض للمسيحيين المخالفين للمذهب الرسمي للدولة الرومانية، حتى إنه في بلد مثل مصر سقط آلاف القتلى حرقًا وتعذيبًا وتنكيلاً على يد السلطة الرومانية، لدرجة أن التراث الكنسي المصري يسمي هذا العصر عصر الشهداء.

وبعد ذلك تحولت الكنائس الأوروبية إلى مؤسسات للقهر والنهب، فمارست الاضطهاد للآخرين، ونهبت الأتباع تحت مسميات مختلفة مثل صكوك الغفران، وتحالفت مع الأمراء ودخلت في صراعات مستمرة داخل أوروبا، وظهرت محاكم التفتيش من خلال الكنائس الأوروبية واضطهدت هذه المحاكم المخالفين في الدين كالمسلمين واليهود، وأصحاب الديانة المسيحية أنفسهم ممن كانت لهم آراء علمية أو فلسفية وعندما ظهر المذهب البروتستانتي تعرض أتباعه إلى عملية اضطهاد قاسية، فقُتلوا وحُرقوا على يد الكاثوليك، وعندما تمكن البروتستانت في بعض البلدان الأوروبية قاموا بدورهم بتنظيم المذابح للكاثوليك.. وهكذا بل وهناك حروب دينية استمرت عشرات السنين، وحتى في الأيام الأخيرة وجدنا الاضطهاد الديني الأوروبي على قدم وساق، فالفرنسيون اضطهدوا المسلمين في الجزائر، والصرب ذبحوا المسلمين في البوسنة والهرسك، وشاركهم في ذلك الكروات، وبارك عملهم بالصمت أو بغيره المجتمع الأوروبي بأسره، وهكذا فالاضطهاد الديني ظاهرة مميزة للحضارة الغربية في كل مراحلها.

يقول شكيب أرسلان في كتابه حاضر العالم الإسلامي: «إن أحد الوزراء العثمانيين كان مرة في أحد المجالس في جدال مع بعض رجال الدولة في أوروبا فيما يتعلق بموضوع التعصب، فقال لهم الوزير العثماني: إننا نحن المسلمين من ترك

وعرب وغيرهم، مهما بلغ بنا التعصب في الدين فلا يصل بنا إلى درجة استئصال شأفة أعدائنا، ولو كنا قادرين على استئصالهم، ولقد مرت بنا قرون وأدوار كنا قادرين فيها على ألا نُبقي بين أظهرنا إلا من أقر بالشهادتين، وأن نجعل بلداننا كلها صافية للإسلام، فما هجس في ضمائرنا خاطر، كهذا الخاطر أصلاً، وكان إذا خطر هذا ببال أحد من ملوكنا، كما وقع للسلطان سليم الأول العثماني تقوم في وجهه الملة، ومثل زنبيلي علي أفندي شيخ الإسلام، ويقول له بلا محاباة: ليس لك على النصارى واليهود إلا الجزية، وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم، فيرجع السلطان عن عزمه امتثالاً للشرع الحنيف، فبقي بين أظهرنا حتى أبعد الفرق وأصغرها، نصارى ويهود وصابئة وسامرة ومجوس، وكانوا كلهم وافدين، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، أما أنتم معاشر الأوروبيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد، واشترطتم عليه إذا بقي بينكم أن يتنصّر ولقد كان في أسبانيا ملايين وملايين من المسلمين، وكان في جنوب فرنسا وفي شمال إيطاليا وجنوبها مئات الآلاف منهم، ولبثوا في هذه الأوطان أعصرًا مديدة، ولا تزالون تستأصلونهم حتى لم يبق في هذه البلدان شخص واحد يدين بالإسلام، ولقد طفت ببلاد أسبانيا كلها فلم أعثر فيها على قبر واحد يعرف أنه قبر مسلم».

وفي إطار الحضارة الإسلامية، عاشت الأقليات ومارست عقيدتها وحريتها، بل شاركت في الممارسات الحضارية الإسلامية، وقد بلغ التسامح الإسلامي الديني في تجربة الحضارة الإسلامية في الأندلس مبلغًا عظيمًا، ولدت أسماء مسيحية ويهودية في إطار الحضارة الإسلامية، ولعل ابن ميمون الأندلسي خير شاهد على ذلك، فبرغم كونه يهوديًا يعيش في مجتمع مسلم، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يصبح مفكرًا أو فيلسوفًا بارزًا.

وفي الحقيقة فإنه إذا كانت الأقليات قد مارست حريتها في ظل الحضارة الإسلامية، وإذا كانت هذه الأقليات في الشرق بالذات، وفي حالة أقباط مصر على وجه الخصوص قد اندمجوا في الحضارة الإسلامية، وأصبحوا بالتالي جزءًا منها؛

بحيث إنهم أصبحوا ينتمون إلى الإسلام كثقافة وكحضـارة وكوطن، وإن اختلفوا فـي الدين والعقيدة، فإن هذا يعني أن المشروع الحضـاري الإسلامي يضم المسلمين ويضم مسيحي الشرق عمومًا، وأقباط مصر خصوصًا.

* * * * *

الأصولية العلمانية في تركيا

يوماً بعد يوم نكتشف أن ما يسمى " بالعلمانية " وما يسمى بالديمقراطية ما هو إلا نوع من الوهم والزيف. وبصرف النظر عن الرأي في تجربة حزب العدالة والتنمية في تركيا، وتحالفاته المبررة أو غير المبررة مع الأمريكان، واضطراره أو عدم اضطراره للاعتراف والتعامل مع إسرائيل تحت ضغط المؤسسة العسكرية، فإن ما يجري في تركيا هو نوع من الكشف الواضح والصريح لتهافت العلمانية والديمقراطية وازدواج معاييرها وعدم صدقها.

بداية فإن حزب العدالة والتنمية التركي، قد كسب انتخابات برلمانية نزيهة وشريفة، ولا يستطيع أحد أن يزعم أن هذا الحزب قد زور الانتخابات لصالحه، أو حتى استخدم أي شكل من الضغوط على الناخبين للتصويت له، بل العكس هو الصحيح، ذلك أن ما تعرض له الحزب من هجمات إعلامية وسياسية وقضائية قبل الانتخابات الأولى، وإعلامية وسياسية قبل الانتخابات الثانية كان كفيل بإضعاف نتائجه، لولا أنه يتمتع بشعبية كبيرة جداً في الشارع التركي، وهكذا فنحن أمام إرادة شعبية تركية واضحة في فوز هذا الحزب وتشكيله للحكومة، بل ووصول مرشحه إلى رئاسة الجمهورية.

وقد استطاع هذا الحزب، الذي يصف نفسه بأنه حزب علماني، ولكنه ليس إقصائياً، بمعنى أنه يقبل بالحرية، حرية ممارسة الشعائر، وحرية الزي، فكل إنسان أو امرأة يرتدي أو ترتدي ما تشاء من ملابس، هذا الحزب استطاع أن يحقق طفرة سياسية واقتصادية كبيرة، وأن يحسن الأحوال المعيشية للشعب التركي، ويزيد الإنتاج، ويعيد لتركيا اعتبارها السياسي والاقتصادي، بل وأن يحل الكثير من مشاكل المرافق والمواصلات والبنية التحتية.

وقد خاض هذا الحزب معركة كبيرة، لإعطاء الفتاة التركية الحق في أن ترتدي أو لا ترتدي الحجاب، بمعنى عدم إجبار الفتاة التركية في الجامعات على خلع

الحجاب، وهو أمر ديمقراطي بمقياس الحرية الديمقراطية ذاته، فالحزب لم يخض معركة لفرض الحجاب، بل العكس كانت المعركة لمنع فرض خلع الحجاب على كل من تريد أن تتعلم في الجامعات التركية.

في المقابل نجد أن الأحزاب والقوى والمؤسسات التي تزعم العلمانية في تركيا، وتزعم حماية الديمقراطية، هي من تقف ضد الحرية وضد الإرادة الشعبية، فما هي حجة الذين يرفضون إعطاء الفتاة التركية الحق في ارتداء ما تشاء من أزياء!! أليس هذا يتعارض مع الديمقراطية بل والعلمانية، ناهيك عن أن الشعب التركي كله مسلم، وبديهي أن الحجاب فريضة إسلامية، وليس السفور مثلاً، أليس هذا نوعاً من الأصولية العلمانية التركية التي تجبر الناس على عدم طاعة الله تعالى وتنفيذ أوامر الدين الحنيف الذي يعتنقونه، في الإطار ذاته فإن المدعي العام التركي رفع قضية لمنع حزب العدالة والتنمية من المشاركة في الحياة السياسية، ومنع ٦٩ من أعضائه من ممارسة السياسة بمن فيهم رئيس الجمهورية " عبد الله جول " ورئيس الوزراء " رجب طيب أردوغان "، أليس هذا نوعاً من الديكتاتورية الأصولية، والعلمانية غير المفهومة ولا المعروفة ولا المبررة، أليس هذا الحزب قد وصل إلى السلطة مرتين متتاليتين عن طريق صندوق الانتخابات، ومن ثم جاء بإرادة شعبية واضحة، أليس هذا نوع من فرض الرأي على الناخب التركي وعدم تركه يختار من يشاء بحرية، وهل يمكن فهم هذه الديمقراطية المزعومة حين يطاح بالحزب صاحب الأغلبية، وبرئيس جمهورية منتخب ورئيس وزراء منتخب بدعوى أن لهم جذوراً إسلامية، أو أن ذلك الحزب خطر على قيم العلمانية الأتاتوركية، وهل هذه العلمانية مقدسة!! أم أنها دين جديد يجب نفي كل ما هو مشكوك في إخلاصه لها، أليست هذه محاكم تفتيش جديدة في القرن الواحد والعشرين، وهل هذه هي مفاهيم الديمقراطية والعلمانية!! التي لا تقبل بالآخر، حتى ولو كان يصف نفسه بأنه علماني معتدل لا يعادي وجدان الناس فقط وصحيح أن تحريك المدعي العام التركي لدعوة قضائية، في الغالب لن تؤدي إلى حظر حزب العدالة، لأن هذا الحظر يعني الإطاحة بأغلبية

واضحة وإرادة شعبية تزيد على النصف، وهو ما يهدد استقرار المجتمع التركي بالكامل، وهل وصل تقديس العلمانية المزعومة إلى درجة أن يصل المدعي العام التركي إلى الرغبة في انتحار تركيا لأن ما يفعله يؤدي إلى نوع من الانتحار التركي، وذلك رغبة في تقديس العلمانية المزعومة. وهل وصل عدم المبالاة بالرجل أن يؤدي قراره إلى خسارة لتركيا تصل إلى ٢٥ مليار دولار في أسبوع بسبب هذا القرار الغبي، ثم لا يتراجع عنه، إن العلمانية بهذه الطريقة علمانية أصولية مقدسة لا تبالي بانهيار المجتمع مقابل استمرار وتقديس قيمها المزعومة.

* * * * *

الانتخابات الإيرانية.. ونهاية التيار الإصلاحي!

جاءت الانتخابات البرلمانية الإيرانية الأخيرة لتفيد التأكيد على عدد من الحقائق الخاصة بالمسار الإيراني الذي تَدشن في السنوات الأخيرة، والذي من المتوقع أن يستمر، مشكّلاً الطيف الأساسي للسياسة الإيرانية، في غضون السنوات المقبلة على الأقل.

وأياً ما كان الرأي، فإن من الضروري أن نتعامل مع الحقائق على الأرض، وأن تتسم تحليلاتنا بالمصداقية والعدل والموضوعية في كل الأمور.

بداية، يجب أن نقرر أن هذه الانتخابات البرلمانية هي الانتخابات رقم ٢٨ في التجربة الإيرانية، وهذا يعني أن هناك انتخابات تقريبًا كل عام، منذ اندلاع الثورة في إيران عام ١٩٧٩، ومن ثم فإن تأثير الناخب الإيراني على السياسة الإيرانية أمر لا شك فيه، وهذا بالطبع لصالح تلك التجربة، خاصة إذا أدركنا مثلاً أن الكثير من تلك الانتخابات جاءت برؤساء جمهورية وبرلمان ومجلس خبراء.. إلخ، أحيانًا كثيرة، على غير رغبة المرشد العام للثورة، وهو أعلى قيادة إيرانية بالنظر لسلطاته، وعلى سبيل المثال، فإن المرشح الإصلاحي محمد خاتمي كان قد نجح مرتين، أي ظل في السلطة ثمان سنوات وحدث شيء من هذا في البرلمان أيضًا.

ويجب أن نرصد هنا أيضًا أن نسبة المشاركة في الانتخابات الإيرانية عمومًا عالية بالقياس بغيرها من الديمقراطيات في الغرب، وقد وصلت في الانتخابات البرلمانية الإيرانية الأخيرة إلى أكثر من ٦٠ ٪ من الناخبين، وهذا يعني أن المشروعية الشعبية للنظام الإيراني لا بأس بها.

صحيح أن النظام السياسي الإيراني شديد التعقيد إلا أن هذا التعقيد يعطيه من الثراء أكثر مما يعطيه من السلبيات؛ فهناك المرشد الأعلى للثورة، وهو أعلى سلطة في النظام، إلا أن هناك صلاحيات كبرى للبرلمان ولمجلس الخبراء، فأي من هذه الثلاث سلطات - أي البرلمان ومجلس الخبراء والمرشد - يمكن أن يعطل أو يعرقل

عمل الآخر، مما يعطي نوعًا من التوازن في السلطات يحول دون انفراد طرف واحد بالحكم. وكذا هناك سلطات تنفيذية واسعة لرئيس الجمهورية، إلا أنها محكومة بالبرلمان والمرشد ومجلس الخبراء، كل فيما يخصه، فلا يستطيع رئيس الجمهورية مثلاً أن يعين وزيرًا إلا بموافقة البرلمان.

وهكذا فإن الانتقادات الأمريكية والغربية للنظام الإيراني بأنه غير ديمقراطي، انتقادات تفتقد إلى الموضوعية. وهؤلاء يركزون على أن هناك نوعًا من الرقابة المسبقة على الترشيح يستطيع النظام بموجبها منع من لا يريد ترشيحه، ولكن الحاصل أن المعايير التي تستخدمها أجهزة الفحص في أوراق المرشحين معايير عامة وشفافة، تتصل بالنزاهة وعدم معاداة الإسلام والمذهب الشيعي وغيرهما، وهي أمور بديهية في نظام يستند إلى المرجعية الدينية الشيعية، بل وأكثر من هذا فإن الكثيرين من معارضي النظام يمرون من تلك اللجان وكثيرين آخرين من مؤيدي النظام لا يمرون منها، أي أن الأمر لا علاقة له بكون المرشح إصلاحيًا أم محافظًا، ثم بعد ذلك يتمتع كل بحقه الكامل في انتخابات نزيهة شفافة.

مسألة الإصلاحيين والمحافظين هي نوع من التعبير المطاط الذي لا يعكس حقيقة المسألة؛ فهناك من هو محسوب على الإصلاحيين وهو من رجال الدين مثلاً، وربما يعرض آراءً متشددة في قضايا معينة، والعكس صحيح تمامًا. وداخل كل تيار من هؤلاء يوجد طيف واسع من القوى المتناقضة في قضايا شتى.

الانتخابات الأخيرة إذن وحسب المراقبين، كانت بين عدد من القوى: التيار الإصلاحي برئاسة شقيق الرئيس خاتمي، وعلى يمينه تيار إصلاحي آخر برئاسة مهدي كروبي، ثم تيار محافظ يمثل أحمدي نجاد، ويحظى بدعم الحرس الثوري، وعلى يمينه تيار محافظ آخر برئاسة لاريجاني، يحظى بتأييد رجال الدين المتشددين. وقد أظهرت النتائج أن ترتيب القوى جارٍ كالتالي: التيار المحافظ الموالي لرئيس الجمهورية أحمدي نجاد، يليه التيار المحافظ المناهض لأحمدي نجاد، وهو برئاسة علي لاريجاني، الذي كان يمسك الملف النووي الإيراني ثم اختلف مع أحمدي نجاد

وخرج من ذلك المنصب، وهناك في المنتصف تيار هاشمي رفسنجاني المحسوب على الإصلاحيين أحيانًا والمحافظين أحيانًا، والموصوف بالبرجماتية دائمًا، والرئيس هاشمي رفسنجاني هو رئيس جمهورية سابق لفترتين، وهو حاليًا رئيس هيئة تشخيص مصلحة النظام، وهي هيئة لها دورها الكبير في رسم السياسات الإيرانية.

الملاحظة الجديرة بالاهتمام هنا هي أنه لا يمكن وصف تيارين بأن أحدهما مثلاً برجماتي والآخر مبدئي، فالرئيس نجاد مثلاً - وهو من يعكس المحافظة والمبدئية في النظام الإيراني - زار العراق، وبات في المنطقة الخضراء في حماية جنود أمريكان، وقدم دعمًا هائلاً للنظام العراقي، متمثلاً في نوري المالكي، وهو نظام عميل للاحتلال الأمريكي، وساعد على نجاح المشروع الأمريكي في العراق، ومن ثم فإن البرجماتية ربما تكون السمة الوحيدة المميزة لكل التيارات الإيرانية السياسية أو معظمها على الأقل.

في كل الأحوال، فإن من الواضح أن تحالف الحرس الثوري مع رجال الدين هو الفائز الرئيسي في تلك الانتخابات، وأن هناك توازنًا بين أربعة قوى تشكل هذا البرلمان. ومع أن هناك فرقًا بين تلك القوى، إلا أن إحداها لا تستطيع أن تشكل أغلبية مطلقة. وكذا من الملاحظ أن التيار الإصلاحي يسير في منحنى الهبوط؛ فقد حصل على حوالي خمسين نائبًا في ذلك البرلمان، وهي أقل من نسبته في البرلمان السابق. ومن المعروف أن كلاً من مؤسسة المرشد ومؤسسة مجلس الخبراء ومؤسسة الرئاسة في أيدي المحافظين. وبالإضافة إلى البرلمان يصبح الإصلاحيون على هامش الحياة السياسية الإيرانية. ولا شك أن ذلك أمر طبيعي؛ فمفهوم أن الشعوب عادة تصوت لكل من يعادي أمريكا وإسرائيل، ولا تتحمس لمن يطرح صيغة مرنة في هذا الصدد، وهذا واضح في كل الانتخابات غير المزورة في العالم الإسلامي، ولم تشذ إيران عن ذلك. وكذلك فإن تجربة الحوار مع الغرب وأمريكا التي جربها الرئيس خاتمي لم تحقق أي نتائج تذكر، ولذا كان من الطبيعي أن ينحسر هذا التيار مع الوقت، ومن المتوقع أن يتلاشى، وهذا لا يعني سيادة تامة للمحافظين، بل ظهور نوع جديد من التقسيم السياسي في التجربة الإيرانية.

* * * * *

المقاومة الصومالية وصراع القرن الأفريقي

بعد مرور عام أو أكثر على الاحتلال الأثيوبي للصومال، فإن المقاومة الصومالية أصبحت رقمًا هامًا في معادلة الصراع، ليس في الصومال وحدها؛ بل في القرن الأفريقي كلّه، وبالتالي، في مجمل الصّراع العربي الإسلامي مع الولايات المتحدة وحلفائها، إسرائيل وأثيوبيا وغيرهما. واستطاعت تلك المقاومة أن تُعيد تنظيم نفسها، وأن تشكّل جبهةً واسعةً من مختلف القوى الإسلامية والوطنية في الصومال، في القلب منها بالطبع، توجد المحاكم الإسلامية، ذات التجربة الهامّة في تحقيق الاستقرار في الصومال لأول مرة منذ عام ١٩٩١م، ولمدة عامين من ٢٠٠٤م إلى ٢٠٠٦م، وهو أمرٌ لم يكن يروق للكثيرين في المنطقة والعالم؛ لأسباب تتّصل بمحاولة الترويج لطريقةٍ واحدةٍ للحُكم، وعدم الارتياح لنظام إسلامي معتدل، حتى لو كان ذلك في الصومال، وحتى لو كان الثمن إعادةَ الفوضى - ومن ثم، القتل والتشريد والدمار - إلى ذلك البلد المظلوم.

لكن في ذكرى مرور عام على احتلال الصومال، هل حققت أمريكا، عن طريق أثيوبيا، أهدافَها في الصومال؟! وما هو مستقبل المنطقة في ظل ذلك الصّراع؟ وهل تُكرِّر المقاومة الصومالية النموذجَ الأفغانيّ للمقاومة؟ وهل تصبح الصومال أحد محطات الانتصار الإسلامي على الاستعمار الأمريكي؟

هذه وغيرها، أسئلةٌ يجب الاقتراب منها، في محاولة لرسم تصورات صحيحة، ومن ثم امتلاك الوعي والمنهج الصحيحين لإدارة الصراع.

بدايةً.. فإن جمهورية الصومال، هي دولة عربية إسلامية، يبلغ عدد سكانها حوالي ١٠ مليون نسمة، كلُّهم من المسلمين السُّنة، على المذهب الشافعيّ. ومن ثم، فلا مشاكل دينية هناك، أو طائفية، بل هناك توحُّد على

الدين والمذهب، وهو أمر هام جدًا، بالنظر إلى وجود مشاكل طائفية أو عرقية، تعرقل المقاومة إلى حدّ ما، في العراق ولبنان وأفغانستان، مثلاً.

وتبلغ مساحة الصومال ٦٥٠.٠٠٠كم٢. وتمتلك الصومال أكبر وأطول ساحل على المحيط الهندي والبحر الأحمر، في حين لا تمتلك أثيوبيا أيَّ منافذَ بحريةٍ، ومن ثم، فإن الاهتمام الأمريكي والغربي بالصومال في إطار نشر النفوذ في القرن الأفريقي أمرٌ مفهوم، وقد اعترف باحثون أمريكيون، منهم جوناثان هاو، في مجلة النيوزويك عام ١٩٩٥م، بوجود مشروع أمريكي في الصومال على غرار المشروع الأمريكي في العراق، بل إن الولايات المتحدة حاولت بالفعل، إدخال قواتها إلى الصومال عام ١٩٩٣م، في إطار قرار من الأمم المتحدة، ولكنْ تصدّى الصوماليون لتلك القوات، وقُتل وسُحل عددٌ من الجنود في الشوارع الصومالية، وهو ما أدى إلى الانسحاب الأمريكي في ٣١/ ١/ ١٩٩٤م، ومن ثم بحثت أمريكا عن وكيلٍ يقوم لها بهذا الدور، ووجدت أثيوبيا صالحةً لهذا الأمر، حيث هناك عداءٌ تاريخيّ بين أثيوبيا والصومال من ناحية، وصراعات إقليمية أخرى، جعلت أثيوبيا تبحث عن تحالف مع الولايات المتحدة؛ لترجيح كفتها في الصراعات.

الحقائق التاريخية المعروفة، أنّ هناك عداءً غربيًا صليبيًا للصومال؛ ففي عام ١٥١٥م استنجد الأحباش بالدول الأوروبية؛ بسبب انتصار المسلمين الصوماليين عليهم، وتدخلت البرتغال بالفعل، ووصلت إلى ساحل الصومال في ذلك العام (١٥١٥م).

إن هناك نوعًا من النفوذ والتحالف التقليدي بين إسرائيل وأثيوبيا على حساب مصر والسودان والصومال طبعًا، ومن ثم الأمن العربي والإسلامي. ولذا فإن تفكيك الصومال وعدم استقراره هدفٌ أثيوبي ثابت، وكذا أصبح هدفًا إسرائيليًا أمريكيًا؛ لأن وَحدة الصومال واستقرارَه تعني المطالبة

بأراضي "أوجادوين" التي تسيطر عليها أثيوبيا، وكذلك عدد من المناطق الأخرى التي تسيطر عليها دول أخرى، بل إن استقرار الصومال، ربما يعني تفكيك أثيوبيا ذاتها؛ حيث إن هناك حركات دينية وطائفية وعرقية أثيوبية، - ليس في أوجادين وحدها - يمكنها أن تحصل على دعم صومالي في هذا الصدد. وبالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، وفي بحثها عن مناطق نفوذ أفريقية، فإنها لا تريد لمصر ولا للسودان ولا للصومال أيَّ نوع من الاستقرار، وقد ظهر عامل آخر في الصومال، هو نجاح المحاكم الإسلامية في تحقيق الأمن، ووقف الفوضى، وتحقيق نوع من التنمية والاستقرار، وتوحيد الصومال، في إطار نظام حكم إسلامي. وهذا يعطي نموذجًا محكَمًا، غير النموذج الديمقراطي، الذي تروّج له إدارة بوش تحديدًا، ومن ثم فإن القضاء على المحاكم الإسلامية كان هدفًا أمريكيًا معروفًا.

بعد مرور عام على الاحتلال، فإن النظرة الأولية للأوضاع في الصومال تقول: إن ما حققته المحاكم الإسلامية من نمو واستقرار ووَحدة، تحوّل بفعل الاحتلال، إلى خراب ودمار. ووفقًا لمصادر الأمم المتحدة ومنظمة "إلن" الحقوقية الصومالية، فإنّ هناك ١٤ ألف قتيل صومالي مدني، و ١.٥ مليون مشرد. وكانت منظمة "هيومن رايتس ووتش" قد اتهمت القوات الأثيوبية بارتكاب جرائم ضد الإنسانية في الصومال.

وفي المقابل نجد أن المقاومة الصومالية قد تصاعدت، ومن المتوقع أن تزداد قوتهُا في المستقبل القريب، فقد استطاعت تلك المقاومة، ووفقًا لمصادر محايدة، أو حتى أمريكية وأوروبية، أن تنفذ ٢٤١ هجومًا ضد القوات الأثيوبية والحكومية، حتى اللحظة، و٦ عمليات استشهادية. وأن قوات المحاكم الإسلامية تحصل على سلاحها عن طريق العدو ذاته؛ حيث تهاجم مراكز الجيش والشرطة، وتستولي على السلاح الموجود فيها. وتقدر المصادر الحكومية الصومالية خسائرها بحوالي ١٤٠٩ قتلى، وحوالي

٣٢٧٨ جريحًا، في غضون عام. في حين أن تلك المصادر تقدر الخسائر الأثيوبية بحوالي ٣٠٥٩ قتيلاً، وحوالي ٧٤٩٢ جريحًا. ووفقًا للمصادر أيضًا، فإن المقاومة الصومالية، أحرزت نجاحًا في دخول الحرب المكشوفة والمباشرة مع العدو، أكثر من مرة، بمساعدة القبائل والأهالي، وتوسيع المدى الجغرافي للمعارك إلى ٧ محافظات في جنوب الصومال، والسيطرة أحيانًا على بعض المدن أو القرى مؤقتًا ولمدة غير قليلة (أيامًا، وأحيانًا أسابيع)، ثم الانسحاب منها، مع المحافظة على أسلوب حرب العصابات.

ماذا لو نجحت المقاومة الصومالية؟.. سؤالٌ يتردد في أروقة مراكز الأبحاث الغربية، خوفًا من تحوّل الصومال إلى قاعدة إسلامية للمقاومة ضد أمريكا في المنطقة، أو تشكيل تحالف عربي إسلامي إفريقي ينهي النفوذ الأمريكي والغربي في القرن الأفريقي، ويهدد النفوذ الإسرائيلي في أثيوبيا، بل ويمثل تهديدًا حقيقيًا لأثيوبيا؛ لأن هزيمة أثيوبيا ستكون بداية لظهور قلاقل عرقية وطائفية في أثيوبيا ذاتها، ناهيك عن عودة إقليم "أوجادين" إلى الصومال.

* * * * *

أوباما يغسل أكثر بياضًا!!

لا شك أن نتائج الانتخابات الأمريكية تستحق المتابعة؛ ذلك أن السياسة الأمريكية تؤثر علينا بالضرورة وبصورة كبيرة، وكذا فإن متابعة الانتخابات الأمريكية تعطينا الفهم والمؤشرات على اتجاه تلك السياسة من ناحية، وفهم المجتمع الأمريكي بصورة أفضل من ناحية ثانية، صحيح أن شخصية الرئيس وكذا نوع الحزب الحاكم في الولايات المتحدة لن يُحدِث تغييرًا جوهريًا في السياسة الأمريكية؛ لأن الثوابت الأمريكية التكتيكية والاستراتيجية، تتحكم فيها مؤسسات أمريكية أقوى من أي رئيس ومن أي حزب، ولكن يبقى أن هناك تأثيرًا ما لذلك الرئيس وذلك الحزب، مهما كان هذا التأثير محدودًا فإن من الواجب علينا رصده وفهمه.

يشكل السيد باراك أوباما، وهو ذو أصول إفريقية، ظاهرةً هامة جدًا في هذه الانتخابات، ولتفسير وجوده ومعاركه الانتخابية يجب تحديد مجموعة من المحددات كالتالي:

- أنه شخص ذو بشرة سوداء، من أصول إفريقية كان أبوه من كينيا، وكان مسلمًا، وهاجر إلى الولايات المتحدة وتزوّج من أمريكية بيضاء، وحصل على شهادات علمية وثروة، ثم تنقل في أكثر من بلد، واصطحب باراك أوباما الابنَ معه فترة من طفولته، ثم رجع باراك إلى الولايات المتحدة، حيث قامت جدّته لوالدته بتربيته ونجح في دخول جامعة هارفارد، وهي أرقى الجامعات الأمريكية، حيث حصل منها على شهادة عليا.

- ما حدث مع الأب والابن يمثلان ما يسمى بالحلم الأمريكي وهو حلم الهجرة والحصول على المال والثروة والعلم من الولايات المتحدة الأمريكية، وإبراز ذلك في انتخابات ذات تغطية عالية جدًا، يمكن أن يساهم في رفع صورة أمريكا وتحسين سمعتها بعد أن تضرّرت كثيرًا بسبب إدارة بوش، وسجن جوانتانامو، والتمييز ضد العرب والمسلمين داخل الولايات المتحدة وخارجها، خاصة أن أوباما الأب كان

مسلمًا، بل وفي اسمه كلمة "حسين".

- أن ترشيح أوباما كأسود ومن أصول إسلامية - حتى وإن كان لا يُعير الدين أي اهتمام - يساهم أيضًا في غسيل ثوب أمريكا العنصري ضد السود والعرب والمسلمين، وهي في أمسّ الحاجة إلى ذلك بعد أن فشلت كل محاولات تحسين صورة أمريكا في العالم رغم إنفاق الملايين وإنشاء القنوات الفضائية والإذاعية، وتعيين مسئولين كبار لإدارة تلك الحملات، مع الأخذ في الاعتبار أن كل استطلاعات الرأي في دول العالم تجعل الولايات المتحدة مكروهةً جدًا.

- أن ترشيح باراك أوباما تمّ استقباله باهتمام بالغ، وهو أمر لم يحدث من قبل عضو من أي مرشح أسود من القسّ جيس جاكسون إلى وزير الخارجية السابق كولن باول، وكذلك حصول أوباما على نسب عالية من الأصوات في كل الولايات الأمريكية.

- لتفسير ذلك كله فإن المسألة ببساطة شديدة تبدأ من معرفة أن إدارة الانتخابات الأمريكية أمر ليس بريئًا تمامًا، وأن هناك قوى تحت السطح تلعب دورًا مهمًا في صياغة وتشكيل العقل الانتخابي الأمريكي، وتوجيه المسائل باتجاه معين، ويبدو أن هناك مَن دفع باراك أوباما ودعمه لعدة أسباب، فهذا أولاً يحقق نوعًا من الرعاية الإيجابية للولايات المتحدة تحتاج إليها بشدة في هذا الوقت، أو نوعًا من غسيل السمعة الأمريكية يقوم به أوباما الأسود الذي يغسل أكثر بياضًا. وهو ثانيًا يعكس أفكارًا تقترب من أفكار الحزب الجمهوري، ومن ثَمّ فإن وجوده في الانتخابات الديمقراطية يعني أنه لو فاز بترشيح الحزب - أو حتى الرئاسة - فلن يحدث تغيير جوهري بخصوص المسائل المتصلة بالرأسمالية، وإذا لم يفز فإن مجرد وجوده في المعركة سوف يقلّل حجم الحماس الليبرالي ويدفع الديمقراطيين باتجاه اليمين.

وكذا فإنه رغم أن باراك أوباما تحاشى الحديث عن موضوع العرق واللون، وطرح نفسه على أنه مرشح الجيل الأمريكي الجديد، إلا أن السيدة هيلاري كلينتون

ومعسكرها لعبوا على ذلك الوتر بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ومن ثم فقد هيّئوا الأجواء الانتخابية عمومًا لذلك المنحنى، وهو منحنى لو تمّ استغلاله بذكاء لكان كفيلاً بإثارة البِيض ومن ثم نجاح أي مرشح آخر، وهذا يحقّق للجمهوريين إمكانية الاستمرار في البيت الأبيض، لو تمّ ترشيح أوباما كمرشح للديمقراطيين، ولو حدث العكس بمعنى فوز هيلاري كلينتون بترشيح الديمقراطيين، فإن شدة المعركة والجهد والمال الذي أنفق في الحملات التمهيدية للديمقراطيين سيُنْهك السيدة كلينتون ومجموعتها ماليًا وعصبيًا، ومن ثم يعطي فرصة أكبر للجمهوريين الذين كانت انتخاباتهم التمهيدية شبه محسومة لصالح جون ماكين منذ البداية، ولم يتم استنزاف الرجل في صراعات طعن العظام كما حدث بين هيلاري كلينتون وباراك أوباما.

وهكذا فإن دفْع أوباما إلى الانتخابات يضرب عشرات العصافير لصالح القوى الرأسمالية ولصالح الدعاية لأمريكا وحتى لصالح الحزب الجمهوري، وبالطبع فإن صراع المؤسسات والأفكار داخل أمريكا، يتّسم بنوع من الاتساع والعمق، بحيث يصعب رصده مباشرة، أو توقع شيء حتمي، في هذا الاتجاه أو ذاك.

* * * * *

تداعيات الهزيمة الأطلسية في أفغانستان

من الضروري على كل القوى الرسمية والشعبية في المنطقة العربية والإسلامية أن تضع تصورات وسيناريوهات لتداعيات الهزيمة الأمريكية والأطلسية في أفغانستان، وبديهي أن تداعيات تلك الهزيمة خضعت لأبحاث ودراسات كثيرة ومتنوعة داخل أروقة وزارات الدفاع والخارجية ومراكز البحث العلمي الأوروبية والأمريكية، بل والدولية استعداداً لذلك اليوم، وحتى لا يفاجأ هؤلاء بالأمر، فلا يستطيعون استثماره سلباً أو إيجاباً، وبقى أننا كدول وكجماعات سياسية ومراكز أبحاث يجب أن نقوم بهذا الدور.

بداية فإن ملامح هذه الهزيمة تلوح في الأفق، فقد اعترف مدير المخابرات الأمريكية مايك ماكونيل أن الوضع الأمني في أفغانستان يتدهور بسرعة، وأن حكومة الرئيس حامد كرازي لا تسيطر إلا على أقل من ثلث البلاد، وذلك بعد ست سنوات من الوجود العسكري الذي تقوده الولايات المتحدة في أفغانستان ومئات المليارات من الدولارات التي تم إنفاقها بدعوى الحرب على الإرهاب.

من جانب آخر فإن خبراء ملف الناتو أعربوا أكثر من مرة عن أن الحلف يعاني من تدهور كبير في القدرات العسكرية داخل أفغانستان، وناشد الحلف أكثر من مرة الدول المشاركة فيه بزيادة قدراتها في أفغانستان، وتم الاستجابة لذلك في بعض الأحيان، ولكن هذا لم يؤدي إلى وقف التدهور بل استمر تصاعد المقاومة باضطراد هناك، لدرجة سيطرة حركة طالبان والقبائل على ٧٠ ٪ من الأراضي الأفغانية بل إن الـ ٣٠ ٪ الباقية التي تسيطر عليها حكومة كرازي وقوات الناتو مشكوك في أمرها، لأنها سيطرة نهارية فقط، وأن الليل يصبح كابوساً على كرازي وقواته وقوات الناتو، لدرجة أن هؤلاء يصبحون في الليل أسرى وحبساء داخل القصر الرئاسي أو المعسكرات المغلقة.

وعملياً، فإن هناك تصاعد ملحوظ في قدرة طالبان، أصبح حقيقة ملموسة في

العام الماضي - ٢٠٠٧، ويزداد مع الأيام، والحديث عن سيطرة أطلسية وأمريكية على أفغانستان وهزيمة طالبان الذي كان صحيحاً جزئيًا عام ٢٠٠١ وما بعدها، أصبح الآن أضغاث أحلام.

يجب في البدء أن نضع مجموعة من الحقائق، ومن ثم نصل إلى التصور الصحيح لدراسة تداعيات هزيمة حلف الناتو في أفغانستان.

- الحرب ضد طالبان واحتلال أفغانستان تم عام ٢٠٠١ عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وأن تلك الحرب كانت بمثابة إعلان أمريكي كامل عن بدء ما يسمى بالحرب على الإرهاب، وأن الولايات المتحدة الأمريكية اعتبرت تلك الحرب هي أهم التحديات التي تواجهها، وصاحب ذلك التفكير فيما يسمى بالقرن الأمريكي والإمبراطورية الأمريكية حول العالم، التي تبناها المحافظون الجدد الذين سيطروا على البيت الأبيض ومن ثم على القرار الأمريكي.

- أن الحرب على أفغانستان حظيت بتأييد أوروبي واسع النطاق بل شاركت قوات أطلسية وأوروبية في ذلك، إيماناً من هؤلاء أن الإرهاب يمثل خطراً على أوروبا كما هو خطراً على أمريكا.

- عندما أقدمت الولايات المتحدة الأمريكية على غزو العراق في إطار مشروع المحافظين الجدد بشأن الإمبراطورية الأمريكية لم يحظ هذا القرار بتأييد أوروبي كامل، خوفاً من تحكم الولايات المتحدة في منابع النفط وتهديد الرأسماليات الأوروبية واليابانية والصينية لحساب الرأسمالية الأمريكية.

- أن المقاومة العراقية التي صعدت سريعاً عقب الغزو، نجحت في إفشال المشروع الأمريكي لاحتلال المزيد من الأراضي أو إسقاط حكومات هنا وهناك، وانتهى الأمر في العراق بما يمكن أن نطلق عليه " المستنقع الأمريكي " والمحصلة لكل هذا أن المشروع الإمبراطوري الأمريكي قد فشل بسبب المقاومة العراقية، وهذا يعني بداية عودة اللاعب الروسي واللاعب الصيني واللاعب الأوروبي إلى التأثير

الدولي وليس انفراد الولايات المتحدة بالأمر كله. ولكن في المقابل، فإن أخطاء أجنحة من المقاومة العراقية، أعطى الفرصة للأمريكان لإفساد الانتصار العراقي، بمعنى أن من المفروض أن يكون الانتصار العراقي بداية لصعود عربي وإسلامي باتجاه تحرير فلسطين وإنهاء النفوذ الأمريكي، ولكن الذي حدث، أن الولايات المتحدة نجحت في إشعال فتيل الحرب الأهلية الطائفية في العراق من ناحية، بل وباختراق السنة عن طريق مجالس الصحوة من ناحية أخرى، ويجب أن نعترف هنا أن ذلك تم عن طريق ارتكاب أجنحة من المقاومة العراقية لأخطاء فادحة.

- أياً كان الأمر، فإنه لأسباب تتصل بطبيعة التركيب السكاني للعراق، وبسبب أخطاء المقاومة، فإن العراق لن تصبح قاعدة للقوى المناهضة لأمريكا وإسرائيل بسهولة، وسيحول دون ذلك خيانات الأحزاب الشيعية وتورطات الأحزاب الكردية وتردد قطاعات من السنة وأخطاء المقاومة العراقية الفادحة.

- على عكس ذلك فإن الوضع في أفغانستان مختلف، فحركة المقاومة شبه موحدة "طالبان". والقاعدة في أفغانستان لأسباب تتصل بالأوضاع الجغرافية والسياسية لم ترتكب أخطاء كما ارتكبت في العراق، وطالبان ذاتها تتمتع بسمعة حسنة ولم تتورط في حماقات داخلية تفجر الوضع الاجتماعي الأفغاني، بالإضافة إلى ذلك فإن البشتون يمثلون أغلبية الشعب الأفغاني، كما أن هناك امتداد سياسي وعرقي للمقاومة الأفغانية داخل باكستان المجاورة، عن طريق بشتون باكستان، وعن طريق وجود نفوذ وتواجد سياسي وتنظيمي لكل من القاعدة وطالبان في باكستان، فهناك أيضاً طالبان باكستانية ثم إن الأوضاع العرقية والقبائلية في تلك المنطقة تعمل لصالح المقاومة ضد أمريكا، بعكس الأوضاع الإقليمية والطائفية في الحالة العراقية، فالامتداد الجغرافي يعمل ضد المقاومة وخاصة " الجوار الإيراني ".

وهكذا فإن إمكانية أن تتحول أفغانستان، مع بعض مناطق من باكستان وربما باكستان كلها إلى قاعدة لمناهضة أمريكا، أمر وارد جداً، بالإضافة إلى ذلك فإن الحرب الأمريكية على الإرهاب تكون قد فشلت فشلاً ذريعاً بهزيمة الناتو في

أفغانستان، إذن فهزيمة الناتو في أفغانستان، تكون هزيمة ليس لأمريكا وحدها بل لأمريكا والغرب وحلف الناتو بالكامل، ومن ثم فإن لذلك آثاراً نفسية واستراتيجية في إطار الصراع الحضاري والصراع السياسي والعسكري في العالم، وتلك المنطقة إذا ما ظهرت فيها قوة راديكالية ضد أمريكا وسيطرت على السلطة في أفغانستان مثلاً، فإن نظرية الدومينو سوف تفعل فعلها، وتتساقط دول ومناطق مجاورة لصالح القوى المناهضة لأمريكا، ومن ثم تصبح خطراً على أمريكا ذاتها، وعلى الغرب كله، وربما تكون بداية العالمية الإسلامية الثانية والله تعالى أعلم.

* * * * *

دلالات شهادة الأخضر الإبراهيمي

الأستاذ الأخضر الإبراهيمي هو المبعوث السابق للأمم المتحدة في العراق، وبديهي أن مهمته تلك أطلعته على كثير من الأحداث والأوضاع والأسرار في العراق بعد الاحتلال الأمريكي، وبالإضافة إلى ذلك فإن الرجل دبلوماسي دولي معروف لعب دورًا بارزًا في الكثير من الأزمات الدولية في العراق وأفغانستان وهاييتي وجنوب إفريقيا، وهذا يعطي شهادته قدرًا كبيرًا من الأهمية.

في مقابلة مع مجلة "نيشن" الأمريكية نشرت الأسبوع الماضي قال الرجل: "إن واشنطن دمّرت العراق وحطمته، وإن سياسة الولايات المتحدة في العراق هي سياسة عَفِنة، وإن الإعداد لغزو العراق بدأ مبكرًا بعد هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وإن اجتماعًا كبيرًا عقد في وزارة الدفاع الأمريكية يوم ٢٠٠١/٩/١٧م، كان مخصصًا للعراق وليس أفغانستان، وأن أحد المشاركين في الاجتماع قد أبلغه بذلك، وأن سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في العراق يمكن أن تؤدّي إلى نوع من الحرب الأهلية، وإذا اشتعلت هذه الحرب الأهلية فإنها لن تكون حبيسة حدود العراق، بل يمكن أن تتعداه إلى لبنان وإلى عدد آخر من المناطق خارج العراق، كما أنه سيكون هناك شباب عرب ومسلمون يريدون أن يتطوعوا بالذهاب إلى العراق لنجدة إخوانهم السنة.

ويرى الأخضر الإبراهيمي أن الولايات المتحدة سلّمت العراق للشيعة العراقيين الذين جاءوا من إيران، وأنها سهّلت سيطرة إيران على العراق بألف طريقة وطريقة، وعندما أدرك الأمريكيون أن إيران سيطرت على كثير من الأوراق في العراق حالوا استعادتها، ولكن ذلك لم يَعُد سهلاً بالنسبة لهم؛ لأن إيران ليس لها نفوذ فقط من خلال ما تُقدمه للعراقيين من أموال وأسلحة، ولكن لديها رجالها في العراق أيضًا. ويقول الإبراهيمي: إن قرار حلّ الجيش العراقي كان قرارًا شيعيًا، نفّذته الولايات المتحدة لهم، وإن الحاكم الأمريكي السابق للعراق "بول بريمر" قال للإبراهيمي: إنه ليس الشخص الذي اتخذ قرار حلّ الجيش العراقي وغيره من القرارات الخاطئة، وأوضح

الإبراهيمي أن الرئيس الروسي الراحل بوريس يلسين عندما تولّى السلطة وكان مقربًا من الأمريكيين فكّر في حلّ الحزب الشيوعي، إلا أن ذلك اعتبر جنونًا منه، لأن الحزب هو الدولة، أما في العراق فقد حلّ الأمريكيون الجيش وحزب البعث، وقد كان جزءًا من النظام. وضرب مثلاً بالعشوائية التي أدار بها الأمريكيون الدولة بعد الغزو قائلاً: "إنه في عام ٢٠٠٤ عندما كان بالعراق شكا له الناس في الموصل من أنه لا بدّ من مدرسين لتعليم أبنائهم، وعندما أبلغ بريمر بذلك أخبره بأنه قام بالاستغناء عن المدرسين والمهندسين؛ لأنهم كانوا أعضاء في حزب البعث العراقي، برغم من أنه كان يعلم أن العراقيين كان لا يمكنهم الالتحاق بأي عمل إلا من خلال عضوية الحزب الحاكم، كما كان الأمر في الاتحاد السوفيتي السابق.

وأشار الإبراهيمي إلى أن ٨٠٪ من قوة الشرطة العراقية حاليًا هي من رجال المليشيات الشيعية، وكذلك بالنسبة للجيش بصورة أقل قليلاً، وأن ذلك لا يمكن أن يكون تشكيلة لقوات أمن قومي.

ويرى الإبراهيمي أن حلّ مشكلة العراق لا يمكن أن تتم إلا بأيدي العراقيين أنفسهم، وبدعم من الدول المجاورة، إلا أن الولايات المتحدة لا تريد لتلك الدول التدخل والمساعدة إلا وفقًا للتصور الأمريكي، وعلى طريقة المساهمة في دعم السياسات الأمريكية في العراق، وأن ذلك يمكن أن يؤدي إلى كارثة.

خلاصة رأي المبعوث السابق للأمم المتحدة في العراق الأخضر الإبراهيمي - وهو يعمل حاليًا مديرًا في معهد الدراسات المتقدمة الأمريكي - أن الولايات المتحدة لم تتخذ قرارًا واحدًا سليمًا في العراق منذ بداية الغزو وحتى الآن، وأنها دمّرت العراق وسلمته إلى إيران.

وإذا كانت شهادة الأخضر الإبراهيمي سليمة - ونعتقد أنها كذلك - فإن الولايات المتحدة ارتكبت جريمة كبرى في العراق راح ضحيتها مئات الآلاف من القتلى العراقيين وملايين من المشرّدين داخل وخارج العراق، وأن عليها أن تدفع ثمن هذه

الجريمة، على الأقل بتعويضات مناسبة، وبمحاكمة القادة الأمريكيين الذين تسببوا في ذلك.

وكذلك فإن قرار غزو العراق لا علاقة له بامتلاكها أسلحة دمار شامل أو غيره، ولا علاقة لها بمسألة الديكتاتورية والديمقراطية، بل هو قرار اتخذ مسبقًا في اجتماع عسكري أمريكي تم عام ٢٠٠١، ومن ثم بحث الأمريكيون عن ذرائع لتبريره.

الأكثر خطورة أن الإبراهيمي قال: إن الأمريكيين حطّموا العراق وسلّموه للإيرانيين، فهل هذا كان جزءًا من مخطط أمريكا لتحويل إيران إلى قوة عظمى إقليمية بإزاحة جيرانها المعادين لها مثل طالبان في أفغانستان، وصدام حسين في العراق، أم أنه كان غباءً أمريكيًا منقطع النظير، وذكاءً إيرانيًا بالمقابل، ونعتقد أن التحليل الثاني هو الأكثر قبولاً بالنسبة للكثيرين حتى الآن على الأقل.

* * * * *

ظاهرة أوباما محاولة غسل الوجه القبيح لأمريكا

إذا عرفنا حقيقة أن الانتخابات الأمريكية في جانب كبير منها هي لعبة بين القوى المهيمنة والمسيطرة على أمريكا، وهذه القوى تتمثل في المجمع الصناعي العسكري، وكبار رجال المال، والبنوك والأجهزة السيادية الأمريكية، وأن أي رئيس جمهورية لأمريكا لا يملك إلا تنفيذ سياسات هذه القوى المسيطرة، لأمكننا أن نفسر ظاهرة المرشح الأمريكي الأسود باراك أوباما. بداية فإن باراك أوباما تم تقديمه إلى الجمهور الأمريكي والعالمي على أنه مرشح ذو أصول سوداء إفريقية من أب كيني جاء إلى أمريكي واستطاع أن يتزوج أمريكية بيضاء - هي التي قامت بتربية أوباما، وحقق نوع من الثراء والتعليم، وبالمناسبة فهو مسلم من كينيا!!. وهذا بالطبع نوع من الترويج لما يسمى بالحلم الأمريكي الذي يداعب خيال كل الطامحين في العالم، وأن أمريكا بلد تعطي الفرصة للأسود والمسلم كما للأبيض والأصفر، ويمكن لأي إنسان فيها، أو وصل إليها أن يحقق الحلم بصرف النظر عن الجذور العرقية والعنصرية والدينية له، وهذا بالطبع ما تحتاجه آلة الإعلام الأمريكية بقوة هذه الأيام، بعد أن أوصلت سياسات جورج بوش واليمين الأمريكي المحافظ سمعة أمريكا إلى الحضيض، أكثر من هذه أن لجاناً شكلت وأموالاً رصدت في محاولة لرفع شعبية أمريكا في العالم عموماً، وفي الشرق الأوسط والمنطقة الإسلامية خصوصاً باءت كلها بالفشل الذريع، وها هي ظاهرة باراك أوباما الأسود ذو الأصل المسلم - بصرف النظر عن أنه يعتقد أو لا يعتقد بالإسلام أو غير الإسلام، وبصرف النظر عن توجهاته السياسية وتركيبته الشخصية التي تجعله أكثر بياضاً من أي انجلوسكسوني بروتستانتي أبيض - بصرف النظر عن كل هذا، فهو يحقق دعاية هائلة لأمريكا هي في أشد الحاجة إليها في تلك الفترة الحرجة من عمر أمريكا، والتي تعاني من هزائم في العراق وأفغانستان، السبب الرئيسي

فيها هو استفزاز العرب والمسلمين لمواجهة أمريكا، ولو تم تخصيص هذا الاستفزاز أو إقناع العرب والمسلمين بأن أمريكا ليست عنصرية ولا صليبية لأمكن تحقيق نصر أمريكي كبير على الإرهاب الإسلامي الذي يستمد قوته من الاستفزاز الأمريكي للمسلمين والعرب.

باراك أوباما كما هو معروف مقطوع الصلة بجذوره الدينية والعرقية، فهو أولاً خريج جامعة هارفارد، وهي جامعة الصفوة في الولايات المتحدة الأمريكية، وأمه وجدته البيضاء هما الذين ربياه وليس أبيه الأسود، ولم يعش الرجل في مجتمعات السود مثلاً، ولا أظهر أي قدر من الانتماء للإسلام بأي شكل ومن ثم فإن آرائه المعلنة والمبطنة، تجعل منه حاملاً للقيم الأمريكية البيضاء، البروتستانتية أكثر من أي شيء آخر، وبالطبع فإنه إلى حين يتم حسم الانتخابات، وسواء نجح أوباما أو لم ينجح سواء في الحملات التمهيدية أو الترشيح عن طريق الحزب الديمقراطي، أو حتى الوصول إلى البيت الأبيض من عدمه، يكون الرجل قد حقق الدعاية المطلوبة.

من ناحية أخرى فإن الرجل الذي يتمتع بقدرات شخصية لا شك فيها قد حظي بترحيب وحفاوة من كل أنواع الطيف الإعلامي والسياسي الأمريكي، وبديهي أن هذا الأمر له دلالاته فالطيف الإعلامي الأمريكي مثلاً تسيطر عليه قوى صهيونية أو يمنية أو ذات صلة بالرأسمالية الأمريكية، فلماذا يرحب به هؤلاء، والطيف السياسي الأمريكي فيه الجمهوري والديمقراطي، اليمين واليسار المحافظ والليبرالي، وكلهم رحبوا بالرجل. فلماذا كان ذلك يمكننا مثلاً أن نفهم الترحيب الجمهوري والمحافظ بالرجل من باب أن الجمهوريين يرون في باراك أوباما شخصية سياسية أقرب إلى الجمهوريين منها إلى الديمقراطيين، ومن ثم فلا بأس أن يكون هو مرشح الديمقراطيين، لتكون الانتخابات بين جمهوري في ثياب ديمقراطي، وجمهوري آخر، أو في رواية أخرى أن وصول أوباما إلى ترشيح الحزب الديمقراطي لمواجهة

المرشح الجمهوري، يجعل المهمة بالنسبة للجمهوريين أقل صعوبة لأن شعبية الجمهوريين هابطة بشدة، بسبب فشل جورج بوش وإدارته، وإذا جاء ديمقراطي حقيقي للمنافسة على الرئاسة معهم، فإن المعركة تكون شبه محسومة، أما إذا جاء باراك أوباما، فيمكن اللعب في النهاية على موضوع أسود وأبيض - والمجتمع الأمريكي لا زال عنصري حتى النخاع - أو حتى ترك أوباما يفوز، وفي تلك الحالة فإن السياسات الأمريكية الكبرى لن تتأثر كثيراً.

* * * * *

من يلبس القلنسوة السوداء بعد البابا شنودة

رغم أن البابا شنودة بطريرك الكرازة المرقسية رقم ١١٧ يعاني من المرض، لدرجة أنه يتردد على المستشفيات في الداخل والخارج أكثر مما يقبع داخل الكنيسة، فإن الحديث عن خلافته يثير غضبه وامتعاضه ويعتبره نوعاً من الفأل السيئ، ويروج المقربون له أن هذا الحديث عن خلافته يثير غضب الرب أيضاً!!. وفي كل مرة يعود فيها البابا شنودة من مستشفى كليفلاند بالولايات المتحدة فإنه يراجع تصريحات الكهنة والقسس بهذا الصدد ويعاقب كل من تجرأ على الحديث عن خلافته أو التلميح لمرضه، ولكن بالطبع فإن سلطات البابا على الكهنة لا تمتد إلى العلمانيين من المسيحيين أو الأوساط غير الكنسية وكذا بالنسبة للساحة السياسية والفكرية المصرية والعربية؛ لأن الشأن الكنسي الأرثوذكسي في مصر يهم كل المصريين - مسلمين ومسيحيين " أرثوذكس وغير أرثوذكس وكذلك هو شأن عربي أيضاً، لأن شخصية البابا واتجاهات الكنيسة المصرية تؤثر على الأوضاع السياسية المصرية والعربية داخلياً وخارجياً، وليس بعيد عن الحقيقة القول أن هناك محاولات أمريكية مستمرة لاختراق الكنيسة المصرية واللعب بورقة الأقليات وهو أمر يؤثر بالضرورة على القرار المصري - داخلياً وعربياً وخارجياً ومن ثم فهو ذو علاقة بالموضوع الفلسطيني مثلاً أو العراقي، أو قدرة النظام المصري على ممارسة نوع من المناورة تجاه أمريكا في مختلف القضايا.

أياً كان الأمر فإن أوساط كنسية ومسيحية داخل الكنيسة وخارجها طالبت بتعيين نائب أو أكثر للبابا، لأنه لا يقبل ترك الأمور بالكنيسة إلى ضفة معينة تديرها وفقاً لمصالحها أو طموحاتها ومن ناحية ثانية فإنه لا يقبل أيضاً أن يدير الباب شنودة كنيسة من داخل غرفة في مستشفى كليفلاند بالولايات المتحدة الأمريكية ومن ناحية ثالثة فإن هذا الأمر - أي تعيين عدد

من النواب أصبح ضروري نظراً لاتساع شئون الكنيسة وابراشيات الخارج وغيرها من القضايا المستجدة.

في ذات الوقت وتزامناً مع تدهور صحة البابا شنودة، فإن هنالك مطالبات من داخل الكنيسة وخارجها أيضاً، بتغيير لائحة انتخاب البابا، وهي اللائحة التي كانت قد صدرت عام ١٩٥٧ وتم على أساسها انتخاب كل من البابا كيرلس السادس " ١٩٥٩ - ١٩٧١ " وانتخب بعده البابا شنوده الثالث منذ عام ١٩٧١ وحتى الآن، وتنص تلك اللائحة على أن يتم الترشيح لمنصب البطريرك من بين الكهنة وأساقفة الأمور العامة مثل أسقفية التعليم والبحث والخدمات والشباب الخ في حين تمنع أساقفة الابراشيات أي الذين يتولون إدارة معينة مثل ابراشيات المحافظات والمدن أو ابراشيات المهجر... إلخ وكان البابا شنودة شخصياً قد ترشح في انتخابات ١٩٧١ على أساس أنه يشغل منصب أسقف التعليم، وتنص لائحة ١٩٧١ أيضاً على أن يتم الاختيار من بين هؤلاء المرشحين، ويقوم بذلك عدد لا يصل إلى ألفين ناخب، وهم الكهنة والأساقفة والأراخنة " الأراخنة أي أعيان وأغنياء كل محافظة "، ويتم اختيار أعلى ثلاثة مرشحين أصواتاً، ثم توضع أسماؤهم في أوراق لكل منهم ورقة باسمه، وتوضع الثلاثة أوراق في صندوق داخل غرفة مظلمة، ثم يقوم طفل بدخول الغرفة والتقاط ورقة واحدة من الصندوق، فيكون الاسم الذي فيها هو المرشح للمنصب، فيتم إخطار جهة الإدارة به، حيث يصدر مرسوماً جمهورياً بتعيينه بطريركاً، ومنذ صدور هذا المرسوم، لا يمكن عزله عن المنصب اللهم إلا في حالة الجنون فقط، وقد حدث مثلاً أن الأنبا صمويل كان هو أعلى المرشحين أصواتاً عام ١٩٧١ في حين كان الأنبا شنودة هو أقل المرشحين أصواتاً في تلك الانتخابات، ومع ذلك خرجت ورقته هو من الصندوق على يد الطفل الذي قام بذلك، فتم تجاهل صمويل الأعلى أصواتاً واختيار شنودة بطريركاً

للكرازة المرقسية تحت اسم البابا شنودة الثالث " اسمه الأصلي نظير جيد ".

وقد تعرضت تلك النقطة بالتحديد إلى انتقادات من كثير من الدوائر المسيحية داخل الكنيسة وخارجها، على اعتبار أن ذلك يتعارض مع العدالة، ويتعارض مع الديمقراطيين ويأتي ببطريرك على غير رغبة أغلبية الناخبين، ويردد المتمسكون بهذا الإجراء على ذلك بأن هذا الأسلوب يحقق إرادة الرب أكثر من أي أسلوب أخر، فالرب هو الذي يختار من يترأس كنيسته!!.

وقد تقدمت عدد من الدوائر المسيحية بمشروعات لتعديل قانون الانتخابات ركزت على إلغاء تلك النقطة، وعلى تحديد أكثر صرامة لمن يحق لهم الترشيح، وعلى زيادة قاعدة الانتخاب والناخبين ووصلت إلى حد جعل من حق كل مواطن أرثوذكسي مصري بلغ ١٨ عاماً أن يقوم باختيار الباب " يبلغ عدد المسيحيين في مصر حوالي ٦ ٪ معظمهم من الأرثوذكس.

* * *

الانتخابات الكنسية المتوقعة بعد وفاة البابا شنودة - والأعمار بيد الله طبعاً - ليست شأناً كنسياً خالصاً، فهناك بالطبع مصالح للحكومة المصرية في اختيار مرشح معين ودعمه بالتالي، على أساس أن البابا المرتبط بالنظام المصري يساعد هذا النظام في الكثير من الأمور مثل الانتخابات العامة مثلاً فيدعو إلى انتخاب الحزب الحاكم - وقد حدث ذلك في حياة شنودة أكثر من مرة بطريقة مباشرة وغير مباشرة، وكذا الدعوة إلى انتخاب رئيس الجمهورية أو عدم مقاطعة الانتخابات... إلخ، وكلها أمور تهم النظام بالنظر إلى وجود حوالي ٢ مليون مسيحي لهم حق الانتخاب العام. وكذا فإن اطمئنان النظام لشخص البابا يريحه من إمكانية استخدام الأمريكان لورقة الأقليات مثلاً، وفي المقابل فإن هناك دوائر أمريكية تريد بابا منفتح وعولمي، ولا يراعي الثوابت الكنسية المصرية في استقلال الكنيسة، أو رفض إسرائيل " حسب

عقيدة الأرثوذكسية المصرية فإن إسرائيل مرفوضة تماماً وعمل من أعمال الشيطان، بل وكذلك النظرة إلى اليهود!! " ويمكن استخدامه كورقة ضغط على النظام وغيرها من الأمور، من ناحية ثالثة هناك وجهاء الأقباط وخاصة كبار الأغنياء يريدون شخصية باباوية قريبة منهم، لتحقيق أقصى استفادة رأسمالية وشخصية وسياسية منها، فهنالك بالطبع الطموح الاقتصادي بل والسياسي لهؤلاء الأغنياء الأقباط، وبعضهم أنشأ قنوات فضائية ومول صحفاً ويريد إنشاء حزب سياسي أو على الأقل استخدام النفوذ المسيحي والبطريركي في الحصول على مغانم سياسية.

في كل الأحوال، وحسب الشائع حتى الآن، والله تعالى أعلم، فإن الحكومة المصرية تدعم الأنبا موسى أسقف الشباب الذي يحظى بثقة الحكومة، ويقيم علاقات متوازنة مع المعارضة وجميع أنواع الطيف السياسي المصري، وكذلك فإن علاقاته مع شباب الكهنة والأساقفة جيدة، وهو يتمتع بشخصية بسيطة تجعله محبوباً من الجميع، وكذا فإنه يدعو إلى تغير لائحة انتخاب البابا، ولا يميل إلى قيام الكنيسة بدور الحزب السياسي، كما كان الشأن في عهد البابا شنودة، أما الأنبا بيشوي والذي استطاع أن يحصل على ثقة البابا شنودة دائماً، وأن يحصل على عدد كبير من المناصب داخل الكنيسة بل ويقوم باستغلال نفوذه في تصفية كل الكهنة والأساقفة الذين لا يرضى عنهم هو أو البابا شنودة وهو يشغل الآن منصب سكرتير المجمع المقدس، فإنه يغازل النظام المصري، ويدعو إلى قبول توريث نجل الرئيس مبارك " جمال مبارك " وكذا يغازل الأمريكان، وهو مدعوم بقوة من أكبر الرأسماليين الأرثوذكس، وهو الملياردير " ساويرس " صاحب شركة أوراسكوم، أما الشخصية الثالثة المرشحة فهي الأنبا يؤانس الذي يعتمد على علاقاته القوية داخل المجمع المقدس، ويروج أتباعه أن العذراء ظهرت له وبشرته بأنه البابا القادم، وبديهي أن هناك مرشحون آخرون، وأن خريطة التحالفات والعلاقات مرشحة دائماً التغيير والتبديل حتى آخر لحظة.

بقى أن نقول: إننا استخدامنا لكلمة القلنسوة السوداء بدلاً من العمامة السوداء،

رغم أن جميع الكتاب يستخدم كلمة العمامة وذلك للتمييز بين القلنسوة الأرثوذكسية والعمامة الشيعية المختصة بآل البيت.

* * * * *

هل اقترب تحرير الصومال من الاحتلال الإثيوبي؟

أكثر من حدث وتطور في الحالة الصومالية يؤكد اقتراب تحرير الصومال من الاحتلال الإثيوبي، أو بالأحرى من الغزو الأمريكي للصومال بقفاز إثيوبي، ذلك أن المعركة في الصومال في التحليل النهائي هي جزء من الحرب الأمريكية على الإسلام والتي تمتد من أفغانستان إلى الصومال. فقد استعادت المقاومة الإسلامية في الصومال خمس مدن في جنوب ووسط الصومال، كما استطاعت تلك المقاومة أن تسيطر على مدينة (بلعد) الاستراتيجية على بعد ٣٠ كيلومترًا شمال العاصمة، كما شهدت العاصمة مقديشو معارك ضارية بين قوات المقاومة وقوات الحكومة الصومالية العميلة المدعومة بالجيش الإثيوبي.

فلماذا نقول: إن انتصار المقاومة الصومالية قد اقترب، وما هي تداعيات هذا الانتصار على القرن الإفريقي، بل على معادلات الصراع الإقليمي والدولي؟

غزو صليبي:

يجب أن نقرر في البداية أن الاجتياح الإثيوبي للصومال، الذي تم في ٢٠٠٦/١٢/٢٤ لم يكن فقط تجسيدًا لحالة العداء التاريخي بين إثيوبيا والصومال، أو جزءًا من الأطماع الإثيوبية في الصومال، بل كان نوعًا من الغزو الصليبي المستمر في الزمان والمكان والذي شكّل مساحة عامة من مساحات الصراع في تلك المنطقة، ذلك أنه بالنظر إلى ممارسات الجيش الإثيوبي (٢٠ ألف جندي مع دبابات وطائرات)، أثبتت كلها أن المسألة ذات بُعد صليبي واضح ومحدد، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن الجيش الإثيوبي يستهدف المدنيين ويدمر البنية التحتية للصومال بلا أدنى داعٍ عسكري كما أنه يجتاح المساجد، ولعل اجتياح وتدمير وقتل المدنيين في

مسجد كانت تتخذه جماعة التبليغ مقرًا لها، يؤكد هذا المعنى؛ لأن جماعة التبليغ مثلاً لا علاقة لها بالسياسة والمقاومة من أي نوع، وهذه حقيقة يعرفها الجميع داخل الصومال وخارجه، ومن ثم فإن استهداف عناصر تلك الجماعة داخل أحد المساجد بالعاصمة مقديشو يؤكد أن للمسألة بُعدًا صليبيًا واضحًا بدون أي ضرورات عسكرية. والمسالة الصليبية تفسر كثيرًا من أحداث تلك المنطقة بدون إغفال العوامل الاستراتيجية الأخرى طبعًا، ومنذ وقت مبكر جدًا، كانت الروح الصليبية هي أحد محركات وعوامل الصراع في تلك المنطقة، ففي عام ١٧١٥ مثلاً استنجدت الحبشة بالدول الأوروبية عندما انتصر الصوماليون عليهم، وكانت دواعي ومبررات استنجاد الجيش بالدول الأوروبية هو الخوف من انتشار الإسلام، والقضاء على النصرانية، وبالفعل تدخلت ثم جاءت فرنسا إلى جيبوتي عام ١٨٦٢ ثم بريطانيا وإيطاليا وأخيرًا أمريكا ١٩٩٣.

الخوف من الصومال الموحّد هدف أوروبي صليبي واضح، وكذا إثيوبي أيضًا، ذلك أن الصومال تحتل موقعًا جغرافيًا استراتيجيًا في القرن الإفريقي وساحل المحيط الهندي وخليج عدن، وتمتلك الصومال ساحلاً من أطول السواحل الإفريقية مع الأخذ في الاعتبار أن دولة أثيوبيا مثلاً ليس لها منفذ، الأمر الذي يثير رغبات التمدد باتجاه الصومال وإريتريا للوصول إلى المياه!!، تبلغ مساحة الصومال ٦٥٠ كيلو متر مربع وعدد السكان ١٠ مليون نسمة، ورغم التنوع العشائري والقبلي، إلا أن جميع سكان الصومال هم مسلمون سُنّة على المذهب الشافعي، وهذا مصدر قوة كبيرة لهم بالمقارنة بالتنوع الطائفي في العراق وأفغانستان، ومن ثم فإن تحول الصومال إلى قاعدة للتمدد الإسلامي أمر أكثر إمكانية، ولعل هذا يفسر الخوف الأمريكي من الانتصار الصومالي، ويفسر أيضًا سرّ الاهتمام الأمريكي والغربي بتلك المنطقة. فأمريكا تخشى أن تتحول الصومال إلى قاعدة لتنظيم القاعدة مثلاً.

وأوروبا تخشى من تحولها إلى قاعدة ونموذج للحكم الإسلامي، على أساس أن المحاكم الإسلامية التي تمثل أكبر وأقوى فرق المقاومة الإسلامية في الصومال، يمكن أن تنجح في إقامة نموذج إسلامي معتدل في الصومال، يلغي كل الأكاذيب حول التطرف الإسلامي والإرهاب وغيره، وقد نجحت المحاكم الإسلامية من قبل في حكم الصومال أشهر قليلة نجحت خلالها في القضاء على الفساد وإنهاء الحرب والنزاعات القبلية، وحققت استقرارًا ونموًا مشهودًا، اعترف به الأعداء قبل الأصدقاء، ولعل هذه التجربة ذاتها، التي أسقطتها القوات الإثيوبية بالغزو المباشر عام ٢٠٠٦ هي نفسها التي جعلت الشعب الصومالي ينحاز إلى المقاومة، وينظر إلى الحكومة الصومالية على أنها حكومة عميلة لأعداء الصومال.

حرب بالوكالة:

يرى المراقبون أن القوات الإثيوبية ليست إلا قفاز، وأن المعركة في الصومال هي مع الأمريكان أساسًا، على أساس أن أمريكا تحاول منع المدّ الإسلامي في كل مكان بدعوى الخوف من انتشار الإرهاب، وفي مقال بصحيفة هاآرتس الإسرائيلية بتاريخ ٢٠٠٦/١٢/١٣ أي قبل الغزو الإثيوبي للصومال مباشرة ((تم الغزو ٢٠٠٦/١٢/٢٤)): «وفقًا لمصادر استخباراتية أمريكية فإن بعض العناصر الإسلامية الصومالية قد استغلت سيطرتها على الأوضاع في الصومال لتحويلها إلى مأوى لكوادر تنظيم القاعدة ممن نشطوا في أفغانستان، وأن هذه العناصر هي التي نفذت الاعتداءات التي وقعت في منطقة القرن الإفريقي ضد أهداف أمريكية وإسرائيلية». ومن ثم يمكن فهم التحليل القائل: إن القوات الإثيوبية هي مجرد بديل عن القوات الأمريكية التي تخشى التورط بنفسها في الصومال لوجود تجارب مريرة سابقة، وكانت الولايات المتحدة قد دخلت الصومال عام ١٩٩٣ بتفويض من مجلس الأمن الدولي، ولكن المسلمين الصوماليين نجحوا في إسقاط طائرتين أمريكيتين في

١٩٩٣/١٠/٣ وقتلوا ١٨ جنديًا أمريكيًا وأصابوا ٨٤ جنديًا آخرين، وقام البعض بسحب جثة أحد الجنود الأمريكيين القتلى في شوارع مقديشو، وانتشرت صورة هذا الجندي إعلاميًا على نطاق واسع، مما شكّل فضيحة للعسكرية الأمريكية، واضطر الرئيس الأمريكي وقتها بيل كلينتون إلى إعلان الانسحاب من الصومال وتم تنفيذ الانسحاب في ١٩٩٤/١/٣١م وقررت الولايات المتحدة منذ ذلك الوقت الاعتماد على قوة إقليمية لتحقيق الأهداف الأمريكية، واستقرّ الأمر على إثيوبيا، لأسباب تتعلق بالقدرات العسكرية فإريتريا مثلاً أصغر من أن تقوم بذلك، وقد دعمت الولايات المتحدة إثيوبيا، في حربها ضد إريتريا مما جعل إريتريا تقفز إلى المعسكر الآخر، ويعترف المحلل الأمريكي جوناثان هاو في مجلة النيوزويك الأمريكية ((أن هناك مشروع أمريكي في الصومال على غرار المشروع العراقي)). ويرى المراقبون أن هناك رغبة أمريكية بالحلول محل النفوذ الفرنسي في إفريقيا عمومًا والقرن الإفريقي خصوصًا، وأن الولايات المتحدة تستهدف مدّ نفوذها إلى الصومال والقرن الإفريقي في إطار الرغبة في حصار مصر والشمال العربي الإفريقي والدول العربية المطلة على البحر الأحمر ((نفس الاستراتيجية الإسرائيلية في تلك المنطقة))، بالتنسيق مع إسرائيل أو لدعم الجهود الإسرائيلية في هذا الصدد، وأن الولايات المتحدة من ثم لا ترغب في استقرار الصومال وترى ضرورة السيطرة عليه أو تفكيكه وإضعافه، ويروى الرئيس السابق للصومال عبد القادر صلاد أن مندوبًا في السفارة الأمريكية نيروبي قال له: ((إن أمريكا تساند الفوضى في الصومال)) ولذلك لا عجب أن أمريكا دعمت كل أمراء الحرب في الصومال على اختلاف مشاربهم.

تداعيات الانتصار الصومالي:

إذا تحقق الانتصار الصومالي - إن شاء الله - فإن ذلك يعني تغييرات

استراتيجية كبيرة على المنطقة والعالم؛ لأن هذا الانتصار سيجعل الصومال تتحول إلى قوة إقليمية شابة واعدة سيكون لها أثر كبير في إطار المعركة العالمية ضد الولايات المتحدة الأمريكية، والمشروع الأمريكي الصهيوني، وعلى المستوى الإقليمي فإن اندحار القوات الإثيوبية سيعني أن إثيوبيا ذاتها مهددة بالتفكك، لأن حركات المعارضة العِرْقية والطائفية داخل إثيوبيا سوف تستغل تلك الفرصة، وكذا حركة المقاومة داخل إقليم أوجادين وهو إقليم صومالي أصلاً كانت إثيوبيا قد اقتطعته من الصومال بالتآمر مع بريطانيا، ويمكن كذلك أن نتوقع عودة الروح إلى الشعب الصومالي، فيقوم بتوحيد نفسه في دولة واحدة تضم كل الأراضي الصومالية المقتطعة من الصومال شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا مثل إقليم أوجادين وبونت لاند وصومال لاند ومنطقة أنفدي التي ضمتها كينيا عام ١٩٦٣م.

* * * * *

كيف يمكن استعادة دور الأزهر
ومن هو المسئول عن إحياء هذا الدور

الحديث عن إحياء دور الأزهر، يعني بداية أن ندرك أن للأزهر دوراً هاماً جداً في القضايا الداخلية والخارجية علي حد سواء، ويعني أيضاً أن هذا الدور أصبح مفقوداً، ومن ثم البحث عن السبب في فقدان هذا الدور، وكيف تم ذلك، وما هي الآثار أو الأضرار والسلبيات التي ترتبت علي ذلك.

بداية فإن من الحقائق الكبرى في حياتنا السياسية والاجتماعية، والتي تبرز لأي باحث في التاريخ القديم والمتوسط والحديث، أن هذه الأمة الإسلامية وكل مجتمعاتها الصغيرة والكبيرة لا تحقق التفاعل والانسجام إلا من خلال الإسلام - وهذا أمر بديهي - فما دام الإنسان مسلما وما دام المجتمع مسلما، فإن التفاعل والإيجابية الاجتماعية والفردية لا تأتى إلا من خلال الإسلام، وهذه بديهية في علم الاجتماع، وحتى بصرف النظر عن الموقف من الإسلام فإن تجاهل هذا المكون الأساسي في حياتنا - أردنا أم لم نرد - يؤدي إلى نوع من السلبية وانفصام الشخصية الفردية والاجتماعية،ومن ثم التخلف والتقهقر، وبديهي أن الإنسان ليس مادة مصمتة تصلح لها قوانين الفيزياء والكيمياء فقط، بل هو كيان اجتماعي مفعم بالتاريخ والجغرافيا والتراث والعقيدة، وأيضا أيا كان موقفنا من هذا التاريخ وتلك الجغرافيا هذا التراث وتلك العقيدة، فانه لا يمكن علميا ولا موضعيا تجاهل هذه العوامل الذي شكل ويشكل الإسلام العامل الأهم وربما الوحيد فيها،ومن ثم فإن الانطلاق من الإسلام هو ضرورة علمية لتفعيل هذا الكائن الإنساني فرديا واجتماعيا،ومرة أخري فمهما كان موقفنا من الإسلام، فإن تجاهله يعني انفصام حتمي في الشخصية الفردية والجماعية لهذه الأمة، ولأي مجتمع من مجتمعاتها، ليس هذا فحسب بل إن الأمر يمتد إلى غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية، لأن هؤلاء تأثروا بالضرورة بالسياق والصيرورة

الاجتماعية والحضارية الذي يشكل الإسلام الجزء الأساسي منها ليس كدين فقط بل كثقافة وحضارة.

الأمر الثاني أن الخبرة التاريخية تقول: إن مجتمعاتنا تقدمت وحققت إنجازا حضاريا مهم عندما كان علماء الإسلام يقودون التوجه الاجتماعي لهذه الأمة ومجتمعاتها، وعندما يغيب هذا الدور تنتكس الأمة حضاريا ونفسيا واجتماعيا وتصبح نهباً للعدوان والغزو والاحتلال والتخلف. وهكذا فإنه من ضرورات التقدم والنهضة والانعتاق والإقلاع، إعادة الاعتبار لهؤلاء العلماء شكلاً وموضوعاً.

الأمر بهذه المثابة لا ينطبق على الأزهر وحده، ولا علماء الأزهر وحدهم بل ينطبق على كل الجامعات الإسلامية في كل مكان بالعالم الإسلامي وإن كان للأزهر بالطبع خصوصيته التاريخية والجغرافية.

على أي حال فإن كل حركات التحرر الوطني في الوطن العربي والإسلامي من المغرب وحتى إندونيسيا " من طنجة إلى جاكارتا "، ومن جنوب إفريقيا حتى تركيا خرجت بالضرورة من عباءة الإسلام، وكان لعلماء الإسلام دور هام فيها. في حالة الأزهر مثلاً فإن المقاومة الشعبية المصرية ضد الحملة الفرنسية خرجت من الأزهر، وكذا شارك الأزهر وعلماء الأزهر في الكفاح الوطني ضد الاحتلال الإنجليزي، وكان الأزهر دائماً في قلب الحدث السياسي والاجتماعي، الأمر نفسه بالنسبة لكل الجامعات الإسلامية وكل علماء الإسلام في كل بلاد الوطن الإسلامي.

وقد تعرضت هذه الحالة وتلك الصيغة لعدد من الضربات بهدف إقصاء الأزهر عن دوره، ومن ثم الانفراد بتلك الأمة وإلحاق الهزيمة بها، وحدث التراجع الوطني والاجتماعي لهذا السبب، ووجدنا أنه في حالات المد الاستعماري أو صعود القوى الاجتماعية الموالية للاحتلال، كان يتم تهميش

متعمد للأزهر ولرجاله، بل والسخرية من علماء الإسلام وإلصاق كل النقائض الأخلاقية والسلوكية بهم، وذلك لفهم العلاقة بين العلماء والجماهير، ومن ثم لا تجد الجماهير قيادة لها تثق فيها وتتحرك من خلال وجدانها، ومن ثم يستريح الاحتلال وتحقق القوى الأجنبية مطامعها فينا.

استعادة دور الأزهر إذن هو ضرورة للتقدم، وضرورة للنهضة وضرورة للكفاح الوطني، ومن ثم فإن إعادة تفعيل دور الأزهر، يمكن أن يلغي الكثير من حالات السلبية الاجتماعية في الداخل، والسلبية السياسية في الخارج، ويمكن أن يحقق تلاحماً بين المسلمين في مختلف بلاد العالم الإسلامي، لأن للأزهر تأثيراً كبيراً في كل البلاد الإسلامية والعربية، ويمكن أن يقرب بين مختلف الفرقاء المسلمين؛ لأنه عامل تجميع على الإسلام، الذي هو الرباط الأساسي في بلادنا بين الناس بمختلف طوائفهم وطبقاتهم وتوجهاتهم، وهكذا فإن البحث عن طريق لاستعادة دور الأزهر، أصبح ضرورة إن لم يكن فريضة من باب أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب والواجب هنا هو مكافحة الاحتلال الأجنبي، ومواجهة السلبية والتخلف والتشرذم والتفرق. وأعتقد أن تفعيل دور الأزهر يقتضي وضع خطة شاملة لتحقيق ذلك، وهذا عمل كبير بالطبع ينبغي أن يشارك في التفكير فيه هيئات وأفراد، علماء ومفكرين سياسيين وإداريين، وعلى سبيل اتخاذ خطوة في هذا الاتجاه، فإنه ينبغي بداية عدم ربط شيخ الأزهر ومشيخة الأزهر عموماً، وجامعة الأزهر بالقيادة السياسية في مصر، فتصبح بوقاً لها، وهذا لا يعني تأييد أو معارضة تلك القيادة، فهذا موضوع آخر، وأياً كان نوع النظام السياسي في مصر مثلاً، فإن الأزهر ينبغي أن يظل مستقلاً عنه، ومن ثم يصبح ضميراً لكل الأمة وليس للمصريين فقط، وينبغي أن تصبح مواقف الأزهر وعلماء الأزهر وشيخ الأزهر بعيدة عن التأثير المباشر للسلطة في مصر، كما ينبغي أن يتم اختيار هيئة كبار العلماء وكذا شيخ الأزهر من

خلال نوع من الاختيار يراعى فيه الجانب الإسلامي وليس المصري، وهكذا يصبح الأزهر وشيخ الأزهر قيادة فكرية للأمة تعمل على القضايا ذات الاتفاق بين كل الأمة، مثل مقاومة الغزو والاحتلال الأجنبي، وتحقيق الوحدة بين المسلمين وليس تبرير تصرفات هذا الحاكم أو ذاك فيصبح ما كان خطأ بالأمس صحيحاً اليوم والعكس صحيح، فتهتز صورة الأزهر وشيخ الأزهر وعلماء الأزهر. وهذا في حقيقة الأمر لصالح أي نظام سياسي في مصر، لأنه كلما زادت قوة الأزهر ونفوذه زادت قوة مصر بالضرورة، وزادت هيبة الآخرين للمسلمين والإسلام، فلا نجد من يتطاول على رموز الإسلام هنا وهناك قبل أن يفكر ألف مرة، لأن هناك هيئة مثل الأزهر قادرة على تحريك الجماهير باتجاه معاقبة اقتصادية أو سياسية لهؤلاء المتطاولين. وفي كل الأحوال فإن استعادة دور الأزهر هو واجب الوقت بامتياز.

* * * * *

لماذا يفشل القانون الوضعي في أي بلد إسلامي؟

القانون الوضعي في أفضل حالاته هو تعبير عن فكر بشري، وبما أن الفكر البشري ناقص في النهاية، فإنه لا يستطيع أن يحيط بما ينفع الإنسان في كل شيء، وتظل هناك مساحات بين القصور تؤدي إلى نتائج سلبية، وهكذا فإن القانون الوضعي لا يستطيع أن يحقق العدل المنشود ولا الاستقرار بحكم أنه قانون وضعي.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن أي مجتمع يتكون من شرائح اجتماعية وسياسية وفئوية مختلفة، ومن ثم فإن الذي يهيمن على الأوضاع يضع من القوانين ما يحقق مصالحه على حساب الآخرين. والقانون وضع أصلاً لتنظيم حياة جماعة من البشر، ويحقق لهم الأمن والاستقرار والعدل ويحفظ الحقوق وينظم العلاقات، وهو حاجة بشرية ضرورية ولازمة لأي مجتمع أو دولة أو حتى جماعة بشرية مهما كان حجمها أو اتجاهها.

ويستمد القانون قوته من وجود رادع أو ذراع يتحقق بها، وكذا من طاعة الجماعة له عن اقتناع أو عن خوف من العاقبة.

ومن المقرر أن يراعي واضع القانون ثقافة الأمة التي سوف تحتكم إلى هذا القانون، لأن أدل علامات نجاح القانون هو وجود اقتناع من تلك الأمة بأهمية المحافظة على هذا القانون، أما الاعتماد على العقوبة أو الخوف فقط فهو أمر يفقد القانون الكثير من قوته.

ويصبح من كان قادرًا على تجاوز هذا القانون في حل من ذلك القانون، أي أن القانون في النهاية يجب أن يكون ترجمة لأخلاق وتقاليد وآداب ونظم الجماعة البشرية التي تحتكم إليه، ومن ثم نرى أن القانون الياباني يختلف عن القانون الإنجليزي، والإنجليزي يختلف عن الصيني وهكذا.

ومن البديهي أن الأمة الإسلامية أمة شديدة التميز والاختلاف عن غيرها، ولها حضارة وثقافة نشأت عن الإسلام أصلاً، واستمرت ولا تزال مستمرة في الزمان

والمكان بآلاف الصور والأوضاع، سواء إبان الخلافة الإسلامية لمدة 13 قرنًا متصلة أو بعد سقوط الخلافة متمثلة في الوجدان والثقافة والتقاليد والأعراف، ومن البديهي أيضًا أن أي قانون لا يراعي تلك الثقافة لن تكون له فرصة للنجاح ولن يلبي حاجات ومطلب الأمة. فإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلم يرى أن القانون ما لم يكن مستمدًا من الشريعة الإسلامية فإن ذلك نوع من المعصية الدينية في أقل الأحوال، لأدركنا أن القوانين الوضعية لن تنجح في بلد إسلامي يعيش فيه مسلمون يعرفون أن تطبيق الشريعة واجب.

بل إن مثل هذه القوانين تكون عرضة دائمًا للتخلص منها وعدم احترامها، ومن ثم تفقد دورها الاجتماعي المنوط بها وتؤدي في النهاية إلى الفشل على كل مستوى، وبدلاً من أن يكون القانون طريقًا إلى العدالة والاستقرار وحفظ الحقوق وتنظيم العلاقات، يصبح شيئًا بغيضًا يحاول الناس الالتفاف عليه وعدم تطبيقه، بل ويعتبرون التهرب من تطبيقه نوع من احترام الدين والتقاليد، وتضطر السلطات إلى استخدام أقسى أنواع القسوة لإجبار الناس على احترام القوانين، فيحدث صراع اجتماعي يؤدي إلى عواقب وخيمة، وفي أقل الأحوال فإن القانون الوضعي يؤدي إلى نوع من انفصام الشخصية الاجتماعية والقانونية للمجتمع.

* * * * *

في ذكرى سقوط بغداد...

عندما سقطت بغداد في قبضة المغول الجدُد، أي الجيش الأمريكي في ظل قيادة هولاكو العصر، المستر جورج بوش، كان اليأس هو عنوان المرحلة.. ونحمد الله أن هذا اليأس لم يدُم طويلاً؛ وذلك بفضل الاندلاع السريع والأسطوري للمقاومة العراقية.

كان الجميع - إلا من رحم ربك - في ذلك الوقت يتحدث عن العصر الأمريكي الجديد، أو القرن الأمريكي، أو الإمبراطورية الأمريكية البازغة، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي السابق: ها هي الولايات المتحدة تحتل كلاً من أفغانستان ٢٠٠١ ثم العراق ٢٠٠٣، وتستعد للتوسع شرقًا وغربًا في سوريا ولبنان وإيران، وربما مصر والسعودية..

فيما بعد، كان الحديث يدور حول ضرورة إعادة بناء استراتيجية عربية وإسلامية جديدة تتأقلم مع هذا الوضع الجديد.. استراتيجية تضع في اعتبارها صعودَ إسرائيل وذبحَ حركات المقاومة العربية والإسلامية. ووصل الأمر إلى حدّ أن البعض اعتبر أنه لا جدوى - من الآن - من المقاومة أو مواجهة أمريكا؛ حتى لا يحدث لنا ما حدث للعراق!!

أخطر من هذا كله، أن البعض - مخلصًا أو مغرضًا - راح يبحث عن تفسير أكثرَ ملاءمةً للإسلام، ليكون إسلامًا وديعًا، أو حتى أمريكيًا؛ حتى نحافظ على شيء من هذا الإسلام المستهدَف أمريكيًا، بالادعاء بأنه لا يمثّل خطرًا على أمريكا وإسرائيل، وغير ذلك من الأمور، ولولا المقاومة العراقية لكان همُّنا الآن هو محاولة تقديم الإسلام كثقافة لا تتعارض مع العولمة والأمركة وقيم الحضارة الغربية، وهذا معناه ببساطة، أن يعيش الإسلام في كنف الحضارة الغربية والقيم الأمريكية.

كان ذلك هو ظن الناس إلا من رحم ربك.. كان اليأس يتملك المخلصين، والشماتة تتملك المغرضين والمريبين، ولكنّ كان هناك تفاؤل، رغم بؤس المرحلة،

وكان هناك من يرى أن هذه الأمة أقوى من كلّ التحديات، وأنها قد مرّت من قبلُ بكوارثَ كبيرةٍ، خرجت منها بفضل الإسلام، وأنها ستخرج من هذه الكارثة أيضًا، ورغم أن هذا التصوّر كان صعبًا إلا أن الثقة بالله كانت تعطي التفاؤل، رغم كلّ السواد الحالك.

تعطل المشروع الأمريكي:

كانت أمريكا تستعد للهيمنة على العالم؛ فبعد السيطرة على العراق، ومن ثم منابعِ البترول، لتتحكم في كل الصناعات في العالم، وتضع تحت رحمتها كلّ مشروعات أوروبا والصين، وتحتوي روسيا والصين جغرافيًا، وتضغط بشدة على كلّ المعارضين لأمريكا في كل مكان بالعالم، وتستعد للقفز على إيران وسوريا ولبنان.. الخ، وكان هذا منشورًا ومعروفًا، ويتم التحدّث عنه علنًا في دوائر السّياسة الأمريكية والإسرائيلية.

وكان معنى ذلك أن المِنطقة العربية والإسلامية في خطر الإبادة الحضارية والثقافية، فضلاً عن الإبادة المادّية، وأن هذه الأمة تعاني من خطر الاضمحلال الحقيقي على كل مستوًى، وكذلك كان هناك خطر على كل العالم.. على أوروبا والصين وروسيا، وعلى الجميع أن يعيد ترتيب صفوفه وأموره؛ وفقًا لهذه الحقائق الجديدة.

ولكنَّ الذي حدث بعد ذلك أن المعادلة تغيرت تمامًا، وذلك بفضل المقاومة العراقية الباسلة، التي اندلعت بأسرع مما توقع أكثرُ الناسِ تفاؤلاً، وحققت وجودًا حقيقيًا في العراق، فأنعشت الأمة، وأعادت الأمل، وصقلت من جديد، روحَ المقاومة الإسلامية في كل مكان، واستطاعت المقاومة العراقية أن تُعطِّلَ المشروع الأمريكي بالكامل، بل وتصل أحيانًا إلى حدّ هزيمة أمريكا هزيمة استراتيجية يمكن أن تُشكّلَ خطرًا على مستقبل أمريكا ذاتها، وأنها وبدلاً من أحلام جورج بوش وديك تشيني بالتوسع في اتجاه

سوريا وإيران ولبنان، وذبح حزب الله وحماس والجهاد، والقفز إلى مصر، أصبح كُلَّ همِّ هؤلاء هو إنقاذ أمريكا من هزيمة استراتيجية، وتحويلُها فقط إلى هزيمة تكتيكية، يمكن احتمال نتائجها؛ فراح هؤلاء ليُسقِطوا العراق في مستنقع الطائفية، لتقسيم المنطقة، وامتصاص طاقة الأمة في الفتن، لمنع المقاومة العراقية من تحويل العراق إلى قاعدة للمقاومة ضد أمريكا، ومن ثم استمرار النضال لتحرير فلسطين، وإنهاء الحِقبة الأمريكية والإسرائيلية بالكامل، وربما أيضًا، التفكير في التوحُّد واستعادةِ مجد الأمة من جديد.

في كل الأحوال، فإن المقاومة العراقية هي بطل هذه الذكرى؛ لأنها - وأياً كانت النتائج - استطاعت على الأقل أن تعطِّلَ المشروع الأمريكي الصهيوني، وأن تعطيَ الأمل لحركات المقاومة الإسلامية في فلسطين وأفغانستان وبعد ذلك الصومال، وأن تحميَ سوريا ولبنان ومصر والسعودية وإيران وغيرها من السقوط في الحقبة الأمريكية.

ويمكننا أن نقول ببساطة: إن فضل المقاومة العراقية كبير؛ فهي التي أوقفت سقوط المنحنى ونزوله، وأحدثت انقلابًا في هذا المنحنى باتجاه الصمود، وحققت حمايةً للدول العربية والإسلامية من السقوط في أيدي الأمريكان، وكذا أنقذت حركاتٍ مثلَ حزب الله وحماس والجهاد من الذبح على أيدي القوات الأمريكية والصهيونية.

* * * * *

الفهـرس

* * * * *